تاريخ الفن

عند العرب والمسلمين

الرفاعي

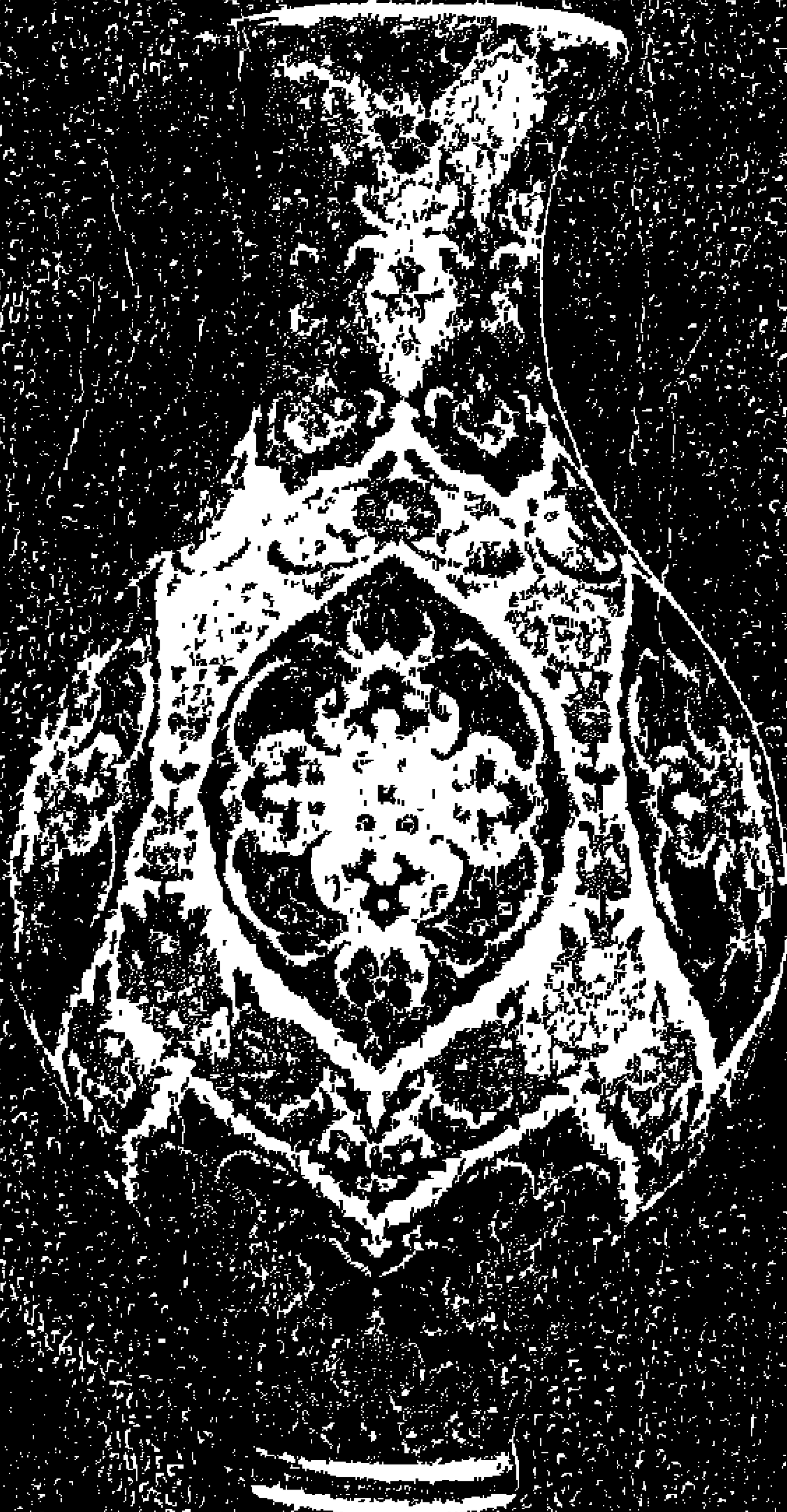

دار الفكر

تاريخ الفن

عند العرب والمسلمين

أنور الرفاعي

دار الفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

الطبعة الثانية

١٣٩٧ - ١٩٧٧

الغلاف والإخراج والإشراف الفني
أحمد المفتي

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

قليلون ، أولئك الذين تصدوا للفنون في العالم الاسلامي ، يدرسونها ويحللون مدارسها ومذاهبها ، ويستنبطون أسسها ومميزاتها ، ويتذوقون جمالها ، ويكتبون عن ذلك كله ، كتابة علمية فنية تتناسب والابداع الفني عند المسلمين الذي بلغ الذروة من حيث المضمون والموضوع والتنوع والطابع والوحدة مع تعدد الاساليب والاذواق ... ذلك ان جلّ الكتاب المسلمين ، انما اغفلوا هذا الجانب من حضارتهم ، في وقت لم يهملوا ناحية من نواحي البحث الا واشبعوها درساً ، واوسعوها تمحيصاً ... لغلبة فكرة الرسم والنحت وصنع التماثيل على الفنون ، ولتخوف الكثير منهم التعرض لهذه المواضيع التي يتجادل العلماء في جوازها أو تحريمها ، وما أرادوا أن يعرفوا ان الرسم والنحت وصنع التماثيل ، ليست هي الفنون كلها ، وباب الفن واسع تدخل منه فنون الريازة والعمران ، والفنون التشكيلية ، والتطبيقية ، والصناعية ، وهي كلها امور لا تخالف الدين من قريب أو بعيد ، بل هي من مستلزمات الدين ، كبناء المساجد ، وتزيينها ، واتخاذ الاثاث والرياش لها ، ومن مستلزمات القوة المادية ، التي أمر بها الدين ، كبناء القلاع

والحصون ، والربط ، والمدارس والتكايا وما اليها ... وهي كلها جديرة بالبحث من ناحيتها العمرانية الهندسية وفن اقامتها ... والخط العربي ، وحده ، وما اوجده الخطاطون المسلمون فيه من أساليب وأنواع وزخرفة ، بحر واسع من بحور الفن ، يحتاج إلى مجلدات تكتب عنه ، ومتخصصين متفرغين لدراسته ، وان التزيينات المقتبسة من النبات والاشكال الهندسية ، البعيدة عن رسم كل ذي روح ، ملأت دنيا المسلمين ، في دينهم ودنياهم ، فازدانت بها المساجد ، واستخدمت في القصور والاضرحة والحمامات ودور السكن العامة ، والاسواق والخانات والقلاع ؛ والمخطوطات ، حتى نسخ القرآن الكريم ، زينت بالرسوم الجميلة البديعة من هذا النوع ، حتى غدا هذا الطراز من الرسم والتزيين صفة عربية — اسلامية سماها الغربيون أرابسك (الأرقشة) اي الفنون الزخرفية العربية ، وسميت الرسوم الناعمة الهادئة اللطيفة ذات الألوان الشفافة الجميلة التي ملأت المخطوطات الاسلامية وأوضحت النصوص برسوم تفسيرية في الكتب العلمية كالطب والكيمياء وعلم الصنعة (الميكانيك) ، أو برسوم تمثيلية تخيلية في الكتب الادبية كمقامات الحريري وكليلة ودمنة مثلا . . . سميت هذه الرسوم بالمنمنمات . ويلاحظ ان رسوم المخلوقات ذات الروح استخدمت في غير اماكن العبادة ، منذ العصر الاسلامي الاول ، تشهد على ذلك بقايا قصور خلفاء بني أمية وحماماتهم في الشام والاردن ...

ولعل المستشرقين هم أول من عني بتراث المسلمين الفني . . . وكان الباعث لهم على البحث ، ملاحظتهم أثر الفن الاسلامي في الفن المسيحي الاوربي ، حين تلمسوا آثار الخطوط العربية في التزيينات الاوربية ، ثم انتبهوا إلى اثر فن بناء المساجد ، والمآذن في بعض الكنائس وابراجها ،

فما كادوا يتتبعون اصول هذه الاقتباسات حتى بهرتهم فنون كثيرة اخذوها عن الاندلس ، والمغرب وصقلية ، كما هي ، أو معدلة ، ووجدوا أن الفن العربي الاسلامي ، كان شأنه شأن العلوم والفلسفة ، التي اخذها الغرب عن العرب والمسلمين في العصور الوسطى ، للتفاوت الذي كان بين حضارتين : حضارة الاسلام المزدهرة ، وحضارة اوروبا المتجمدة التي لم يأنفوا من تسميتها بحضارة العصور المظلمة . .

ومن متابعة البحث اكتشف المستشرقون ، عالماً فنياً غنياً ، اعترفوا أنه اوسع الفنون العالمية انتشاراً ، وأطولها عمراً ، واكثرها تنوعاً وغزارة مع احتفاظه بوحدته المميزة ، فصنفوه إلى جانب اخوته من فنون الامم العريقة : الفن الصيني ، والفن الفرعوني ، والفن اليوناني ، في مرتبة تسمو على سائر الفنون الاوربية والآسيوية الاخرى ...

وترجم المسلمون ما كتبه الغربيون ، وهزتهم عبارات الاعجاب والوصف ، ولفتت نظرهم إلى جمال الفن الاسلامي وتنوعه ، وغنى مواضيعه ، ومدى انتشاره أفقياً وعمودياً ، فهو يضم فنون امبراطورية واسعة امتدت من الصين وتركستان شرقاً إلى اسبانيا واقصى جبل اطلس غرباً ، وضمت شعوباً كثيرة ، كانت لها حضارات ، وكانت لها فنون ، تأثرت بروح الاسلام ، وبالذوق العربي ، فطورت هذه الحضارة ، وهذه الفنون ، بما لا يخالف هذا الذوق ولا تلك الروح ...

والعرب والمسلمون ، في نهضتهم الحديثة ، وفي خضم احياء التراث ، اهتموا بفنهم ، فانكبوا على دراسته ، وفرقوا بين الفن الديني في بناء المساجد والتكايا ، وبين الفن العسكري في اتخاذ القلاع والابراج والرباطات ،

وبين سائر الفنون الاخرى الجميلة منها والتشكيلية ، واذا بهم يكتشفون ، ودفعة واحدة ، عالماً لاحدّ له ولا حصر ، من ثروات فنية اسلامية ، ولا يزالون يجدون ويجدون من هذا الارث الفني مايضاف ، وما يبهر ، وما يثير الاعجاب .

وبعد ! كيف يدرس الفن الاسلامي ؟ أيدرس حسب تسلسل تطوره التاريخي ، كما فعل كثير من كتاب الغرب ، فتتبعوا تطوره مع الاحداث السياسية ، فقسموه إلى فن ما قبل الاسلام ، وفن عصري النبوة والراشدين ، ثم الفن في العصر الاموي فالعباسي ، ثم تتبعوه في الدويلات المنفصلة ، وفي عصور وجود اكثر من خلافة اسلامية ؟... أم يدرس حسب بلاده ، يدرس مثلاً فن الشام ، وفن مصر ، وفن العراق أو فارس ، أو الهند ، أو المغرب أو الأندلس ؟ أم يدرس كل موضوع فني اسلامي كوحدة ، ففن بناء المساجد وأماكن العبادة ، وفن القصور ، وفن التصوير ، والنحت ، وفن الكتابة والارقشة والخزف وما إلى ذلك .

وقد آثرت أن اتبع الرأي الأخير ، فأدرس كل موضوع متتبعاً تطوره من نشأته مع انتقاله من قطر إلى آخر ، ومروره بعصر بعد عصر ، فأجمع في ذلك بين وحدة الموضوع الفني ، وبين المكان والزمان ، وأثرهما فيما برز لهذا الفن من ميزات .

وقد اكثرت من الرسوم ، وهي كلها ، الموجودة في هذا الكتاب ، من رسم أو نقل طلابي في كلية الفنون الجميلة وكلية الهندسة — قسم العمارة في جامعة دمشق ، اخذوها عن الاصل او اقتبسوها عن المراجع حيث وجدت ، وشرحتها شرحاً مقتضباً ، يعطي فكرة عنها ، ويترك للقارىء ان يكتشف بنفسه آيات الابداع ، ورقة الذوق وكماله .

وأملي ان اكون قد بحثت جانباً من جوانب حضارة العرب والمسلمين . كما هو في واقع الحال ، دون ان اتعرض من قريب او بعيد ، إلى نظرة المسلمين إلى الفن وتحريم بعضه ، وانما اكتفيت بوصف ما وجد من أثر فني ، وعرض ما انتج المسلمون وابدعت عبقريتهم من تحف خالدة ، تثبت انهم ضربوا بسهم وافر في هذا المضمار الفني ، الذي كان يبدو لبعض الناظرين ، القليلي البصر ، انه حلقة ناقصة في حضارتهم التي هي جزء اسامي من التراث الانساني ، فتكتمل بذلك وجوه هذه الحضارة التي لولاها ، لتأخر سير الركب الانساني الحضاري عدة قرون باعتراف الغربيين .

والله اسأل سداد الخطى والتوفيق

دمشق ٢٦/٢/١٩٧٣ م الموافق ٢٤/١/١٣٩٣ هـ

أنور الرفاعي

* * *

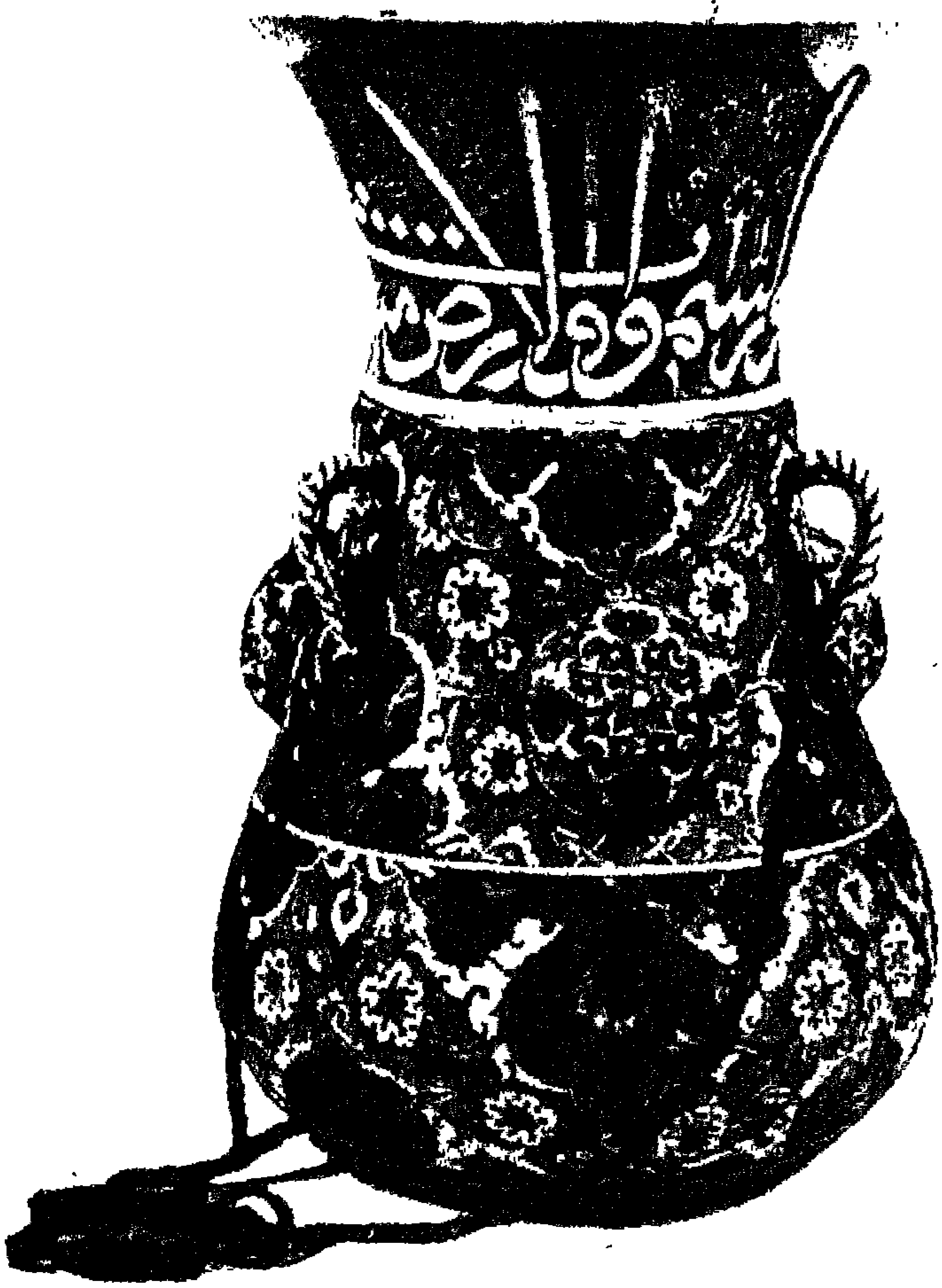

طرق الفنانون المسلمون مختلف المواضيع في زخرفة آنيتهم من الفخار والخزف والزجاج والمعدن .. واعدوا لكل آنية الزخرفة التي تناسب استعمالها ، فبعضها اقتصر على الكتابات الدينية ، وبعضها ملىء بالرسوم والصور البشرية والحيوانية .

الفصل الأول

ميزاته ـ عصوره ـ مدارسه

الفن الاسلامي : هل للاسلام فن ؟ اوليس الاسلام ديناً ؟ والفن فن ؟ فما علاقة هذا بذاك ؟ ...

ان الدين يلتقي في حقيقة النفس بالفن . فكلاهما انطلاق من عالم الضرورة ، وكلاهما شوق مجنح لعالم الكمال ... وكلاهما ثورة على آلية الحياة .

والفن الاسلامي ليس بالضرورة هو الفن الذي يتحدث عن الاسلام . فليس هو الوعظ والارشاد ، وانما هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الاسلامي لهذا الوجود ... هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والانسان من خلال تصور الاسلام للكون والحياة والانسان . هو الفن الذي يهيء اللقاء الكامل بين « الجمال » و « الحق » ، فالجمال حقيقة في هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال ، ومن هنا يلتقيان في القمة التي تلتقي عندها كل حقائق الوجود [1] اذن ماذا نعني بالفن الاسلامي ؟ هل هو فن عربي ؟ ام فن اسلامي ؟ الم يكن في الوطن العربي في عصوره القديمة فنون مميزة ؟ اليست فنون ما بين النهرين ووادي النيل وبلاد الشام

---

(١) من مقدمة كتاب منهج الفن الاسلامي لمحمد قطب .

واليمن من ارقى انواع الفنون القديمة وأكثرها ديمومة وحيوية ؟ وعدلها الاسلام وادخل عليها تطورات جديدة ؟ اليس من المنطق ان تكون فنوناً عربيـة اسلاميـة ، فيها اصالة الفن العربي وذوق وروح الاسلام ؟ ولكن ، هل اكتفى الاسلام في الانتشار فوق ربوع الوطن العربي الكبير؟ أم رفرف بجناحيه بعيداً ، في شرق وغرب ، وشمال وجنوب ، فدخل في حوزته فرس وهنود وصينيون وترك وصغد ومغاربة وزنوج ، وقوط وفاندال وغيرهم ؟ او لم ينضو تحت لواء « حكومة الاسلام » مسلمون وغير مسلمين ، عاشوا في ظل دولة واحدة ؟ ألم يكن لهؤلاء جميعاً في امصارهم المتباعدة تقاليد فنية وتأثرت بالعرب والمسلمين واستمرت هـــذه التقاليد خلال العهود الاسلامية المختلفة ؟

الواقـع ، ان الفن الاسلامي يعنى جميـع الجهود التي بذلها العالم الاسلامي خلال عشرة قرون على الاقل في التعبير عن الجمال وصنـع الاشياء الفنية . والفن الاسلامي أوسـع الفنون العالمية انتشاراً على الاطلاق إذ تمتد آثاره من خليـج البنغال في الهند حتى ايبريا . كما أنه أطول فنون العالم عمراً باستثناء الفن الصيني فقد ولد في القرن السابـع الميلادي (الاول الهجري) وبلـغ عنفوانه في القرنين الثالث عشر والرابـع عشر (٨ – ٧ هجري) ثم هرم منذ القرن الثامن عشر (١٢هـ) وهو الى جانب هـذا وذاك ، آخر فنون العالم ظهوراً قبل ظهور الفنون الغربية الحديثة منذ عصر النهضة الاوربية ، وأخيراً فالفن الاسلامي ذو شخصية قائمة بذاتها ، ذات تاريـخ خاص ومميزات معينة واضحة . وقد اعطاه الاسلام طابعه الخاص ، اعطاه – كما يقول جورج مارسيه – :

« وجهاً جديداً لا يمكن به التعرف على اصولها . وقد كفى هذا الفن أن يمر عليه مائة عام من الزمان لكي يترسخ في أعمال لم يعد بالامكان نسبتها

للفنون القديمة التي أغنته . وعبر القرون يبتعد أكثر فأكثر عن المؤثرات التي أحاطت بقدمه إلى العالم . ففي القرن التاسع الميلادي كان يمكن بسهولة اعتبار تاج عمود في مسجد دمشق أو القاهرة بلطف سلته وأوراق الاكانتوس التي تغلفه مستوحى من الطراز الكلاسيكي الكورنثي وفي الحادي عشر الميلادي يصبح تحديد هوية الأصل نوعاً ما أكثر صعوبة ».

كما يمتاز هذا الفن الاسلامي بتنوعه العظيم ، تنوع أصاب نواحيه وأشكاله وجماعاته وزخرفته وأقاليمه ورجاله . تنوع بلغ من الشدة حداً يصعب فيه كثيراً أن نجد فيه تحفتين متماثلتين . ومع ذلك فانه يمتاز بوحدته . فلو أنك عرضت على أي شخص — كما يقول ديماندر — تقتصر معرفته بالفنون على المبادىء العامة والبسيطة ، صوراً متنوعة ، لتحف مصنوعة في العصور الاسلامية ، منها مثلاً صورة لقطعة من العاج الاندلسي واخرى لقطعة من النسيج المصري وثالثة من الزجاج الدمشقي ،فلا شك أنه يشعر بوحدة أساليبها ، ولا يتردد في الحكم بانتمائها جميعا الى الفن الاسلامي .

ظهور الفن العربي — الاسلامي وتطوره :بدأ الفن الاسلامي ، مع بدء الدعوة ، فقد لفت القرآن الكريم الانظار إلى ناحيتي الجمال والزينة في المخلوقات إلى جانب مالها من النفع فقال : . « والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . . . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . . . » (سورة النحل) وأشار القرآن الكريم إلى الوسيلة التي توصل الانسان المؤمن إلى تهذيب الخلق حتى يصل إلى حب الخير ، وتهذيب الذوق حتى يصل إلى حب الجمال ، فاقسم ببعض المظاهر

الطبيعة لندرك ما فيها من أسرار الجمال الفني ، من تكوين محكم وتنسيق بديع وألوان رائعة ، وتناسب ، وتقابل ، وتكرار ، وظلال وأضواء — كما يقول د. محمد عبد العزيز رزوق — دون أن يحرم القرآن على أتباعه متع الحياة المشروعة : « يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد . وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (سورة الاعراف) .

وبنى النبي عليه السلام مسجد المدينة ، واتخذ المسلمون المساجد في كل بلد انتشر فيه الاسلام . ولئن نشأ فن عمارة المساجد تلبية لحاجة دينية فارتبط المسجد بالدين ، كما ارتبطت المعابد في دنيا العالم بالعقائد الدينية ، فان الفن الاسلامي ما لبث أن ارتبط كثيراً أو قليلا بالحاكم أو حاشيته المباشرة وبالطبقة الغنية . فالمعمار شيد المساجد والقصور ، من أجل الخليفة أو الأمير ، وكذلك فعل عند بناء المدارس والأضرحة ،ونقش النقاشون الرخام وصور الرسامون المخطوطات المستمدة من النباتات أو الأشكال الهندسية ، وحاك العمال البسط والسجاد ، وصنع الفنانون مختلف الأثاث وأدوات الاستعمال الفنية ، فكانت المنشآت المعمارية وصناعة الرياش والحلي وأدوات الزينة تزدهر تبعا لحالة السلم الذي تتمتع به البلاد وتبعاً لغزارة الموارد التي تغذي بيت المال يتداولها التجار والحكام وذوي الثروة والجاه وقد امتد الفن الاسلامي حيث انتشر الاسلام ، على شريط عريض يمتد من شرق الارض الى مغربها ، من خليج البنغال وتخوم الصين الى أقصى المغرب وعبر الى اوربا الى الاندلس وجنوب غرب فرنسا ، وتوغل في القارة الافريقية وما وراء النهر وبخارى وتركستان ، فجمع العالم المتمدن في

العصور الوسطى ، ومزج بين تقاليد شعوب العالم القديم والوسيط ــ عدا اوربا ... ولكي نفهم تطور الفن الاسلامي لا بد أن نربطه بالخطوط العريضة لتاريخ العرب المسلمين .

ففي زمن بني أمية بدأ ظهور الفن الذي يمكن ان نسميه الفن العربي ــ الاسلامي . ولم يكن في مطلع أمره بسيطاً ، كما قد يخيل إلينا . لأن العرب بدأوا باقتباس الفنون التي سبقتهم لانعدام التقاليد الفنية لديهم ، كما هو الحال لدى جميع الأمم . فاقتبس الأمويون الفنون البيزنطية التي وجدوها في سورية والشرق الادنى وأوجدوا منها طرازاً فنياً خاصاً ، هو مرحلة انتقال بين الفنون البيزنطية والطراز العباسي . وقد نقل ولاتهم وقوادهم أساليب ذلك الطراز إلى سائر الأقاليم الاسلامية على يد الصناع الذين كانوا يستقدمونهم من الشام ومصر ، وقد حدث أن بقي ملك بني أمية في المغرب بعد زواله في المشرق ، فبقي الطراز الأموي قائماً وتطور ليظهر منه طراز أموي غربي يشمل أجمل آثار الأندلس .

ولما آل الحكم للعباسيين (منذ سنة ١٣٢ هـ ــ ٧٥٠) وانتقل مركز الخلافة الى العراق تأثرت جميع نواحي الحياة والدولة بالتقاليد الساسانية ومن ذلك الفن أيضاً الذي اتخذ اتجاهاً جديداً واضح التأثر بالأساليب الفنية الفارسية ، فلم يعد فناً عربية اسلامياً بل غلبت عليه صفة الفن الاسلامي وبلغ هذا الفن أوج عظمته في سامراء (القرن الثالث هـ) . ونجح العباسيون كالأمويين في فرض اساليبه على الامبراطورية الاسلامية كلها وأصابوا في ذلك توفيقاً لا يعد له إلا توفيق الاسكندر وخلفائه في نشر الأساليب الهيلينية في الشرق الأدنى والاوسط .

وما انحطت السلطة المركزية العباسية (أول القرن الثالث هـ) حتى

انحط معها الفن الاسلامي الموحد . ومع نشوء السلطات المحليـة المستقلة في الاقاليم الاسلامية ، بدأ نشوء أساليب محليـة مستقلة في الفن : وهكذا حاول الطولونيون بعث طراز إسلامي خاص بهم في مصر ، فنقلوا من العراق كثيراً من التحف الفنية التي مهدت لانتاج محلي مقتبس مما وجد في بغداد مع تعديل مازال ينمو ويظهر حتى جاء الفاطميون ، فبعث خلفاؤهم وامراؤهم واغنياء الشعب في مصر روح فن جديد فيه ترف عظيم ، ووصل الفنانون المصريون إلى طراز فني مستقل ، غني بالرونق والجمـــال ، وفق رجاله في صدق التعبير عن الحالة النفسية ، وفي دقة تصوير الحركة بدرجة لم يبلغها الفنانون في مصر قبلهم ، فكان عصر ثورة ملموسة في الفن ، تتمثل فيما خلفه هذا العصر من تحف خزفيـة مزينة بزخارف مرسومـــة بالبريق المعدني او محفورة تحت الطلاء الزجاجي ، او تحف زجاجية ومعدنية جميلة الصنـع دقيقة الزخرفة ، وما خلفه هـــذا العصر أيضاً من أخشاب مزخرفة محفورة زينت القصور والمساجـد ، واقمشة من الكتان والحرير والصوف موشاة بكتابات تاريخية هامة وزخارف عربية نباتية وهندسية .

فلما كان عصر الايوبيين والمماليك الذي ظهر في مصر والشام ، وازدادت ثروة البلاد ، ومال امراء المماليك إلى حياة الترف ، وملء القصور بالاثاث النفيس واسباب الراحة والنعيم ، والتسابق ببناء القصور والمساجد والمدارس والاضرحة ، واقتناء كل ما هو جميل ونادر فتحسنت صناعة التحف النحاسية المكفتة بالذهب والفضة ، والمشاكاوات من الزجاج المموه بالمينا ، وأنواع الخزف والفخار المطلي بالمينا أيضاً والاخشاب المطعمة بالعاج والابنوس ، والمشربيات وغيرهما من الصناعات الفنيـة التي تشهد بطابـع فني محلي يمثل هذا العصر ، ويدل على ذوق رفيـع ، ومهارة يد ظاهرة .

أما في العراق والشرق الايراني فقد قام على انقاض الطراز العباسي طراز جديد هو الطراز السجلوقي الذي اتيح له السيطرة في عهد السلاجقة بالقرن الخامس على القسم الشرقي من العالم الاسلامي. ثم قامت في ايران، من بعده، وبعد تمزق الامبراطورية السلجوقية الى دويلات، اساليب قومية ايرانية اولها الطراز المغولي الذي ازدهر منذ وطد المغول حكمهم هناك في القرن السابع الهجرى حتى سقط خلفاء تيمور وقامت الدولة الصفوية (في مطلع القرن التاسع فازدهر الطراز الصفوي وسيطر حتى بداية القرن الثاني عشر الهجري. ثم فقد تألقه مع سيطرة الفنون الاوروبية.

ويمكن اخيراً ان نضيف ان الفن الاسلامي غزا الهند منذ القرن العاشر الهجري؛ ولكنه كان متأثراً بالطراز الايراني. كما ان العثمانيين اوجدوا منذ القرنين التاسع والعاشر طرازاً تركياً تأثر بالاسلوب البيزنطي أولاً وبالاساليب العربية كما تأثر في القرون الاخيرة بالطرز الفنية الاوروبية.

عصور الفن الاسلامي:

قلنا إن لازدهار الفن العربي الاسلامي علاقـــة واضحة بالاستقرار السياسي وبميول الحكام الشخصية، وإن بامكاننا أن ننسب الطرز الفنية إلى الدول الحاكمة، ولهذا رأينا أن نعتمد لحد كبير على التقسيمات السياسية في التاريخ الاسلامي، في تحديد عصور الحياة الفنية. على أن نتذكر أنه إذا كان من الممكن معرفـــة التاريخ الذي بدأ فيه حكم الأمرة الحاكمة أو زوالها فاننا لا نستطيع أن نعرف بالدقة أو بالتحديد نفسه تاريخ قيام أي طراز فني أو زواله. لأن الطرز تتطور تدريجياً ويمكن تقسيم الحياة الفنية في الاسلام إلى العصور التالية:

١ـ عصر العالم الاسلامي الموحد : ويمتد من أواسط القرن السابع الميلادي حتى نهاية القرن التاسع الميلادي ، أي فترة الفتح وانتشار الاسلام في العالم القديم . ومن العاصمتين دمشق ثم بغداد وأخيراً سامراء تألق الفن العربي الاسلامي الوليد ، ولم يكن هذا الفن جديداً جدة واضحة لأنه لم يكن قد تكشف بعد عن شخصيته المستقلة ، حتى لقد يعده بعض الكتاب ازدهاراً متأخراً لعبقرية شعوب الشرق العربي القديمة وأطراف الجزيرة وشعوب البلاد التي ضمت إلى الدولة العربية .

في هذا العصر ، استطاع الاسلام وهو خلو من أي تقليد فني ، أن يتوضع في بقعة من أقدم البقاع المتحضرة ويستفيد في وقت واحد من عالم البحر المتوسط والعالم الآسيوي ، فمنحه عالم البحر الابيض المتوسط الفن الهلينستي ، والعالم الآسيوي الفن الإيراني ، فتأثر بهذين الطرازين اللذين تعاقباً أو تزاحماً أو اشتركا في طابعها على آثار العصر الأموي والعصر العباسي الأول . ولكن التأثير الايراني لا يظهر إلا حين ينتقل مركز الحكم إلى العراق ويحل خلفاء بني العباس في بغداد وسامراء محل ملوك الساسانيين في المدائن ، إذا ذاك يظهر استعمال الآجر في تركيب الجدران والكوى ، ويظهر استعمال الجص وغيره في نقشها وزخرفتها ويظهر « الايوان » هذا في نفس الوقت الذي تحتفظ فيه سامراء مثلاً بزخارف هيلينية !

ومعظم الذين قاموا بهذه الأعمال الفنية الأولى في الاسلام كانوا بالطبع من سكان البلاد الاصليين : من السوريين والعراقيين والقبط والبربر ، وهم من العرب وغير العرب وقد وضعوا الأسس الأولى للفن العربي ـ الاسلامي وحددوا أهم ميزاته الباقية .

٢ـ عصر الخلافات الثلاث : ويمتد بين القرن العاشر حتى أواسط القرن الثاني عشر الميلادي : وفي هذه الفترة التي امتدت كالسابقة ، قرنين ونصف

تفككت الدعو الامبراطوريا

القرن تفككت الامبراطورية العربية بوضوح وظهر فيها ثلاثة مراكز كبرى : الخلافة العباسية في بغداد والشرق والخلافة الفاطمية في الوسط، وتحكم من القاهرة ما بين ليبيا إلى الشام . والخلافة الأموية في الغرب (الأندلس) . وقد خرج الفن الاسلامي برعاية هذه الخلافات الثلاث من عصر التقليد والتلمس وبدأ يتميز بشخصية متشابهة الملامح في مراكزه المختلفة ؛ بغداد والقاهرة وقرطبة ، في الوقت الذي كانت فيه التأثيرات المحلية تظهر أيضاً وتفرض نفسها وتميز بين الأساليب في الشرق والغرب. وهكذا استطاعت وحدة العقيدة ، والحاجات الدينية ، والأسس الفكرية ، والمصالح الاقتصادية الواسعة ، وحرية الانتقال والتبادل التي وحدت العالم الاسلامي أن تؤثر بدورها على الحياة الفنية وتحفظ لها الطابع الاسلامي الخاص ، سواء كان الاثر العربي هو الغالب ، أم الأثر الأعجمي الاسلامي . ولكنها سمحت مع ذلك للمراكز المختلفة من الشرق والوسط والغرب أن تحتفظ بإبداعها الخاص . ومقارنة سريعة بين المسجد الأكبر السلجوقي في أصفهان ، ومسجد الحاكم الفاطمي في القاهرة ومسجد قرطبة في الأندلس ، ترينا بوضوح الطوابع المحلية الخاصة . وهكذا ظهر الفن السلجوقي في الشرق ، والفن الفاطمي في مصر والشام ، والفن الأندلسي — المغربي في أقصى المغرب .

وفي هذه الفترة ظهرت بعض العناصر الزخرفية في الفن الاسلامي كالمقرنصات ، والنقش البارز بالعناصر النباتية المحورة وغيرها . ومن المدهش أنها انتشرت بسرعة وظهرت في أوقات متقاربة في مراكز جد متباعدة من العالم الاسلامي ، بل إنا لنرى فوق هذا أن فنون المسلمين في هذه الفترة قد تجاوزت المملكة الاسلامية إلى الغرب على أيدي الصليبيين ونجد آثارها في مابقي من فنون العصور الوسطى الغربية، كما أن الاماكن

التي جلا عنها الاسلام إذ ذاك ظلت في عهد حكامها الجدد تشع بالفن الاسلامي ، كصقلية مثلاً في عهد النورمانديين .

٣ ـ **عصر ما بعد الخلافات :** ويمتد ثلاثة قرون أيضاً (منذ نهاية القرن الثاني عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر م) انهارت منذ مطلعها الخلافات الثلاث وحل محلها حكومات الأتابكة والمماليك المغتصبين الذي تعرض العالم الاسلامي في عهدهم إلى أخطار خارجية هائلة : ففي الشرق غزوات المغول (جنكيز خان) ثم التتر (تيمور) عدا الخطر الصليبي الفرنجي ، وفي الغرب كان الحكم العربي ينحسر عن الاندلس قطعة قطعة . ومع هذا فإن تقسيم العالم الاسلامي إلى دول صغرى وتعدد مراكز الحكم فيه شجع الفنون على نطاق ضيق . والاخطار الخارجية زادت في الحماس الديني وخلقت فيه التصوف ، وانعكس ذلك بشكل مساجد ومدارس وأربطة وأوقاف كثيرة ملأت البلاد الاسلامية ، ولكن مجال الابداع في ذلك كله كان محدوداً . بمعنى أن العصر الذهبي قد انتهى وانطوى العالم الاسلامي على نفسه يتغذى من ذاته فلم يتصل بفنون الغرب التي كانت بدأت عصر النهضة إذ ذاك ، ودفع ذلك انحطاطاً وجموداً متصلاً في كل تقاليده الفنية .

في هذه الفترة ازدادت المدارس الفنية الاسلامية تميزاً رغم تشابهها ، وبدأ كل قطر يخلق أشكاله الفنية الخاصة ، ومعظمها من الأبنية ، واضعاً في مخططها وألوانها وهندستها وزخرفتها شخصيته المحلية المستقلة ، فبنى الفرس الجوامع ذات الباحات الواسعة والأواوين المزينة بالمقرنصات ، والمآذن المتعددة . والقباب البصلية الشكل المزينة الظاهر . وأما في الشام ومصر فكانت أحجام الأبنية أقل ضخامة ، والالوان أقل وضوحاً والقباب أكثر

استدارة والمآذن ذات شرفات . وأما في الاندلس والمغرب فكانت مخططات الأبنية بسيطة والأبراج مربعة والسقوف محدبة والزخرفة واضحة تغشى كل شيء .

على أنا مع هذا نجد كثيراً من الملامح المتشابهة في فنون البلاد المختلفة بسبب هجرة الفنانين وتنقل الناس ونقل فكرة المؤسسات المختلفة من قطر إلى قطر : كالمدارس مثلاً التي انتشر بناؤها من بغداد وسمرقند إلى غرناطة وفاس على نمط واحد من الهندسة .

٤ - الفن المغربي - الاندلسي : ولعل من المفيد ان نفرد لهاتين المنطقتين الاسلاميتين فقرة تشرح اساليبها الفنية المتشابهة والتي يتم بعضها بعضاً ... واذا كان الفن الاسلامي بمجموعه يتميز بانه فن يجمع بين الفن العربي الاصيل وبين فن كل قطر انتشر فيه الاسلام او ضمه الحكم العربي ، فان هذه الميزة ايضاً تظهر في المغرب والاندلس بتمازج الفنين الشرقي والبربري .

والبربر قبل الأسلام اتبعوا اساليب معمارية تتلاءم مع طبيعة بلادهم الجبلية ، فاتخذوا « التغرمت » اي الدار المحصنة وتتألف من بناء مربع تقوم في أركانه الأربعة أبراج ولسورها مدخل واحد . كما اتخذوا « الايغرم » أي المخازن المحصنة وهي عبارة عن أجنحة منفصلة تنفتح على ساحة داخلية ، وتقع في أعالي الجبال ، في نقط استراتيجية ، تتخذ مستودعاً للخزن وقلعة يلجأ إليها سكان المناطق المجاورة عند الخطر . واتخذوا أيضاً « الاجدير » وهي دار مربعة لها باب خارجية واحدة تؤدي إلى ساحة مركزية فيها عدة طبقات من الغرف ، وصاروا بعد الاسلام يضيفون إليها مسجداً ، وتتخذ لحفظ المؤن كما تحوى صهاريج خاصة لحفظ المياه ..

والأبواب البربرية تصنـــع عادة من أخشاب مسمرة في إطـار فوق عوارض عمودية ، تنقش عليها رسوم بدائية وتتوسطها مطرقة من حديد على أنماط شتى .

وأول من ادخل الفن الاسلامي إلى أفريقيا هم الأغالبـة ، ووضعوا اسس الفن الجديد في القيروان حين جددوا مسجـد عقبـة بن نافع على نمط مساجد دمشق والقاهرة ثم بدأ الاقتباس في مدينة فاس ... ولما جاء المرابطون والموحدون ، ومن بعدهم بنو مرين وبنو زيان (في تلمسان) والحفصيون (في تونس) زادوا في اغناء الفن المغربي الاندلسي ، وتميزه بالنقش على الخشب والجبس والادهان البديعة والشماسيات الملونة والنحاس المموه والمرمر المفصص وترصيع المنارات بالزليج[1]

٥' — **العصر العثماني الايراني** : ويبدأ منذ القرن السادس عشر ونستطيع أن نسجل انتهاءه مع نهاية القرن الثامن عشر وقد عاد إلى العالم الاسلامي الشرقي والأوسط خلال هذه القرون نوع من الوحدة بظهور الامبراطورية العثمانية على البحر الأبيض المتوسط وشاهات الصفويين في إيران .

وقد نشر العثمانيون في البلاد التي حكموها نوعاً خاصاً من الأبنية الدينية ذات قباب كبيرة مفلطحة ومآذن رشيقة نرى أجمل آثارها في عاصمتهم (اسلام بول) ونرى منها في البلقان والشام أيضاً .

---

(١) الزليج نوع من الترصيع الخزفي ، اصله من الاندلس ، يشبه الفسيفساء ويعرف بالمفضض . والترصيع هو التكفيت وتعرف في بعض البلدان باسم التلبيس والترسيب والتنزيل واطلق عليها في مشرق العالم الاسلامي في العصر العباسي : التطبيق . وقد دخل الترصيع بلاد المغرب عن طريق سورية ، ولا يزال يسمى هذا الفن في اسبانيا واوربا باسم الفن الدمشقي (داماسكينو) ولا يزال يقلد في صنع الاواني والحلي .

أما ايران فقد حافظت على كثير من تقاليدها الفنية : وترينا أصفهان في عهد الشاه عباس الكبير في مخططها العام وابنيتها الدينية نموذجاً فريداً من مدن الاسلام . وقد استطاع الطراز الايراني أن يغزو الهند ويخرج فيها التحفة الفنية المشهورة : تاج محل في آكرا . ويضاف إلى هذا أن ايران عرفت رسم الكائنات الحية وسجلت فيها وفي الزخرفة تقدماً هو الوحيد من نوعه في الاسلام .

ميزات الفن العربي الاسلامي :

تختلف ميزات الفن العربي الاسلامي باختلاف نوع الفن والعصر والمكان . ومع ذلك فيمكن أن نرى فيها صفات مشتركة عامة :

١ — إنه ذو شخصية واحدة رغم تعدد مراكزه وتباعد أقطاره وظهور التأثيرات المحلية فيه . وقد حاول الباحثون تعليل هذه الوحدة في الفن العربي الاسلامي بأنها ترجع أولاً لتأثير العامل الجغرافي المتشابهة في مختلف الاقطار الاسلامية منذ إيران إلى مراكش ، فهناك دوماً مناطق جبلية من حولها سهول وصحارى ، ومناخها جميعاً معتدل وأكثر ميلاً للجفاف ، كما أن نوع الحياة الحضرية والزراعية واحد . وترجع الوحدة ثانياً لتأثير العامل التاريخي فمجموع العناصر التي كانت تشكل القاعدة البشرية في الشام ومصر والعراق هي من بقايا العرب القدماء وكانت على صلة بشعوب آسيا وأفريقيا التي انطوت تحت لواء الدولة الجديدة التي جاءها الاسلام ، فوحّد الناس فيها في لغة واحدة ودين واحد وحكم متشابه الأسس . ومن هذا وذلك مشت الأساليب الفنية متشابهة في كل مكان .

٢ — إنه فن ديني بمعنى أنه تأثر بروح الاسلام وانصبت أنواعه المختلفة على المواضيع الدينية في الدرجة الأولى : من بناء للمساجد والمدارس

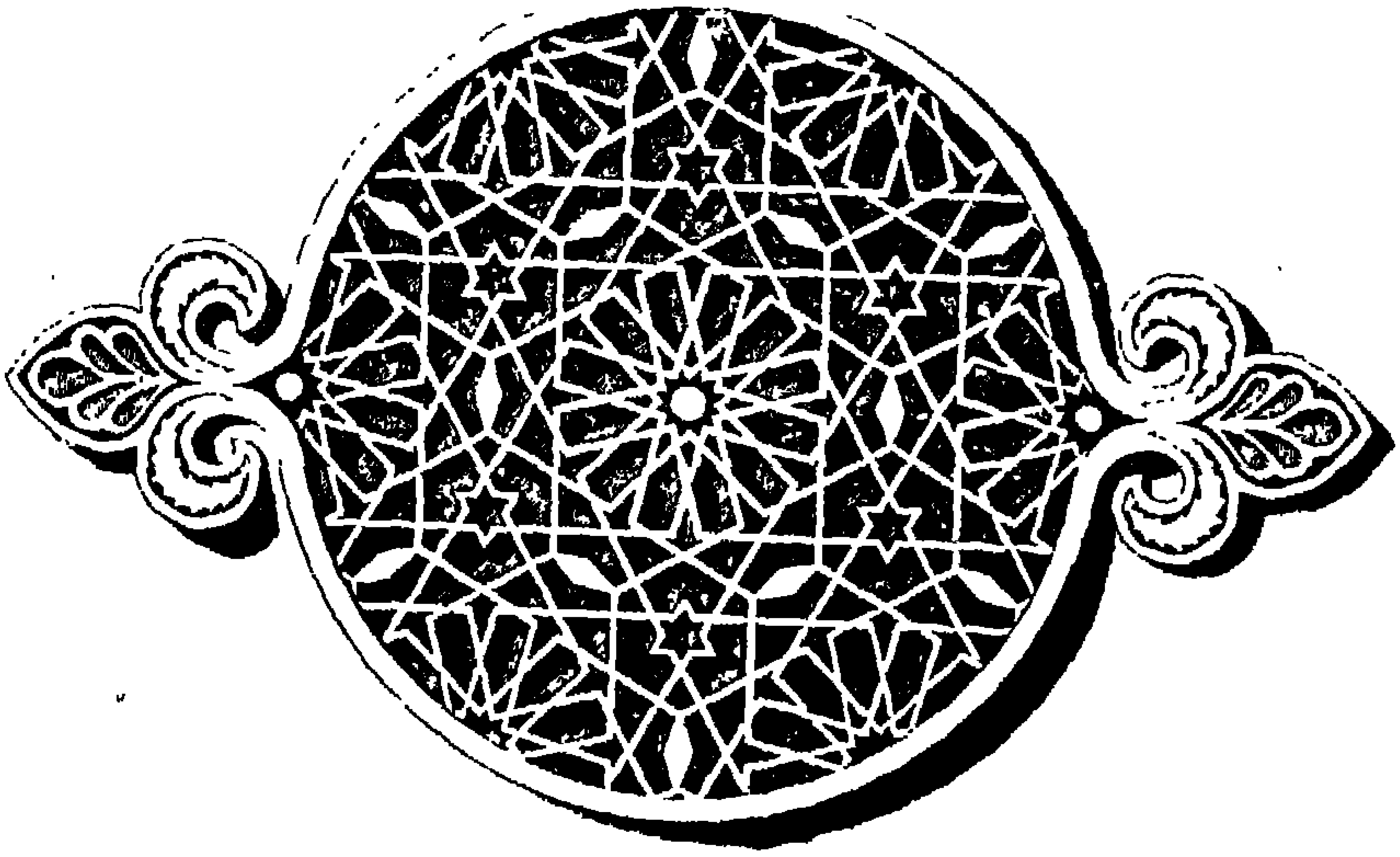

زخرفة موجودة في واجهة مسجد شمس الدين صنقر في القاهرة
صنعت عام ٧١٥ هـ . وتعد نموذجا من الزخرفة الاسلامية
في مصـر في اوائـل القـرن الثـاني الهجـري

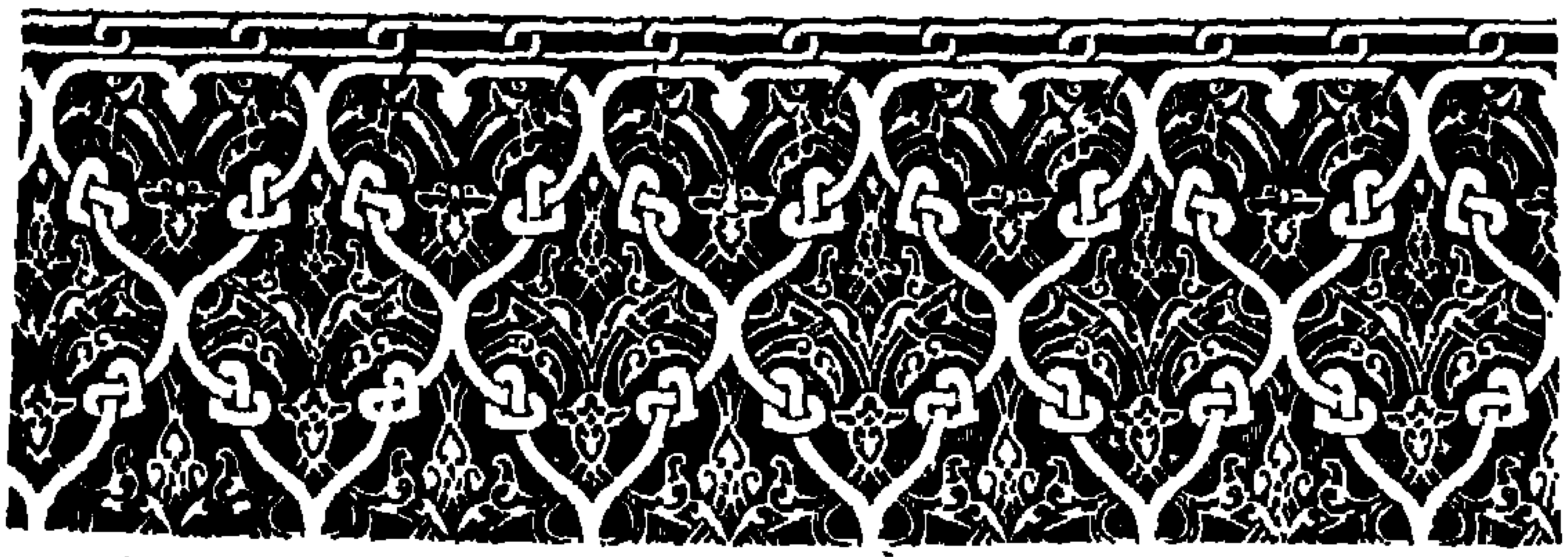

زخرفة موجودة الان في المسجد الذي بناه خاير بك احد امراء
المماليك في عهد السلطان الغوري اول حاكم من المماليك عينه
العثمانيون بعد فتح مصر، والمسجد في القاهرة، بني عام ٩٠٨ هـ
وفي الزخرفة اسلوب التوشيح العربي . ويعني التوشيح تكرار
عنصرين زخرفيين او اكثر متشابكين تشابكا هندسيا ، متماثلا
او منتظما ، تتباين فيهما الحركة تباينا توقيعيا (انظر دائرة
المعارف الاسلامية . مقال آرابسك)

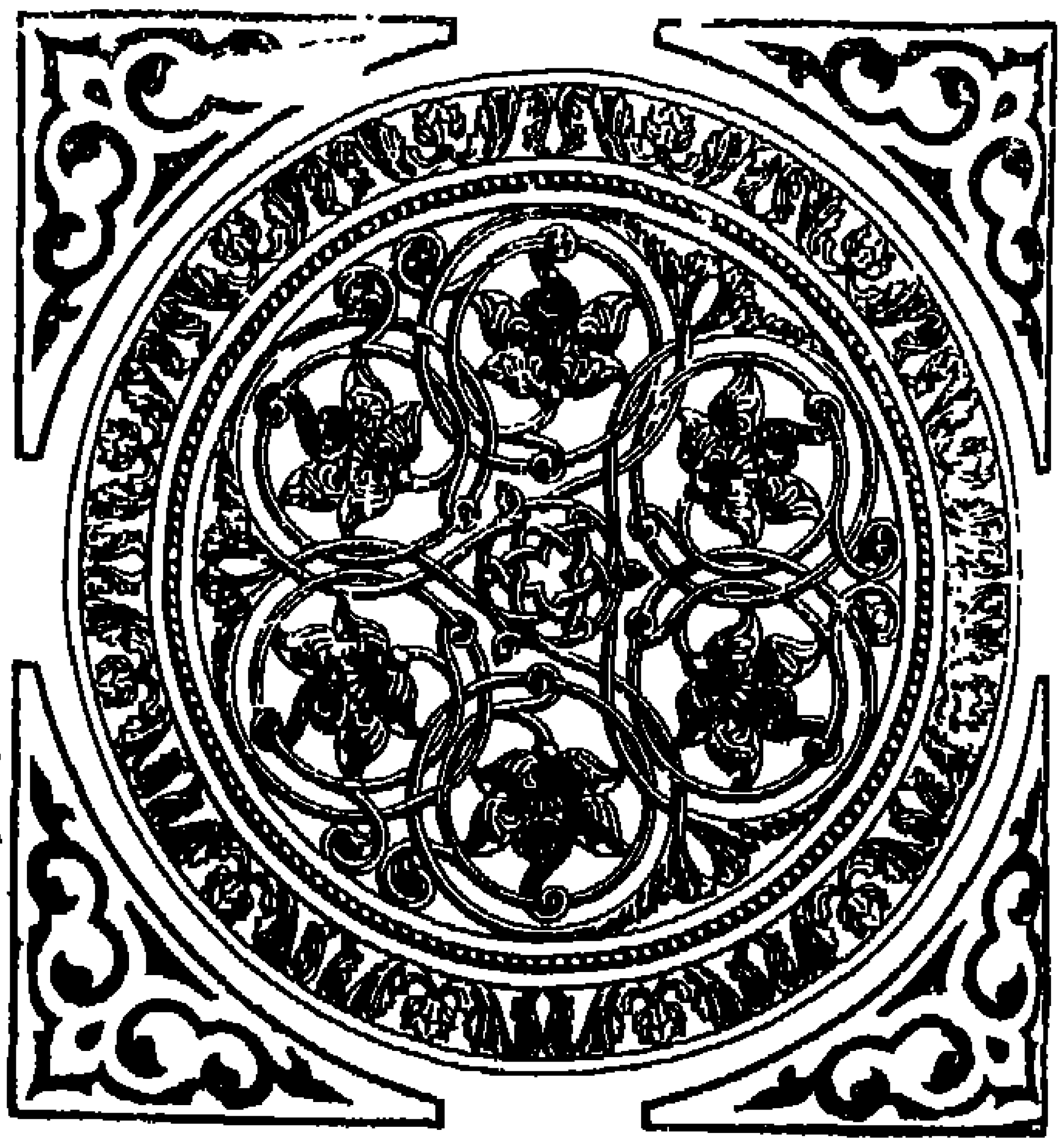

نموذج لزخارف اسلامية نباتية موجودة في مسجد الامير سيف الدين صفرتمش المملوكي في القاهرة صنعت عام ٧٥٧ هـ

جزء من كتابه كوفية مزخرفة معقودة على هيئه قنديل ، من الطراز الايوبي ، موجودة على ضريح في القاهرة اقيم في القرن السابع الهجري وينص هذا الجزء على كلمة : خالدين .

والتكايا ومن زخرفة بالآيات القرآنية ، وكثيراً ما كان الباعث على الأعمال الفنية باعثاً دينياً . ويكفي أن نستعرض الآثار الاسلامية من الكؤوس والمصابيح والأباريق في المتاحف إلى الأبنية الضخمة لنرى الدور الكبير الذي قام به الدين في الانتاج الفني .

٣ — إنه فن كثير الزخرفة : وملء القطعة الفنية بالزخارف عنصر رئيسي في الفن الاسلامي . نجد ذلك على الجدران والمنابر والسقوف كما نجده في المنسوجات والبسط والزجاجيات ، وفي التوابيت والشواهد وجلود الكتب . وقد اعتمد العرب على عنصرين اثنين في الزخرفة : الأشكال الهندسية التي برعوا فيها براعة مدهشة اقتبسها عنهم الغربيون من مضلعات مختلفة وأشكال نجمية متداخلة ودوائر مزجت خطوطها بالكتابة .. الخ . والأشكال النباتية التي تفننوا في تصويرها ولكن على طريقة التكرار كما في القاشاني والسجاد . ولم ترسم الأزهار مع ذلك بشكلها الطبيعي إلا في فارس وسورية . أما في غيرها ، ولا سيما في العصر الفاطمي فقد كان النبات والحيوان معه يحوّر إلى شكل زخرفي خالص .

واستخدم العرب الخط العربي ، بأنواعه المختلفة في التزيين ، وتفننوا في اختيار الآيات والحكم والاشعار للزخرفة بها ، ومن العبارات التي اشتهرت بها الزخرفة الاندلسية : « ولاغالب إلا الله » .

وبلغ الشغف بالتزيين في البلاد العربية والاسلامية أن غشيت أعالي المداخل والابواب والاواوين في الابنية بأشكال هندسية صغيرة متدلية عرفت بالمقرنصات .

٤ — إن الفن الاسلامي أهمل رسم الأشكال الانسانية والحيوانية وخاصة في أماكن العبادة . وليس معنى ذلك أن المسلمين لم يعرفوها

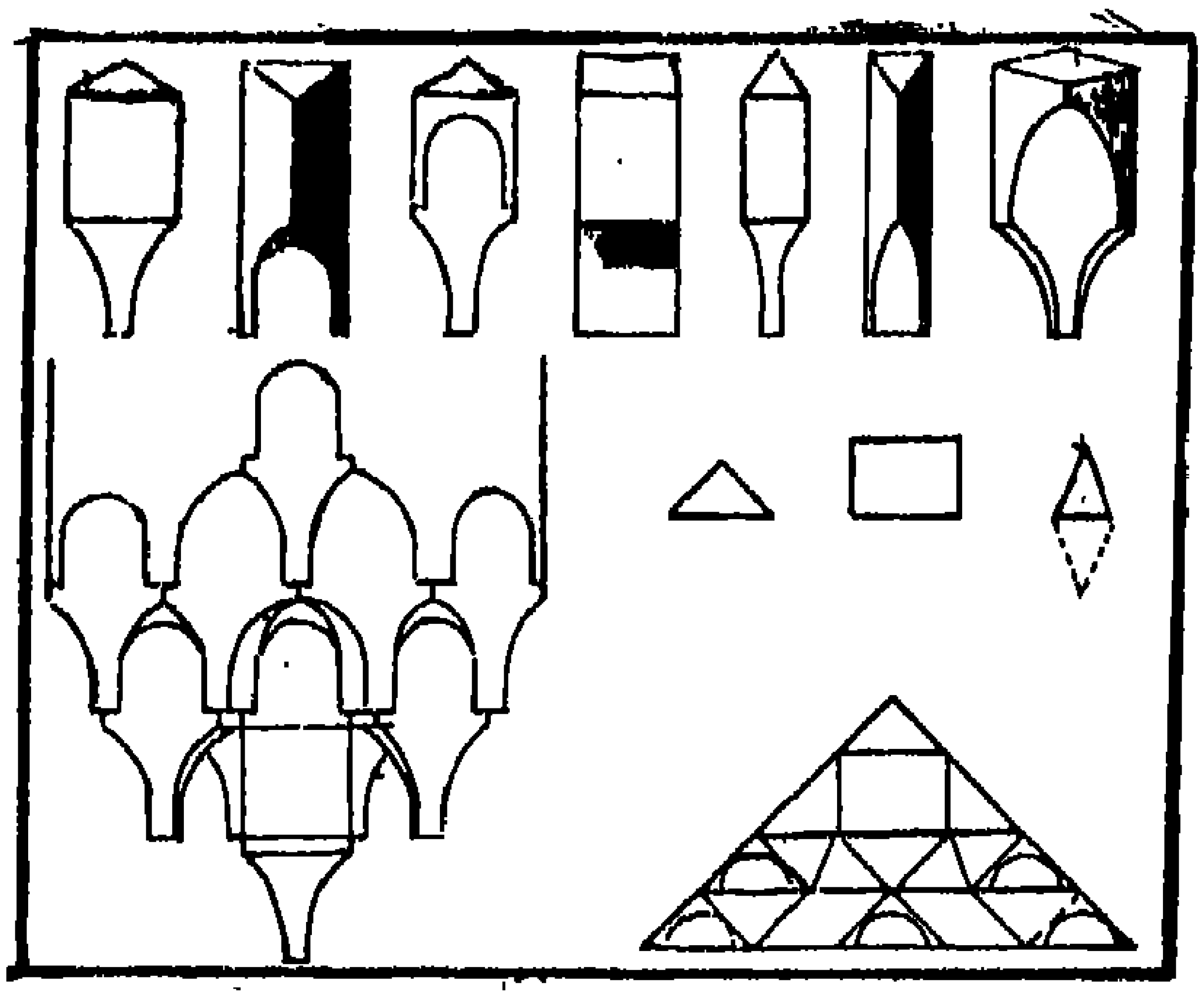

شكل ـ ٧ ـ
يرى الفنيون المعماريون ان القرنصات الاسلامية تتالف من سبعة عناصر تشاهد في اعلى الشكل ومن اضافات تشاهد في الاوسط ومن تنسيقها مع بعضها يحصل المعماري الفنان على القرنصات البديعة الصنع التي تاثرت بها المعالم الاسلامية

إطلاقاً فقد أثبتت رسوم « قصر الحير » وتماثيله (وهي في متحف دمشق) وأشعار بعض الشعراء أن رسم الانسان والحيوان كان معروفاً ولكن أتقياء المسلمين كرهوا ما حاربه الرسول وكرهه أيام حارب الأصنام والشرك ، فبقي هذا العنصر الفني ضعيفاً مهملاً . واحتال بعض الفنانين على الأشكال الحيوانية فحوّرها حتى صارت أشبه بالزخرفة كما في صحن وجد في سامراء وعليه رسم نسر يظهر وكأنه ورقة مسننة مغطاة بالزخارف حتى ما يكاد يبين . وأهم مظاهر الفن العربي الاسلامي يتمثل في المدن والعمران والفنون الجميلة .

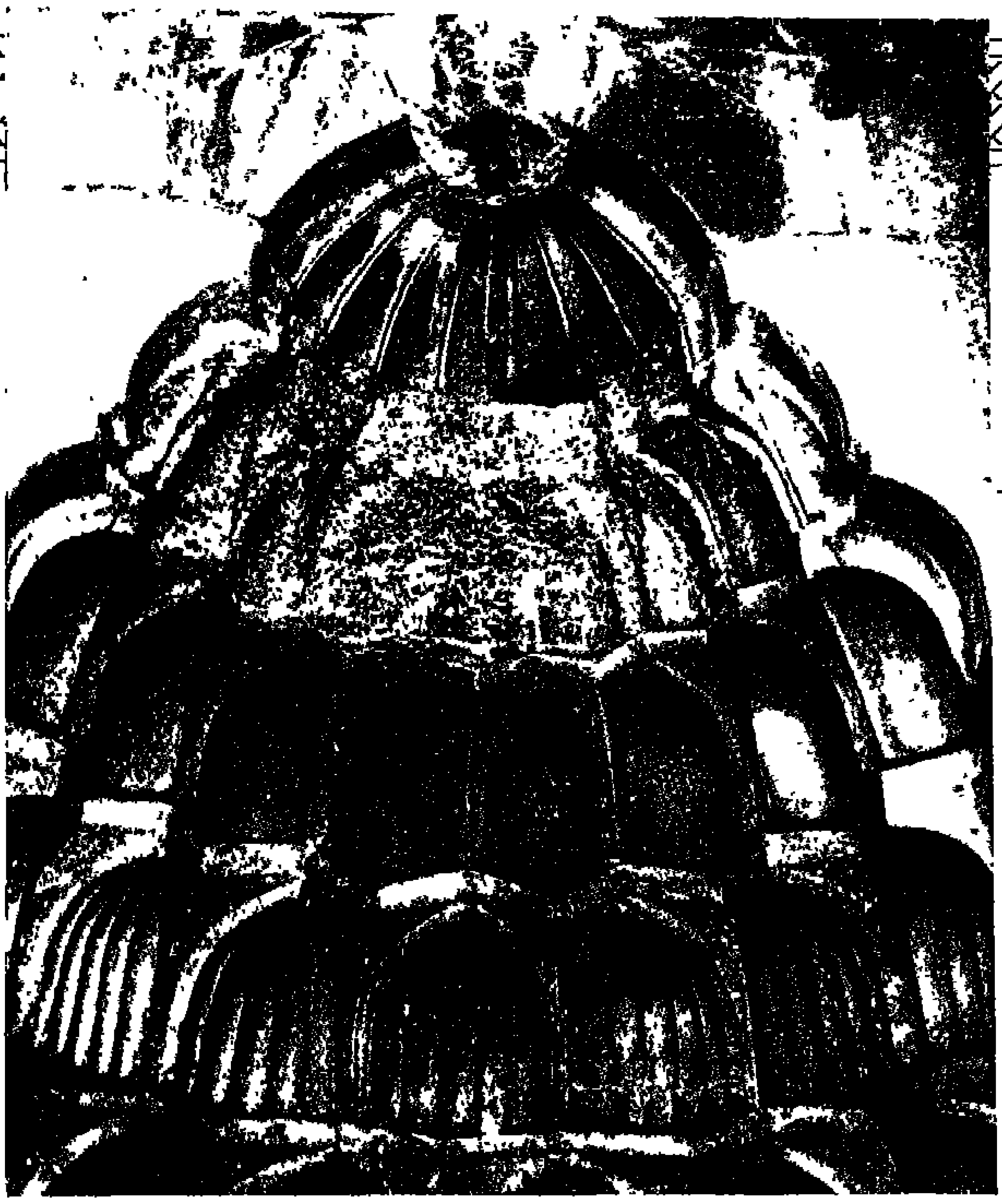

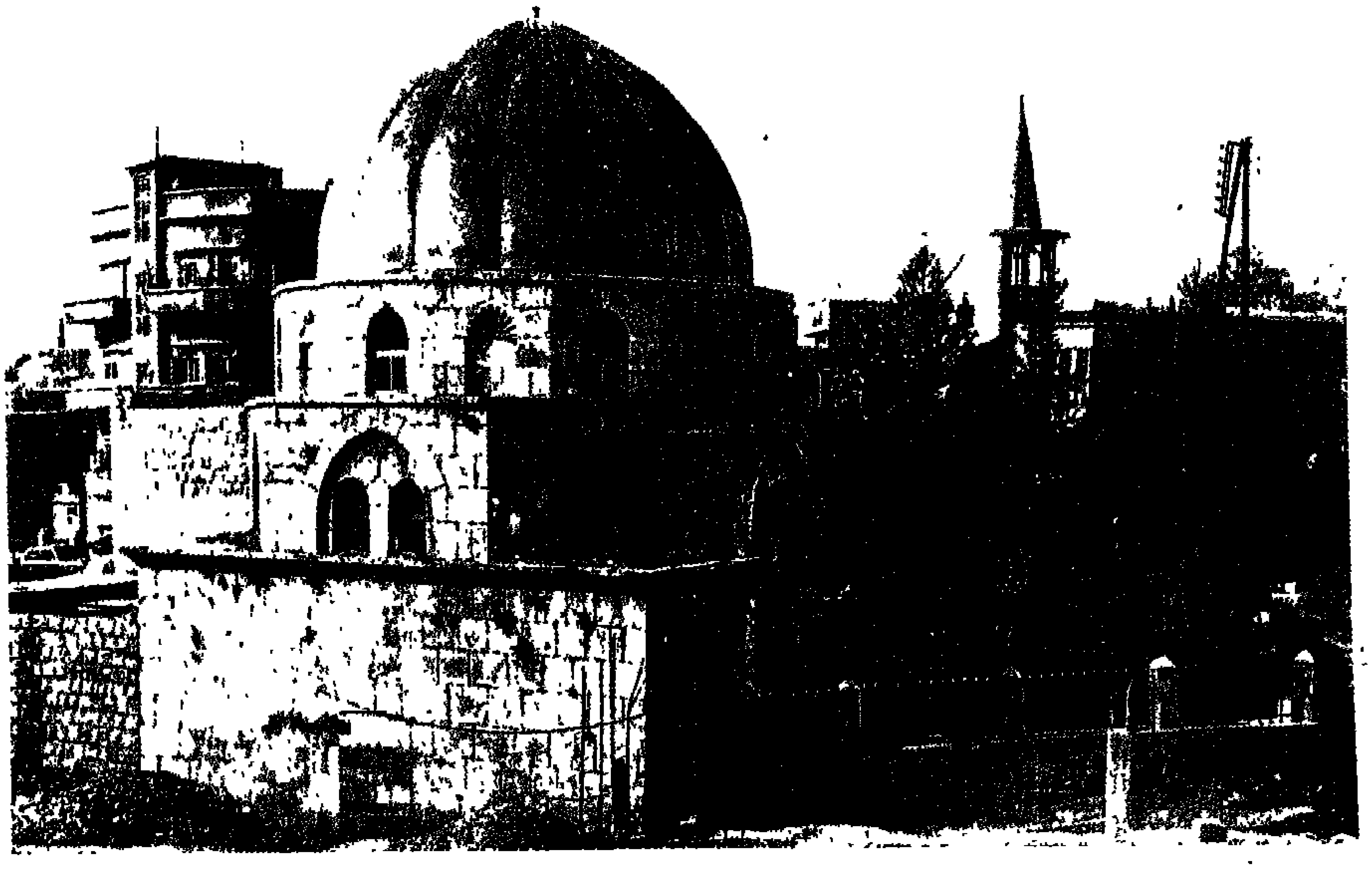

نماذج من المقرنصات الاسلامية تعود إلى العهد الأيوبي
ولا تزال موجودة عند مدخل المدرسة الأتابكية ومدرسة الصاحبة وغيرها بدمشق

الفصل الثاني

بناء المدن في الاسلام :

بدىء ببناء المدن في الاسلام في زمن مبكر جداً اذ ما كاد العرب يفتحون العراق ومصر حتى تونس في زمن عمر بن الخطاب حتى كانوا وضعوا اسس أربع مدن . وهذا مالم ينتبه إليه المؤرخ (ابن خلدون) حين كتب ان العرب ما دخلوا بلاداً الا أسرع إليها الخراب ! واستغل بعض الشعوبيين ذلك التشنيع ، وقد استمر بناء المدن قائماً حتى العهود الاسلامية المتأخرة .

وقد اختلفت الغاية والطريقة في بناء المدن الاسلامية الكبرى بعض الاختلاف عنها في المدن الاخرى . فبعض المدن القديمة كان ينشأ محطة للقوافل التجارية ثم ينمو بالتدريج وبعضها قرى تجارية أو مرفأ بحري ذو موقع هام ، كروما ومدن سوريا الساحلية ، وبعضها نما في واحة كدمشق ، أو على نهر أو منبع غزير كمدن مصر . أما المدن الاسلامية فكان الدافع الأول لبنائها هو الغاية الحربية في الدرجة الأولى لاقامة الجند ولانزال الجاليات العربية الفاتحة ، كمدن الهلينيين في الشرق الأدنى بعد فتح الاسكندر . ولما استقر الحكم الاسلامي أصبح ينظر في بناء المدن إلى صلاحها لتكون حاضرة أو مركز تجارة .

وقد احتفظ العرب ، حتى فيما بعد نزولهم في المدن وعيشهم الحياة المدنية بالتنظيم القبلي وظلوا ينتسبون إلى القبيلة لا المدينة . ولهذا كانت

المدن تقسم منذ تأسيسها الى احياء خاصة تدعى الخطط أو « القطائع » ينزل في كل خطة أو «قطيعة» قبيلة من القبائل • ولكن حي منازله ومسجده وسوقه حتى ومقبرته الخاصة • وكان لهذه السياسة اسوأ الأثر عليهم من الناحية السياسية اذ ابقت الخلافات القبلية وزادت أحياناً في احتدامها •

وكان يتوسط المدينة في غالب قصر الحاكم والمسجد والجامع ودور القواد والحكومة وتحاط المدينة باسوار منيعة للدفاع كما كان للاحياء غالباً أبواب ضخمة يمكن اغلاقها عند الخطر •

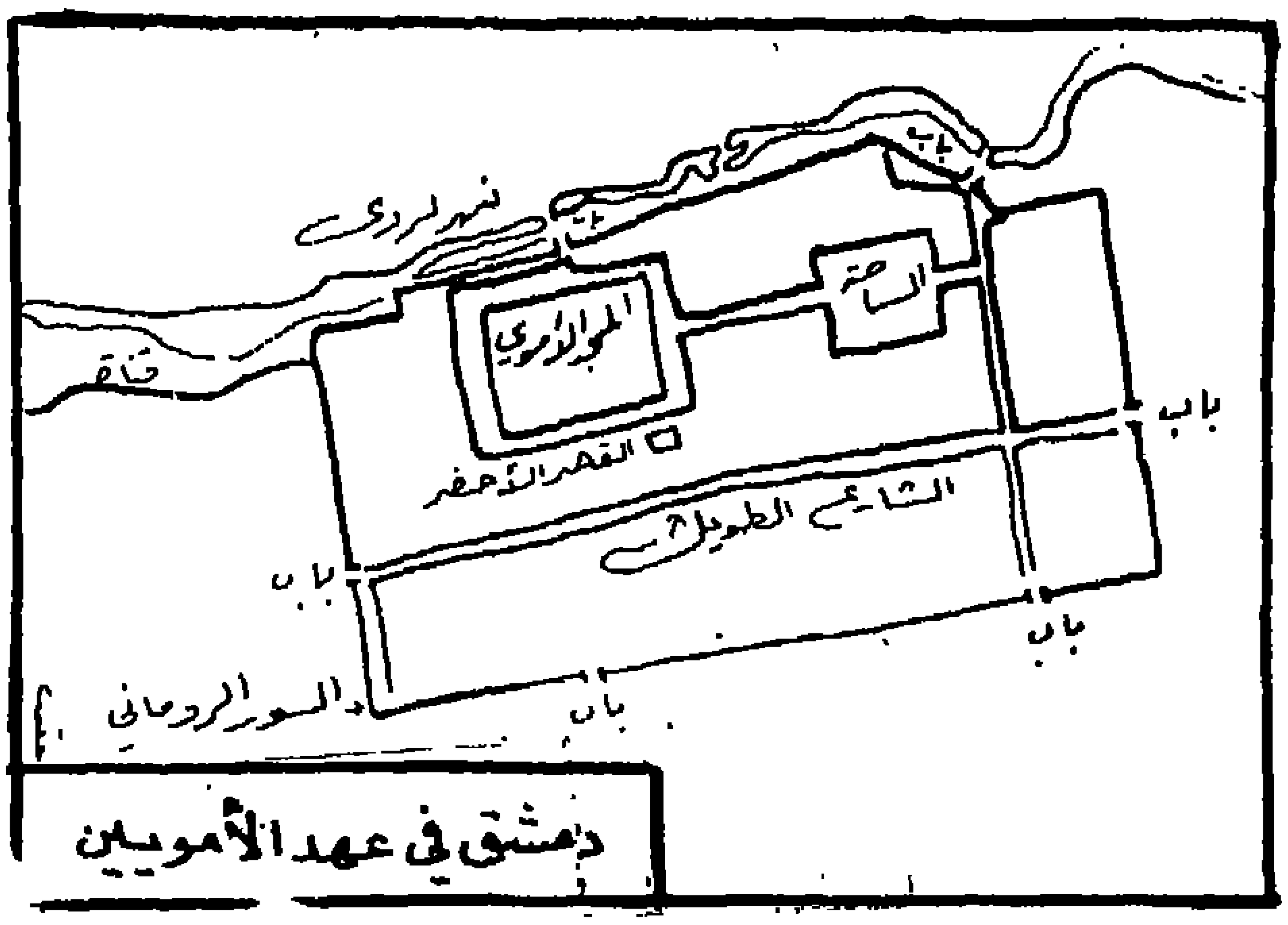

شكل ــ ١٠ ــ

اتسعت مدينة دمشق بعد ان أصبحت عاصمة الدولة الاموية وكثرت القصور وأصبح المسجد الاموي آية في الفن والسعة واتخذ الناس الدور خارج سورها وشق فيها نهر يزيد

وقد انشأ المسلمون عدداً كبيراً من المدن بقي معظمها قائماً الى اليوم كالبصرة وبغداد وسامراء ومرو والقاهرة والقيروان وفاس • كما وسعوا وزادوا من مساحة وأبنية عدد آخر من المدن أهمها : اصفهان والموصل وحلب ودمشق والقدس والاسكندرية وقرطبة وغرناطة •

مدن العراق :

كانت « المدائن » عاصمة الساسانيين وأهم مدن العراق قبل الاسلام كما كانت الحيرة أهم مراكز العرب في العراق . فلما كان العهد العربي حظي العراق باهم الامصار التي انشأها المسلمون سواء في صدر الاسلام أو في العهد العباسي اذ قام فيه في الأيام الأولى للفتح ، البصرة والكوفة ثم انشئت واسط ثم كانت بغداد فسامراء .

١ ـ **البصرة :** هي أول مدينة بنيت في الاسلام وكانت من قبل قرية صغيرة فأمر عمر بن الخطاب قواده إثر معركة القادسية بتخطيط بعض المعسكرات على اطراف العراق مما يلي البادية العربية لينزلها الجند العربي وعياله . فاختط عتبة بن غزوان في ربيع سنة ١٦ هـ . مدينة البصرة وبنى المسجد ودار الامارة بجانبه ثم أمر ببناء خطط المدينة لكل قبيلة خطة خاصة ، أي حي فيه مسجده واسواقه ومقبرته . ثم أخذ الناس يشيدون الأبنية من اللبن والآجر حتى اتسعت المدينة وجرت إليها الترع والمياه من شط العرب . ولم يمض نصف قرن على تأسيسها حتى غدا اهلها من العرب مائتي الف ومن الأعاجم حوالي مائة الف وحتى اضحت مصراً من أهم الأمصار الاسلامية : فمن الناحية التجارية اضحت حاضرة العالم الاسلامي وورثت الابلة كمرفأ بحري يصل الصين والهند عن طريق الخليج العربي بالعراقين والشام والجزيرة وما وراءها . ومن الناحية السياسية كانت أحد مصري الاسلام في الشرق ، وكان سكانها من العرب يحسب حسابهم في كل أمر بجانب أهل الكوفة . ومن الناحية العلمية ظهرت فيها حياة أدبية راقية كان ميدانها سوق المربد المشهورة ، وقد درس علماء البصرة الدين واللغة واشتهر فيهم كثير من النحاة كانت لهم مدرسة خاصة في النحو تنافس مدرسة الكوفة .

وقد بدأ انحطاط البصرة منــذ أواسط القرن الثالث الهجري واهم النكبات التي أصابتها إذ ذاك تخريبها على يد الزنج في ثورتهم المعروفة .

٢) **الكوفــة :** بدىء بتأسيسها في الشهر الأول من سنة ١٧هـ (كانون الثاني سنة ٦٣٨ م) وذلك أن الجيش الفاتح لم يطب له المقام في المدائن عاصمة بلاد الفرس وظهر على جنده السقم لاعتيادهم جو الصحراء فأمر عمر بن الخطاب قائده سعد بن أبي وقاص ان يرسل رائدين يرتادان نزلاً للجند فوقع اختيارهما على مكان غربي الفرات انتقل المحاربون وعيالهم إليه وعسكروا فيه ثم بنوا بيوتاً من القصب مالبثت ان التهمتها النيران فأمر الخليفة باتخاذ دور دائمة من اللبن وبأن يؤسس في المدينة مسجد جامع ودار للأمارة فبني المسجد وسط المدينة حيث تتفرع الطرق والحارات وكان أول شيء خط بالكوفة كما يذكر الطبري ، وبنى سعد منزله قريباً من المسجد وفيه اتخذ بيت المال . وتحول إلى قصر الامارة . وقد دلت الحفريات الجديدة في الكوفـة ان قصر الامارة كما يقول بشير يوسف فرنسيس : شيد بالآجر المحكم التشكيل والجص ، وكان مربع الشكل تقريباً وكانت تدعم ثلاثــة من أركانه أبراج مستديرة .

وما لبثت الكوفة ان عمرت بالمباني التي قام على انشائها بناؤون من الفرس ووفد إليها كثير من الناس حتى اتخذها علي بن أبي طالب مقراً لملكه بعد ان غادر المدينة المنورة ، لكثرة اشياعه فيها وتوسطها في الأراضي الاسلامية وحفظها لطابعي الحياة البدوية والحضرية معــاً . ولكن نجاح معاوية بتأسيس الدولة الاموية حرمها هذا المكان السياسي الممتاز وأخذت دمشق مكانها .

ومع هذا فقد حافظت الكوفة على مكانة سياسيـة مرموقـة . خلال

العهد الأموي اذ غدت قصبة العراق ، وكان يعهد إلى واليها بتعيين ولاة أذربيجان وهمذان وأصبهان والموصل ويضاف إلى هذا في شأنها السياسي أنها غالباً ما كانت مقر المعارضة والنقمة على الحكم الاموي وفيها قيادة الحركة الشيعية ومنها أديرت الحركة العباسية السرية حتى كانت أولى عواصم العباسيين . وقد شهدت في العهد العباسي عدداً من التيارات السياسية الدينية أهمها الحركة الاسماعيلية والقرمطية . واذا امتازت البصرة بالتجارة فقد امتازت الكوفة بالسياسة .

أما في الناحية العلمية فالكوفة ثاني المصرين في العراق ، ولم يكن علماؤها في الفقه والدين والشعر واللغة والنحو ليقلوا شهرة عن علماء البصرة . ولم يبدأ انحطاط المدينة الا منذ القرن الرابع وقد ورثتها اليوم النجف .

٣) **واسط** : بعد أن وطد الحجاج أمر الحكم والامن في العراق رأى أن يتخذ له مركزاً لادارته ومقراً لجنده قريباً من البصرة والكوفة معاً ، مهد الحركات الثورية المناوئة يجعل فيه الجنود الشاميين الذين يرسلهم عبد الملك لشد أزره وليكونوا عدته يوم النوائب ولا يختلطوا بالعراق والجند العراقي لئلا تسري فيهم روح الثورة . فاتخذ مدينة واسط في مكان قريب من بلدة الحي اليوم ، وسط بين البصرة والكوفة معاً . ومنع الموالي من دخولها ولكن سكانها تنوعوا فيما بعد ، وجاء أحد ولاة البصرة بجماعة من اتراك ماوراء النهر فأنزلهم بها ولم تعد مدينة عسكرية خاصة .

وقد كان قد تم بناء واسط عام ٨٣ هـ (٧٠٣ — ٧٠٤ م) كما يؤكد البلاذري والطبري والسمعاني وياقوت والقزويني وكانت واسط على جانبي دجلة ، وكانت قبل البناء الاسلامي مدينة ساسانية اسمها كسكر . وقد دفن فيها الحجاج (٩٥ هـ) كما يقول ابن خلكان .

وظلت واسط عاصمة العراق طوال العهد الاموي ، ثم بدأ عزها بالافول مع انتقال الحكم إلى العباسيين . وما جاء القرن الثاني للهجرة حتى هجرها الناس هجرانا تاماً لتحول مجرى دجلة إلى مجراه الحالي ، فصارت خراباً وتعرف خرائب واسط اليوم باسم المنارة . وقد كشفت اليوم مديرية الآثار العامة العراقية عن المدينة منذ ١٩٣٦ ، واظهرت جامع الحجاج وقصره ذا القبة الخضراء واستخرجت الكثير من زخارفه وقوام اكثرها غصن كرمة متموج يتشابك ورقها مع غصونها ، وكذلك ازهار وعناقيد وغيرها او زخارف نباتية اخرى ونجوم وازهار ...

٤) **بغداد** : كان لابد مع انتقال الحكم للعباسيين من البحث عن عاصمة جديدة ، غير دمشق الاموية ، وقد بويع السفاح في الكوفة ولكنه استبدل بها الحيرة ، عاصمة له ثم انتقل إلى الانبار وبنى بها « الهاشمية » ولكنها لم ترق للمنصور من بعده ، ففتش عن مكان جديد يبنى به عاصمة جديدة للملك الجديد فوقع على : قرية بغداد . على الضفة الغربية من دجلة. وقد كان اختياره للمكان موفقاً جداً وتوضحت له فيما بعد ميزات هامة هي التي أبقت على بغداد إلى اليوم فهي تقع في منطقة زراعية تتوسط العراق وتمر منها الطرق التجارية العالمية كما أنها سهلة التموين والري حصينة الموقع بين الأنهار ، جيدة المناخ .

وقد سمى المنصور مدينته دار السلام وسماها بعضهم بالروحاء والزوراء والمدورة ، لاستدارة مخططها ، ولكن لاسم الذي بقي لها هو الاسم القديم للموقع وقد اختلف المؤرخون في تفسيره على أساس فارسي معناه بستان الله او عطية الله ، والمدينة التي بناها الله وهو على الارجح آرامي معناه سوق الغنم (ب ــ مختصر بيت ثم كدادو ــ غنم) .

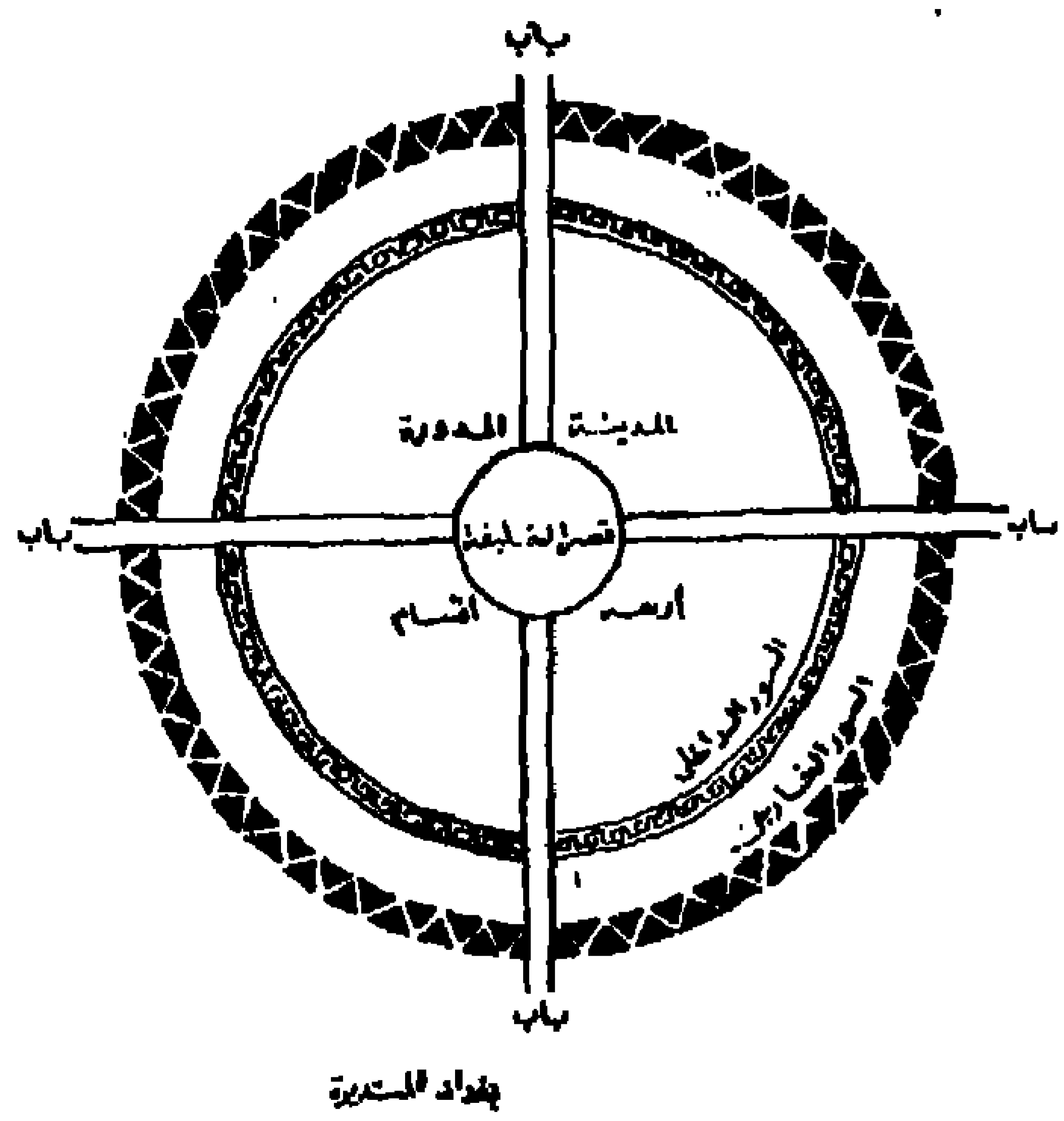

شكل — ١١ —

مخطط مدينة بغداد الذي نفذ في عهد الخليفة العباسي المنصور وهو نواة العاصمة العباسية التي اتسعت فيما بعد .

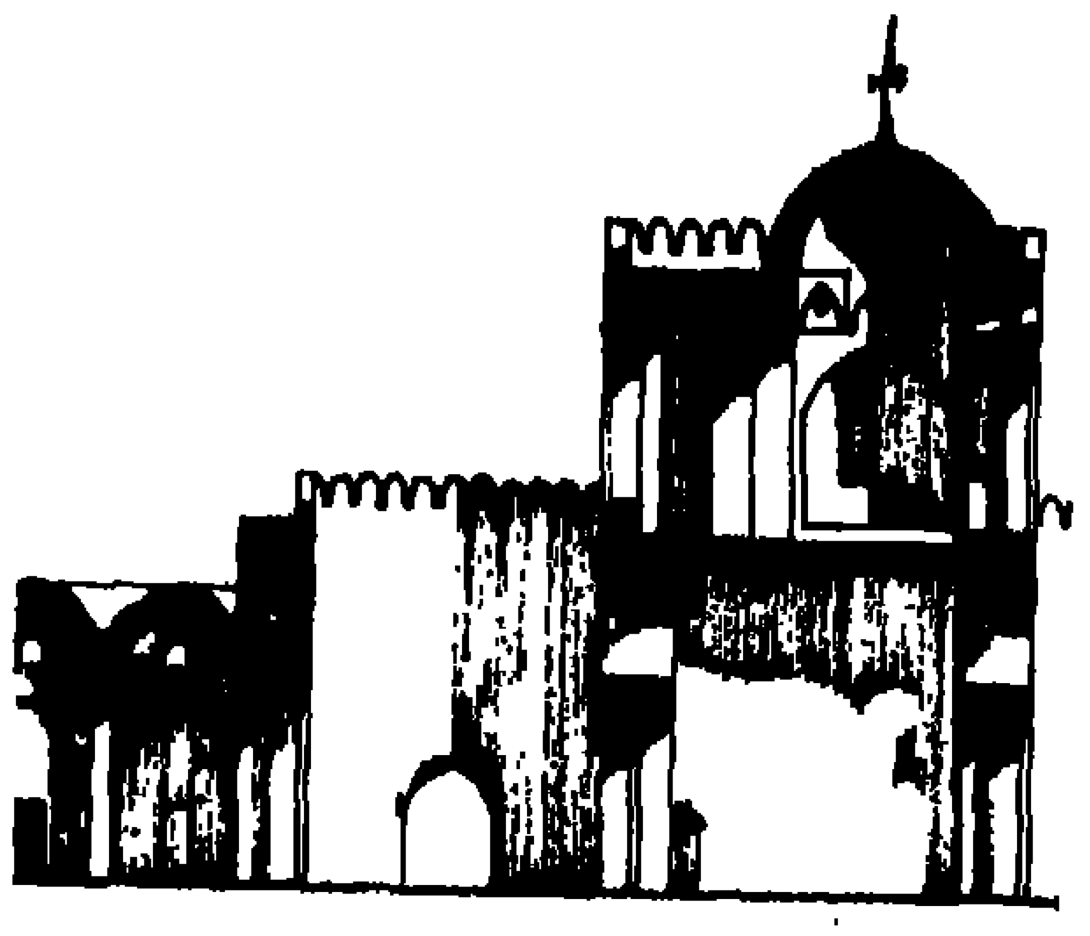

شكل — ١٢ —

مقطع لاحدى بوابات بغداد التي بناها المنصور عام ٧٦٢ م وكانت تعلو كل بوابة من بواباتها الأربع قاعة ويعلو القبة القائمة فوق القاعدة ، رامح يتحرك بحركة الريح .

وضع مخطط المدينة على نهج مستحدث في بناء المدن الاسلامية : دائرة يتوسطها قصر الخليفة ومسجده ويحيط بها قصور القواد ورجال الدولة ثم تقوم الاسوار : سوران يسكن بينها الرعية لها أربعة أبواب مزودجة . ولعل الذين خططوا المدينة تأثروا بالهندسة الفارسية .

وأمر المنصور قبل مباشرة البناء بجلب المهندسين والبنائين والعمال من جميع أطراف مملكته حتى ناف عددهم على المائة الف عامل ، وأمر بصب اللبن والآجر ، ثم قام المهندسون برسم شكل المدينة على الأرض وتخطيطه بالرماد ، ثم أمر بأن يوضع على المخطط قطن مغموس بالنفط ويشعل . وبذلك ظهر له في الليل شكل مدينته الجديدة ، فأعجبته ، وأمر بمباشرة البناء في سنة ١٤٥ هـ . وكانت المدينة مستديرة يبلغ قطرها نحواً من ثلاثة آلاف متر فيما إذا اعتبرنا السور الخارجي حداً لها ، لأنه كان لها سوران ، ومقسمة إلى أربعة أقسام متساوية ، ولها أربعة أبواب هي : باب الكوفة ، وباب البصرة ، وباب خراسان ، وباب الشام . وقيل ان المنصور أمر بنقل أبواب واسط اليها ، وفي وسط المدينة بني قصر المنصور الذي سمي قصر الذهب ، وقبالته مسجد المنصور ، وكلف المنصور أبا حنيفة النعمان بمراقبة البناء ، والعمال ، كما اهتم بنفسه بكل ناحية من نواحي البناء ، وكان يحاسب المتعهدين حساباً عسيراً ، حتى لقبوه بالدوانيقي نسبة إلى أصغر قطعه نقدية كانت متداولة ، تلويحاً إلى أنه كان يحاسبهم عليها ... وبعد اتمام البناء ، وازدحام المدينة بالسكان اقتطع عماله وقواده قطائع وأرباضاً خارج الاسواق فعمروها وبنوا فيها القصور ، ثم أمر ببناء الرصافة لابنه المهدي وجعل فيها ثكنات الجيش ، ثم بنى الكرخ جنوبي المدينة في سنة ١٥٧ هـ ، واتخذ جميع الخلفاء العباسيين بغداد عاصمة

لهم إلى أن قضى عليهم التتر سنة ٦٥٦ ﻫ وأصبحت بغداد أعظم مدن العصور الوسطى في الكرة الأرضية ، اجتمع لها ما لم يجتمع لغيرها من أعاظم الخلفاء كالرشيد والمأمون ، ومن أشهر العلماء والأدباء والفنانين ، والتجار والصناع فكانت مركزاً جامعاً لكل ما في الأملاك الاسلامية من ثقافة وحضارة وفن وغنى .

٥ ـ **سامراء :** قصة سامراء من أغرب وأمتع قصص المدن : قصة ارض قفر تصبح في سنوات معدودة عاصمة الدنيا الاسلامية وأكبر مدينة في العالم ثم تنطفىء فجأة بعد نصف قرن فيعود الهدوء والخراب الى المكان.

بعد قرن واحد من بناء بغداد خطرت للمعتصم فكرة بناء عاصمة جديدة لا عن حاجة لعاصمة ولكن لأن عصبية جديدة كانت تظهر في الدولة هي : الأتراك الذين أدخلهم المعتصم الجيش . فبغداد قد ضاقت بهم كثرة وكانت فيهم خشونة وأذى ضاق بها البغداديون ودبت المنافسة بين الترك والفرس والعرب من الجند مما أنذر بالخطر ، ففتش المعتصم عن مكان جديد له ولأصحابه وتنقل في عدد من الأماكن قبل أن يستقر بسامراء على بعد ١٣٠ كم من شمالي بغداد ، على دجلة .

والاسم قديم دون شك . وقد زعم الناس فيما بعد أيام عزها ، أنه محرف عن : سر من رأى لجمال المدينة ، وأيام خرابها عن « ساء من رأى » لسوء منقلبها . وكان المكان المختار جيداً ، جودة مكان بغداد . فهو خصب حصين ، تجاري ويتوسط المملكة كما يتوسط العراق .

شرع المعتصم بتخطيط حاضرته سنة ٢٢١ ﻫ . ٨٣٦ م فطلب الفعلة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات ، من كل مكان . وبدأ فوضع أساس قصره العظيم ، ووزع القطائع على جنده وعين

أماكن الاسواق والبساتين ولكنه لم يؤكد على بناء الأسوار لاطمئنان الدولة وثبوت أركانها ، وانما عني بفصل الجيش ودواوين الدولة عن السكان كما عني بفصل فرق الجيش بعضها عن بعض ، وجعل قائد كل فرقة يبني قصره في قطيعة فرقته . ووجه الخليفة همه بعد ذلك الى عمران البلد الاقتصادي : فنشر الزراعة في غربها وجلب لها الاشجار وحفر الترع وحرص على جمع أرباب الصناعات فيها ووسع صفوف الاسواق الخ ...

ويلاحظ في مخطط المدينـة ، ومن آثارها الباقية ، أن المعتصم عنى بتقسيمها تقسيما اجتماعياً عسكرياًيتناسب مع كونها معسكراًاولا ومركزاً حضريا ثانيا . فجاء مخططها ممتداً على ضفة دجلة الشرقية زهاء (٢٠) كم ، وجعلت الشوارع متوازية تتقاطع بزوايا قائمة ويتوسطها على طول المدينة الشارع الاعظم الذي يزيد عرضه على ٢٠٠ ذراع ، وهـذا ما يذكر بالتخطيط اليوناني للمدن . وقد سمى لنا ياقوت في معجمه (١٧) قصراً بناها المعتصم والمتوكل في سامراء من أهمها : دار العامة وبيت الخلافة وقصر الجوسق على دجلة وقصر لؤلؤة وهو السجن السيامي . هذا الى ماأقيم في سامراء من حلبات السباق الثلاث وحديقة للحيوان .

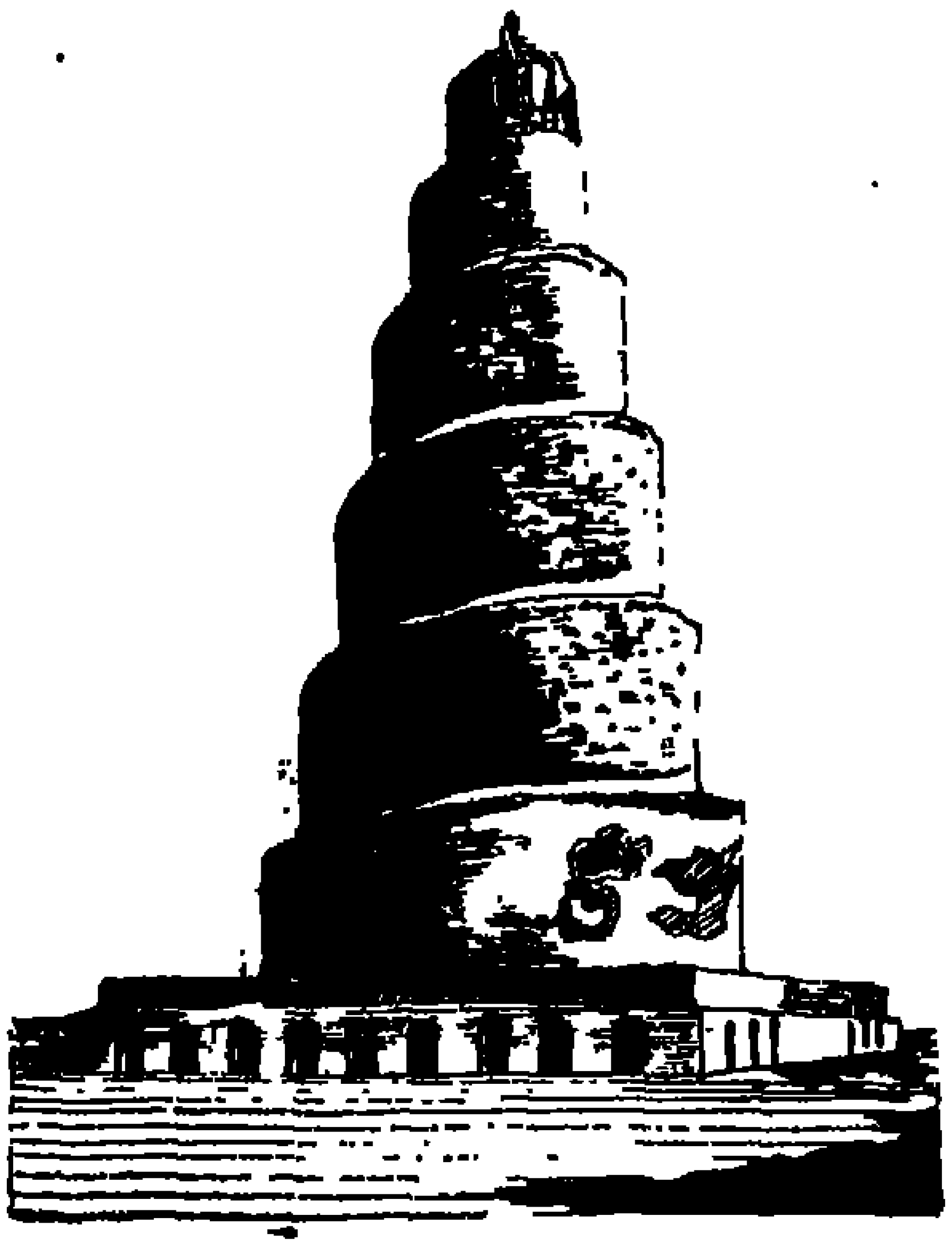

كانت منارة جامـع الجمعة في سامراء ، نموذجا فريدا في المـآذن الاسلامية ، لم يعمم وينتشر ، الا في مكان واحد ، في جامع احمد بـن طولون بالقاهرة . والفكرة مستوحاة من ابراج ما بين النهرين القديمـة المعروفة باسم زقورة او زكورة وهي عبارة عن برج من اللبن والآجر يرقى اليه بدرج حلزوني .

ولاشك أن فترة العمران الكبرى في حياة سامراء هي فترة المتوكل الذي انفق في بناء القصور بالمدينة مايزيد عن (١٤٠) مليون درهم ومما بناه البركة المشهورة والمسجد الجامع ، ومساحة صحنه الداخلي ٤٤ ألف م٢ بينما لاتزيد مساحة كنيسة الفاتيكان عن ١٥ الف م٢ مثلاً وأهم ظاهرة فيه هي المئذنة الملوية التي بنيت على طراز (الزقورات) القديمة ولا تزال قائمة بجانب آثار الجامع الى اليوم .

ولقد ضاق المتوكل ذرعا بالاتراك في السنوات الأخيرة من عهده فحاول الهرب منهم الى دمشق ثم عاد فبنى في شمال سامراء مدينة لصيقة بها عرفت بالمتوكلية فامتدت سامراء ١٥ كم أخرى على ضفة دجلة وامتد شارعها كذلك وبنيت فيها قصور رائعة منها الجعفري ، كما ابتكر نموذج جديد في بناء القصور يدعى الحيرى قلده الناس فيما بعد . وانفق المتوكل في المدينة الجديدة (٢٠٠) مليون درهم وانتقل اليها ونقل معه دواوين الدولة سنة ٢٤٧هـ ولكنه قتل بعد ذلك بتسعة اشهر فقط وعاد الناس فأهملوا المتوكلية الى سامراء ولكن هذه المدينة أهملت بدورها سنة ٢٨٩هـ في نهاية خلافة المعتضد العباسي الذي انتقل الى بغداد ... فاندثرت شيئاً فشيئاً .

وقد عنيت دائرة الآثار العراقية بالكشف عن آثار المدينة وترميم المئذنتين الباقيتين لجامع الجمعة وجامع ابي دلف ورغم انهما معاً على شكل ملوية ، فانه حين يقال « الملوية » يقصد بها مئذنة جامع الجمعة . وتقع خارج ضلع الجامع الشمالية على ٢٥ متراً منها ، وفي محور الباب الوسطي ، وهي مئذنة مخروطية الشكل بوجه عام تستند الى قاعدة مربعة ، يصعد الى قمتها من سطح مائل عريض يدور حول بدنها من الخارج دوران الحلزون ، ويبلغ طول ضلع القاعدة ٣٢ متراً وقطر قبة الملوية ٦ أمتار ، ويبلغ

علو المئذنة عن سطح الارض ٥٢ متراً

ويبدأ الدرج الحلزوني الذي يوصل الى القمة ، من وسط الضلع الجنوبية ، اي التي قبالة الباب الشمالي للجامع ، ويدور حول بدن المئذنة باتجاه دوران الساعة ، خمس مرات ، الى ان يصل الى باب في القمة ينفتح هو ايضاً في وسط الجهة الجنوبية .

وينتهي اعلى المئذنة بغرفة صغيرة مدورة الشكل يبلغ علوها نحو ٦ امتار في فرجة جدارها ثماني مشكيات صغيرة مدببة العقد ومقعرة السطح ، وتقوم احدى هذه المشكيات مقام باب يفضي الى داخل الغرفة ، ويوصل الى ذروتها مدرج حلزوني يدور داخلها حول محورها .

مدن الشام :

لم يحظ الشام ، من بناء المدن الاسلامية بمثل ماحظى به العراق اومصر ايضاً ، لكثرة مدنه من جهة ، وقصر عهد الخلافة الاموية من جهة اخرى ، وعدم استقرار أسرة حاكمة كبرى أو عهد من العهود بالشام بعد الامويين.

وقد أسس العرب الفاتحون مدناً ـ معسكرات في الشام كما في العراق: فأقاموا الجابية قرب دمشق و (دابق) شمالي حلب ولكن هذه المدن الجديدة لم تستطع أن تنافس المدن القديمة العريقة قربها . فان معاوية استقر في دمشق كما ان الخطر الدائم على الحدود البيزنطية لم يجرىء الناس على سكنى دابق ... وهكذا انقضى القرن السابع الميلادي (قرن الفتح) دون أن ينشىء الامويون مدينة جديدة في سوريا . وأنشئت في القرن الثامن وفي زمن الخليفة سليمان (٧١٥ – ٧١٧ م ٩٦ – ٩٩هـ) مدينة :

الرملة : على الطريق الممتد بين القدس والبحر ، وقد نقل سليمان اليها سكان مدينة (اللد) المجاورة فعمرت المدينة الجديدة بهم واتسعت وبالرغم من شأن (اللد) من قبل ، ومن مكانة القدس الدينية ، فقد ظلت الرملة عدة قرون مدينة فلسطين الاولى ومركز الولاة ؛ على ان بناء الرملة لم يكن لغرض سياسي او عسكري ولهذا لم تتسع كثيراً وظلت ومكانتها محلية .

الرصافة : برزت هذه زمن هشام بن عبد الملك (٧٢٤ – ٧٤٣ م ١٠٥ – ١٢٥ هـ) وعهده العمراني . فقد ظهر أنه كان مولعاً بالمواقع الصحراوية والعناية بها . وموقع هذه المدينة في البادية على ٤٢ كم إلى جنوب الرقة والفرات . وقد جدد سورها ومبانيها وكان يتردد اليها . ولم تندثر المدينة الا زمن الملك الظاهر بيبرس الذي نقل سكانها الى حماه وسلمية . أما آثارها اليوم فمن أجمل آثار البادية السورية .

الرقة والرافقة : ترجع الرقة في بنائها الى عهد الاسكندر المقدوني غير أنها لم تبرز في العهد الاسلامي الا زمن المنصور الذي بنى بجوارها مدينة عسكرية مستديرة ، على مثال بغداد ، هي الرافقة .

وكان غرض المنصور من بناء المدينة ان تكون معسكراً اماميا تتجمع فيه الجيوش لحرب البيزنطيين ولهذا الغرض نفسه استخدمها الرشيد ايضاً ، وكثرة حروبه هي التي جعلت مقامه فيها كثيراً وجعلته يبني فيها عدداً من القصور . قال بسببها المؤرخون أن الرافقة كانت مصيفه . وتردد الخلفاء والقواد والجند على الرافقة جعلها تتسع حتى تتصل بالرقة في جوارها وتأخذ اسمها ، لاسيا بعد تخريب المغول لها في القرن الثالث عشر .

وبقايا قصور الرشيد في الرافقة وبقايا سورها الآجري ، واحد ابوابه

ماتزال موجودة قرب الرقة الحالية . غير ان المئذنة الآجرية القائمة هي من عهد نور الدين بن زنكي .

على ان اهم ما بناه المسلمون في الشام انما كان في مدنها القديمة نفسها : كدمشق وحلب والقدس .

مدن مصر :

الفسطاط : في مصر ايضاً بدأ بناء المدن مبكراً على شكل معسكر للفاتحين الجدد : فان فاتح مصر عمرو بن العاص لم يشأ أن يتخذ الاسكندرية ، وهي مرفأ بحري ؛ من جهة وبلد مملوء بغير العرب من جهة أخرى ، عاصمة له . ففعل كغيره من الفاتحين إذ استشار الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه عمر : « اني لاأحب أن تنزل المسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت » لأن عمر سمع بفيضان النيل وبامكان انقطاع الاتصال بينه وبين جنده فتخير عمرو مكاناً هو اليوم القسم الجنوبي من القاهرة على ضفة النيل الشرقية ليقيم فيه معسكر جنده ودعى المعسكر الجديد بالفسطاط (ولعلها من فساتون Fossaton باللاتينية واليونانية ومعناها ما هو محاط بخندق) وكان ذلك ٢١ هـ .

والمكان من أقدم النقاط المدنية في وادي النيل وكانت فيه ممفيس ، كما أن عمراً أدرك فيه حصناً للرومان يدعى حصن بابليون . وهذا مايفسر سرعة اتساع الفسطاط وتحولها بسرعة إلى مركز مدني هام امتد على ساحل النيل الشرقي خمسة كيلومترات تقريباً بعرض كيلو متر واحد . وقد أقام عمرو بن العاص في المدينة شارعاً يتوسطه ميدان بنى به مسجداً مايزال يحمل اسمه إلى اليوم . (جامع عمرو) .

وبقيت الفسطاط قاعدة القطر المصري للولاة العرب نحو قرن من الزمان ثم بنى بجوارها ، في مطلع العهد العباسي وعلى يد صالح بن علي (عم السفاح) مدينة للجند سنة ١٣٢ هـ دعيت بالعسكر . ولما آل حكم مصر لأحمد بن طولون بنى بجانبها بلدته المعروفة بالقطائع وبنى جامعه المشهور ذا المئذنة الملوية وقصره المدعو بالميدان . وبعد ذلك بحوالي نصف قرن بنيت مدينة :

القاهرة : ما كاد يتم على يد جوهر الصقلي فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ ، باسم الخلافة الفاطمية وصاحبها المعز لدين الله الفاطمي ، والمقيم في تونس ، حتى فكر الفاتح بنقل مركز هذه الخلافة إلى مصر ، وبناء مدينة جديدة تكون مقراً لأسياده ، ومركزاً قريباً من الشرق لنشر الدعوة الفاطمية وتخير لذلك مكاناً في جنوب القطائع ، وسميت « القاهرة » وقيل في سبب اختيار هذه الاسم عدة اقوال لعل اقربها انها « قاهرة » للحدثان ، باقية على كر الزمان . أو ان بناء أسسها تم في طالع برج القاهرة ، وهو اسم احد الكواكب .

وقد بدىء ببناء القاهرة في يوم مشهود (شعبان سنة ٣٥٨) فوضعت أسس أسوارها لتكون معسكراً حصيناً ، كما وضع جوهر أساس قصر فخم لمولاه المعز الفاطمي . وأخذت كل قبيلة من قبائل البربر المحاربة معه تخط لنفسها خططاً خاصة تبنيها باسمها ، واطلق على المدينة اسم المنصورية نسبة للمنصور والد الخليفة فلما قدم المعز سماها باسمه القاهرة المعزية .

وكانت المدينة على شكل مربع ، بعيدة عن ساحل النيل . ولكن سرعان ما كثرت الأبنية في ظاهرها خارج الأسوار فامتلأت المنطقة بين جبل المقطم والنيل بالسكان بينما كانت القصور الفاطمية كالقصر الكبير الشرقي مثلاً ودواوين الدولة ، كلها داخل الاسوار . وأهم ما بناه جوهر في المدينة هو المسجد : « الجامع الأزهر » الذي بني للصلاة اولاً ولكنه سرعان

ما تحول في زمن المعز إلى جامعة علمية لنشر الدعوة الفاطمية .

وقد استطاعت القاهرة أن تكون ثانية حواضر الاسلام بما أسبغ عليها الفاطميون من عز وبذخ في عهودهم الزاهرة ثم قيض لها ان تصبح حاضرة الايوبيين ثم المماليك من بعد ، مما جعلها تغنى عصراً بعد عصر بالابنيــــة المختلفة . ولم يبدأ همودها الا بدخول السلطان سليم مصر سنة ١٥١٧ م . وقد استمر ذلك الى عهد محمد علي وأولاده في العصر الحديث ، فاستعادت عظمتها كمدينة حضارية وسياحية وسياسية في دنيا العالم عموماً والعرب خصوصاً وكمركز ثقافي اسلامي وعلمي حديث . خاصة انها توسعت جـداً حتى ضمت حواضر مصر السابقة ؛ وكثيراً من آثار مصر الفرعونية ، فجمعت في رقعتها تاريخ آلاف السنين من حضارة مستمرة راقية .

مدن المغرب :

القيروان : في سنة خمسين هـ . غزا عقبة بن نافع في عهد معـاوية ، بلاد المغرب وانتصر على البربر وعينه معاوية والياً على افريقيا ففكر باتخاذ مدينة محصنة تكون مركزاً لعملياته الحربية وداراً للتموين والسلاح لمتابعة الفتح وملجأ اميناً للجند العربي من تألب البربر عليها ، واختار لذلك مكاناً قريباً من تونس الحالية ، مملوء بالغابات ، وأمر ببناء مدينة القيروان .

وقد اختط عقبة المدينة على نهج المدن ــ المعسكرات ، فاختط في وسطها المسجد الجامع ثم دار الامارة ثم بيوت الجند وبنى حولهـا سوراً متيناً . واستمر العمل في بنائها طيلة اربع سنوات (٥٠ ــ ٥٤ هـ/ ٦٧٠ ٦٧٤ م) وكان اهتمام عقبة ببناء الجامع اكثر من بقية احياء المدينة حتى قيل : « لم يبن عقبة مدينة لها جـامع ، بل بنى جامعاً له مدينة » . وقصد عقبة ان يكون الجامع قيرواناً أي معسكراً وحصنـاً ، واختار مكان قيروانه بعيــــداً عن شاطيء البحر ليكون المسلمون في مأمن من

اسطول الروم وغارات الفرنج التي كانت لا تزال تنقض على تونس من صقلية وإيطاليا واليونان ، فتحتل وتخرب مدن الساحل مثل سوسة وجربا . وقد قال له أصحابه حين فتش على مكان المدينة الجديدة : « نحن اصحاب إبل ، ولا حاجة لنا بمجاورة البحر » وكانت الصحراء التي اقيمت فيها المدينة تشبه صحراء الحجاز وعسير ، فوجد عقبة ان الجندي العربي المسلم فيها لن يشعر بالغربة او التغرب عن بـــلاده ويعيش في بيئة جغرافية ملائمة . وسرعان ما اصبحت القيروان قاعدة مملكة افريقيا .

وبذلك ، كما يقول أحد الكتاب ، اصبحت الغابة الكثيفة التي كانت مرتعاً للوحوش والزواحف أرضاً مستوية تقوم فوقها تلك المدينة الزاهرة التي لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم . وقد اتخذها الفاطميون في أول تأسيس دولتهم عاصمـة لهم ، ثم انتقلوا منها إلى المهدية فالقاهرة بعد ان أسسها لهم قائـدهم جوهر الصقلي . ومن بعدهم اتخذها ملوك الصنهاجيين مقراً لهم ، كما كانت منزلاً لأهل قريش من بني فهد وبني تميم وبني هاشم . وفيهـــا مدافن عدد من الصحابة .

المهـدية : وقد اتخذ الفاطميون من القيروان عاصمة لهم في مطلع عهدهم حتى وضع عبيد الله بن المهدي سنة ٣٠٣ هـ أساس مدينـــة جديدة في جنوبها على الساحل هي « المهدية » خوفاً على نفسه . ولم تلبث هذه المدينة ان اصبحت مرفأ هاماً بين الشام ومصر من جهـــة ، وصقلية والمغرب والاندلس من جهة اخرى . وبنى المهدي فيها داراً للصناعة تتسع لأكثر من مائتي مركب . وامر في الوقت نفسه ببناء مدينة أخرى بجوار « المهدية » سماها زويلة ذات سور وابواب وحراس ايضـــاً ، وجعلها للأسواق ، وربط بين البلدين بميدان فسيح .

وقد ظلت المهدية حاضرة الفاطميين حتى انتقلوا إلى مصر والقاهرة سنة

٣٦٢ هـ . وظلت آهلة بالسكان حتى افتتحها روجر النورمندي صاحب صقلية سنة ٥٤٣ هـ .

فاس : هي احدى المدن الاسلامية القليلة التي لم تبن كمعسكر ، فقد وصل ، ادريس بن عبد الله هارباً إلى المغرب الاقصى بعد موقعة فخ (أيام الهادي سنة ١٦٥ هـ) واستقر في بعض القبائل البربرية ثم قام ابنه الشاب ادريس (الثاني) بعد أن بايعه الناس فبنى مدينة فاس لأنصاره وشيعته سنة ١٩٢هـ (٨٠٧ م) فتم بناؤها في سنة . وقد قدم عليه فيها جماعات كثيرة من العرب : من ضواحي قرطبة ، ومن القيروان ، وألف هؤلاء النواة الأولى للحيين الأساسيين في المدينة .

وأهم مابني في فاس أول بنائها : السور الحجري ، والمسجد الجامع ومنارته التي تشبه منائر القيروان بالقبة التي تعلو رأسها . وقد استمر العمران في المدينة في عهد يحيى بن محمد الادريسي خاصة إذ بنيت فيها « الحمامات والفنادق للتجار واقيمت خارجها الارباض ورحل إليها الناس من الثغور القاصية » وقد امتلأت فاس بالآثار الاسلامية الرائعة فيما بعد انقراض أصحابها لاسيما في عهد الدولة المرينية (القرن ١٣ — ١٦) التي حولت فاس إلى مدينة جديدة مزدهرة بالأعمال العمرانية التي تمثل تراث فاس الثمين : وتقدر بثمانمائة وخمسين بناء بين جوامع ومدارس وتكايا عدا ٦٠٠ سبيل ومائة حمام ومائتي مدرسة ومائتي فندق . ومن أشهر الأبنية جامع الأندلس وجامع القرويين أكبر جوامع المغرب وزاوية مولانا ادريس . وشبّه الكتاب فاس بمدينة دمشق في رونقها الفني وطبيعتها الخلابة . كما شبهوا مدينة مراكش ببغداد ببناياتها وقصورها وحدائقها ، ولم يبدأ انحطاط فاس إلا زمن الشرفاء السعديين منذ القرن ١٦ .

مدن الاندلس :

قرطبة : ليست قرطبة في الاصل من بناء العرب وإنما كانت عاصمة الأندلس زمن القوط ، ويقال أن قرطبة أقدم مدينة في شبه جزيرة ايبريا . انشأها مهاجرون وتجار من فينيقيا وسواحل الشام في نفس الوقت الذي انشأوا فيه قادس وقرطاجنة ومالقة وغيرها من جنوب شبه الجزيرة فهي مدينة تدين للعرب القدماء بنشأتها ، وقد اتخذها فاتح اسبانيا ، موسى بن نصير قاعدة له ، ودعا فيها للخليفة الوليد بن عبد الملك . وكان اتخاذ المسلمين لقرطبة مقراً لهم مما يؤذي سكان البلاد الأصليين فثاروا مراراً وحاولوا استراجاعها دون جدوى . ولما فر عبد الرحمن الداخل إلى الاندلس اتخذ قرطبة مقراً للدولة الأموية الأندلسية . واقيم فيها الكثير من الأبنية والقصور وخاصة المساجد وتبلغ ثلاثة آلاف . ويعد المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الداخل فيها من النماذج البديعة لما وصل اليه الفن العربي . وبالرغم من أنه حول إلى كنيسة منذ حوالي خمسائة سنة إلا أن الطابع الاسلامي واضح فيه إلى اليوم . وقد كان له واحد وعشرون باباً وفيه ١٢٦٣ سارية ومنبر ركب من ست وثلاثين ألف قطعة من العاج مرصع أكثرها بالمسامير الذهبية والحجارة الكريمة ، وتسمى الكنيسة الجديدة التي أقيمت داخل جامع قرطبة باسم الجامع الكاتدرائية (لا ميثكيتا كاتيدرال) وهي اغرب تسمية في الدنيا . والجامع يقع على ضفة الوادي الكبير وأمامه القصر الاسقفي وكان قصر الخلفاء ، وبينهما يجرى شارع كان يسمى المحجة العظمى .

ويمتاز هذا البناء الاسلامي باقواسه المزدوجة التي تعطيه شخصية يتميز بها عن جوامع العالم ، وقد لجأ إلى هذه الطريقة المهندس المعماري الذي بناه ليزيد في ارتفاع السقف حتى يصبح متناسباً مع مساحته لم يقلد وفي

مكان آخر معروف ... وكان هذا الجامع أيام الحكم العربي مدرسة كبرى ومحكمة ، فقد كانت حلقات الدروس تقام عند كثير من اعمدته ، كما كان قاضي قرطبة يعقد فيه مجلس الحكم كل يوم ... ويعقد جلسة خاصة صباح كل خميس على باب المسجد لا داخله للحكم في مايعرض عليه من قضايا النصارى واليهود في قرطبة .

وقد وصف الشاعر أبو محمد بن عطية قرطبة وما تفخر به على سائر المدن بقوله :

باربع فاقت الامصارَ قرطبة	وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان ، والزهراء ثالثة	والعلم ، أكبر شيء ، وهو رابعها

كما وصفها شاعر آخر بقوله :

دع عنك حضرة بغداد وبهجتها	ولا تعظم بلاد الفرس والصين
فما على الأرض قط مثل قرطبة	وما مشى فوقها مثل ابن حمدين

وقد ذكر المؤرخون ان سكان قرطبة زمن عبد الرحمن الناصر بلغوا نيفاً وخمسمائة ألف وأن دورها زادت عن الثلاثة عشر ألف دار وحماماتها العامة بلغت ثلاثمائة حمام ومساجدها ثلاثة آلاف وكان لها ثمانية وعشرون ضاحية . وقد أطلق عليها الاوروبيون في القرن العاشر الميلادي اسم «جوهرة العالم» .

الزهراء : وإلى الشمال الغربي من قرطبة بنى الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ هـ مدينة الزهراء ، على اسم جارية له ، لحاجته بعد أن وطد حكمه ، إلى مدينة عاصمة . وقد تأنق الناصر في البناء فجلب للمدينة الرخام بمختلف ألوانه من كل مكان ، وعمل في البناء عشرة آلاف عامل

يوماً واستمر العمل في عهد ابنه المستنصر من بعده حتى سنة ٣٦٥هـ ، أي حوالي أربعين سنة !

وكانت الزهراء ضاحية ملكية تشبه قصر فرساي وقصر الاسكوريال اللذين بنيا بعدها بعد قرون . وكانت تشتمل على ثلاث مدن متدرجة في البناء على سفح الجبل ولكل منها سورها : أعلاها فيها القصور وفي الثانية الجنات والبساتين وفي الثالثة الديار والجوامع . وبنى الناصر لنفسه قصره العظيم « دار الروضة » . فغشى الجدران بالذهب والرخام السميك الصافي واتخذ قرميد السقوف من الذهب والفضة ، وفي وسط القصر صهريج عظيم مملوء من الزئبق تنعكس أشعة الشمس منه على القصر فيصير من ذلك نور يأخذ الأبصار . هذا إلى مافي القصر من تماثيل ذهبية لبعض الوحوش : أسد بجانب غزال بجانب تمساح ... الخ . ينصب الماء من أفواهها في الأحواض !

يصف ستانلي لين بول المؤرخ الانكليزي مسجد قرطبة بأنه كان فيه « واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر اللماع وثلاث وستون ومائتان وألف سارية وقد أجريت الفضة في حيطان محرابه المزين بالفسيفساء وصب من سواريه الذهب والابريز واللازورد . أما المنبر فقد صنع من العاج ونفيس الخشب وهو مؤلف من ست وثلاثين ألف قطعة منفصلة . مرصع أكثرها بالأحجار الكريمة وسمر بمسامير من الذهب » .

ويذكر المقري في كتابه نفح الطيب عند كلامه عن الزهراء : إن حيطان قصر الناصر كانت من الذهب والرخام السميك الصافي ، وإن قراميده من الذهب والفضة . وفي وسط القصر صهريج عظيم مملوء بالزئبق وفي كل جانب من جوانب القصر ثمانية أبواب انعقدت في حنايا من العاج

والابنوس المرصع بالذهب والجواهر القائمة على ساريات من الرخام الملون والبلور الصافي ، وكانت الشمس تدخل على تلك الأبواب ، فيضرب شعاعها في صدر المجلس وحيطانه فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ... ثم يصف حوضاً صغيراً أخضراً منقوشاً بتماثيل الانسان فيقول بأن الخليفة جعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغـالي مما عمل بـدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد إلى جانبه صورة غزال ، إلى جانبه صورة تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب ، وفي المجنبتين حمـــامة وشاهين وطاووس ، ودجاجة وديك . . وكل هذا من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها .

الزاهرة : وقد أقامها الحاجب بضواحي قرطبة على نهرها الأعظم وشيد فيها قصراً فخماً وانتقل إليها سنة ٣٧٠هـ ونزل معه فيها خاصته والعامة . كما أقيمت بها الدواوين والأعمال وأهراء المؤن والارصاد . ثم أقطع المنصور ماحولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا فيها من الدور ماجعلها تتصل بقرطبة نفسها ، ولكن هـذه الضاحية الملكية ذابت بدورها في قرطبة بعد موت صاحبها .

غرناطة والحمراء : ويطلق اسم غرناطة على دولة غرناطة الواقعة في الجنوب الشرقي من شبه جزيرة إيبريا والتي كان يحكمهـا بنو الاحمر ، كما يطلق على مدينة غرناطة قاعدتها في عهد تلك الدولة ، والمدينة تقع في الشمال الغربي من إحدى حلقات جبال سيّرا نافادا ويرويها نهر دارو ويحيط بها غوطة غناء ويتدرج قسم من بنائها على سفح التلال المجاورة ، ولقد أطلق عليها عرب الأندلس ، اسم دمشق لشبهها في الوضع وكثرةمافيهامن الماء والمزارع والبساتين ، وكان أكثر قصور المدينة كما يقول سيد أمير علي مزيناً بالحدائق المسوجة بالعرائش وزاخرة بأشجار الفاكهة كالبرتقال والليمون ، والخمائل

الناضرة ذات الشذى العطري ، وفوق ذلك ينساب في المنازل غدران صافية ويتوسط الشوارع النوافير الجميلة التي ينبثق منها الماء ، فتبعث في النفس غبطة وفرحاً عظيمين . أمـــا المنازل فكانت بالغة حد الروعة والابداع الهندسي وكان يحيط بها سور فيه الف وثلاثون برجاً المقاتلة ، واثنا عشر باباً ، وفي داخله مائة وثلاثون طاحونة لطحن الغلال بقوة التيارات المائية ، وكان يوجد مقابل غرناطة على إحدى تلالها قلعة بني الأحمر وقصورهم الحصينة التي شكلت بمجموعها مدينة « الحمراء » بدأ بناءها مؤسس الأندلس : محمد ابن يوسف بن الأحمر الذي لقب نفسه « الغالب بالله » ثم عمل أخلافه على توسيعها وتجميلها . وأشهر آثارها قصر الحمراء وهي الآثار الباقية حتى اليوم من اطلال غرناطة ، وأشهر ما فيها قاعة الأسود التي تتوسطها بركة من الرخام الأزرق ، صحنها مسدس الشكل ، ويحمله اثنا عشر سبع من الرخام الأزرق .

ويصف سيد أمير علي المؤرخ الهندي الحمراء بقوله : « ومن الصعوبة بمكان أن نوفي الآن هذا العمل الذي سمي بعمل الجن حقه من الوصف والابداع . إذ أن القلاع والحصون والقصور بفنها المعماري الدقيق وأروقتها وأعمدتها الفخمة وقببها وسقوفها ذات الزخرفة والنقوش البديعة التي لم تفقد شيئاً من رونقها الأصلي إلى الآن . وابهائها الهوائية المشيدة ليمر منها النسيم المعطر بشذى الورد . والبرك التي أحكم المهندسون تشييدها فأصبح انبثاق الماء فيها تابعاً لإرادة الإنسان أن أراد رفعه وأن أراد أنزله من علو شاهق في أشكال هندسية بديعة . كذلك كانت الأبنية المنقوشة بالأصباغ والمزدانة بالفسيفساء على أجمل صنع وأتم إتقان . فتعكس عليها الأضواء والألوان منها الذهبي والقرمزي والأزرق والأرجواني ومختلف التماثيل ، وبهو السباع المشتمل على ١٢٨ عموداً فخماً ، وأرصفتها البيضاء والزرقاء وتناسق الألوان القرمزية الذهبية . وتماثيل السباع التي يجري الماء من أفواهها والبركة المرموية ... كل ذلك يحتاج إلى قلم فنان ليوفيه حقه من التصوير والابداع » .

الفصل الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

كان لخروج عرب الجزيرة إلى الأطراف العربية في صدر الإسلام للغنى الذي رافقته الانتصارات على البيزنطيين والفرس وإطلاعهم على الفنون المعمارية التي كانت في البلاد التي قدموا اليها أن أخذوا في تقليدها فشيد كثير من الصحابة دوراً جديدة في مكة والمدينة من الحجارة والرخام ، وكانت دار عثمان بن عفان والزبير بن العوام من أعظمها وأجملها . كما كان لتعاليم الاسلام ، أثر عظيم في الفن الجديد ، الذي اقتبسه العرب ، وقلدوه تقليداً ماهراً ، وأدخلوا عليه كثيراً من التطور الذي يلائم تعاليمهم الجديدة، **حتى غدا فناً اسلامياً خالصاً ياخذ بنصيب من هذا ومن ذاك** ولكنه يشكل نموذجاً قائماً بذاته ، فكان لا بد للمسلمين من مساجد لصلاتهم الجامعة ، ولعقد اجتماعاتهم السياسية ، ولا يمكن أن يبنوها على طراز كنائس المسيحيين ، أو بيوت العبادة عند الموسويين أو الوثنيين إذ حرمت عليهم الأصنام ، والتماثيل والصور التي ترمز إلى الكائنات الحية ذات الروح ، فكان لا بد لهذه المظاهر الفنية من أن تمحى فلا يظهر أثرها في المساجد الجديدة ، ولا في قصور الأمراء والخلفاء . ولا نلبث أن نرى كثيراً من المسلمين ، في العصر الأموي ثم في العصر العباسي والدويلات المنفصلة والأندلس ينحون في طرازهم المعماري والفني منحى جديداً ،

فهم يحرمون الصور والتماثيل في المسجد ويزينونها بالأعمدة والفسيفساء والقاشاني والزخارف الهندسية والنباتية والثريات والمقرنصات والتيجان والقناديل الذهبية أو الفضية ، ولكنهم يبيحون لانفسهم في قصورهم ومدنهم استعمال الصور ذات الروح ، والتماثيل العربية ، واستعمال الأواني الذهبية ذات الصور المختلفة ، ويلبسون الأقمشة الحريرية المذهبة والمنقوشة بالصور ، ويرعون الفنون بشتى أنواعها من موسيقى وتصوير ونحت وعمران ، فهم بذلك يفصلون بين فن ديني قوامه المساجد وما يتصل بعبادة الله تعالى ، وفن مدني خالص يتصل بحياة المرء في الدنيا وتمتعه بجمالها وفنونها .

كان المسجد أهم مباني المسلمين ولم يكن في أول الأمر أكثر من بناء مربع يقوم سقفة على عمد من جذوع النخل أو مما يؤخذ من الأبنية القديمة . ثم تطورت عمارة المسجد على يد البنائين من غير العرب وزادت فيه أجزاء يظن بعض الباحثين أنها اقتبست عن بعض اجزاء العمارة المسيحية ولم تلبث المساجد أن أصبح لها نظام لا تكاد تخرج عنه ، فكان معظمها يتكون من ساحة كبيرة مكشوفة في الغالب يتوسطها بركة ماء ويحيط بها أربعة أروقة تسندها الأعمدة ، وأحد هذه الاروقة وهو الرواق المتجه نحو الكعبة واسع جداً ويدعى الحرم ، وفيه المحراب والمنبر .

ويلي المسجد في الشأن « المدرسة » وقد استقلت ببناء خاص منذ القرن الخامس الهجري وكان المسجد من قبل مركز التدريس . وتصميم المدارس كان يشمل في الغالب صحناً مكشوفاً تحيط به أربعة إيوانات في شكل متعامد وأحد هذه الايوانات هو المدخل وفيه السلم الذي يؤدي للطابق العلوي.

ثم يأتي « الضريح » أو المشهد ويسمى أحياناً تربة أو قبة ويختلف تصميم الضريح باختلاف الأقطار الاسلامية لكنها في معظمها لم تكن أكثر من

غرفة يعلوها قبة . وهناك « الرباط » وهو نوع من الأبنية العسكرية كان يسكنه المجاهدون انتشر في صدر الاسلام وهي في معظمها أبنية مستطيلة تعلوها أبراج للمراقبة وتحيط غرفها بالصحن الداخلي ولا نوافذ لها . وقد زالت الصفة الحربية عنها مع الايام وأصبحت بيوتاً للتقشف والصوفية وهناك الخوانك (جمع خانكاه أو خانقاه) أو التكايا وهي بيوت للمتصوفة .

وعني المسلمون ببناء « الأسبلة » في أركان المساجد وبتشييد البيمارستانات (المستشفيات) وبناء الخانات . والاسواق في المدن . وكان « للحمامات » شأن خطير في الاقطار الاسلامية ولها نظام في بنائها يراعى انتقال المتحمم من الحر إلى الهواء الطلق فكان في كل حمام ثلاثة أقسام كل منها أسخن مما سبقه.

أما « القصور » الاسلامية فكان يعنى بها العناية الكبيرة ولكننا لانعرف

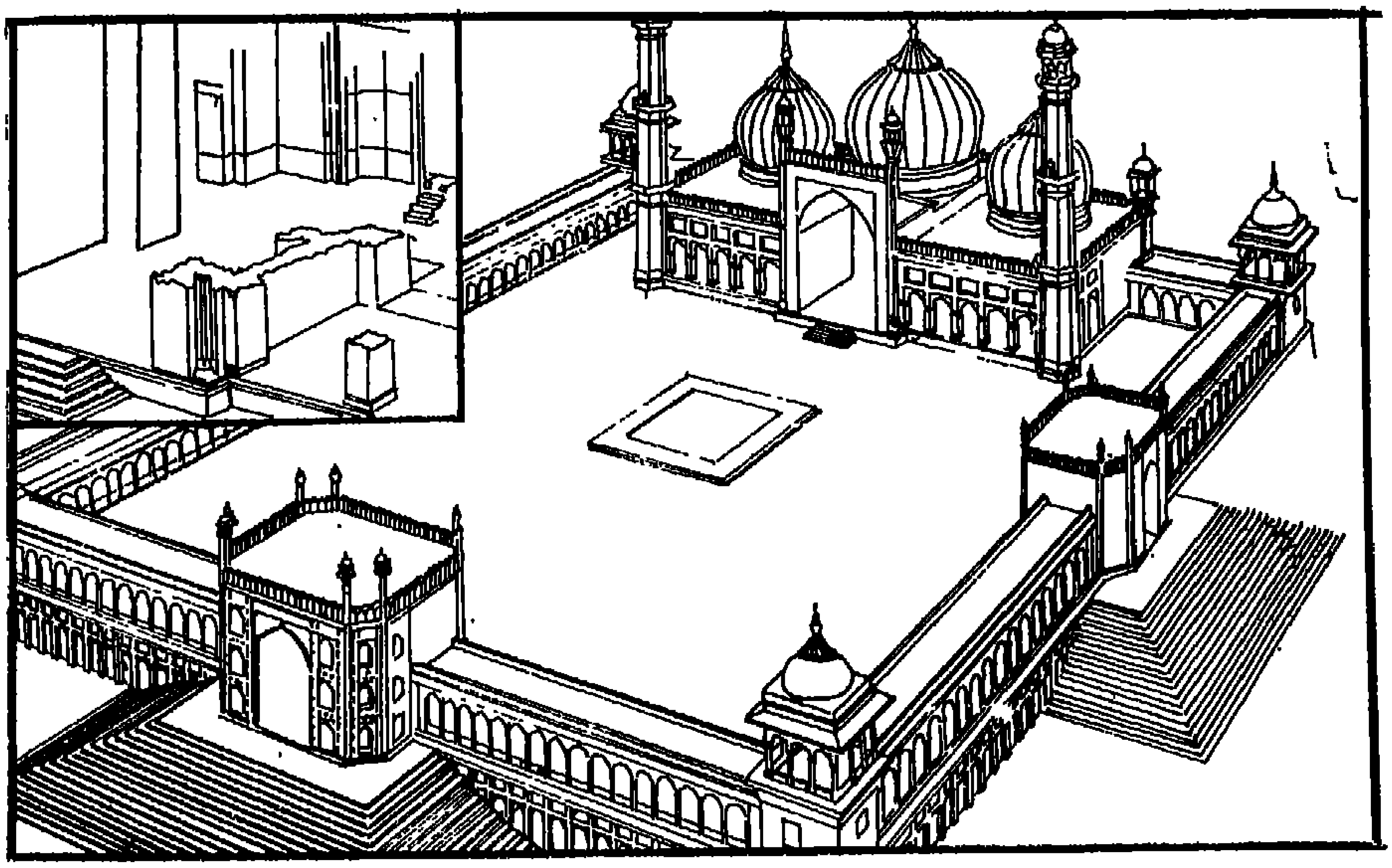

شكل — ١٤ —
نموذج لفن بناء المساجد في الهند الاسلامية يلاحظ الجدار الخارجي الذي يشبه أسوار القصور وسعة الفناء ، وفي وسطه البحرة للوضوء ، ثم الحرم وقبابه متأثرة بالطراز الهندي وكذلك مناراته

عن نظامها وتصميمها ما يستحق الذكر الا في العصور المتأخرة (منذ نهاية القرن الثامن الهجري) لان معظمها لا سيما قصور العباسيين في العراق قد اندثر . ومعظم ما بقي فانما هو في الاندلس .

وقد وجد في هذه القصور ملاعب وساحات ، ومخازن واسعة تلحق بها ، عرفت باسم خزائن ، ـ مفردها خزانة ـ او خانات ، ـ مفردها خانة ـ وقد تعددت ، فمنها خزانة الكتب ، وقد بلغت في قصور الفاطميين اربعين حجرة ، وخزانة الكسوات ، وخزائن الجوهر والطيب والطرائف ، وخزائن الفرش والامتعة ، وخزانة الشراب ـ اي الدواء ـ وخزانة التوابل ، وخزانة النبود ، وخزائن الازهار . اضف الى هذه المباني ما كان يعرف بالحواصل (جمع حاصل) وهي اصطبلات الخيل ومناخات الجمال والفيلة واهراء لخزن الغلال ، وشون للاتبان ، ومخازن للبضائع ، والطواحين والمطابخ .. هذا بجانب الحدائق الملحقة بالقصر .

وقد ذكر انه بلغ عدد المرافق التي كانت لسكن قصر المأمون ما بين حجر وغيرها ثلاثمائة وستين مرفقاً .

وأخيراً فان البناء الحربي كان ذا شأن واضح في تاريخ الاسلام وما من مدينة هامة إلا وقد بني لها السور أو جدد مرة بعد مرة ، وما من مكان هام الا وبنيت فيه قلعة حصينة تتسع وتصغر حسب قيمته .

مدارس فن العمارة الاسلامية :

يمكن أن نلاحظ في العمارة الإسلامية أنها كانت في الغالب دينية وأنها اقتبست الاساليب التي وجدتها ريثما وجدت أسلوبها الاسلامي الخاص وقد تبعت في معظم الاحوال استبحار الرفاه في الدولة والميل الشخصي من الحكام . وأخيراً فقد تميز كل قطر من الاقطار الاسلامية بعدد من الميزات المعمارية تسمح لنا بأن نقسم مدارس العمارة الاسلامية الى ست مدارس :

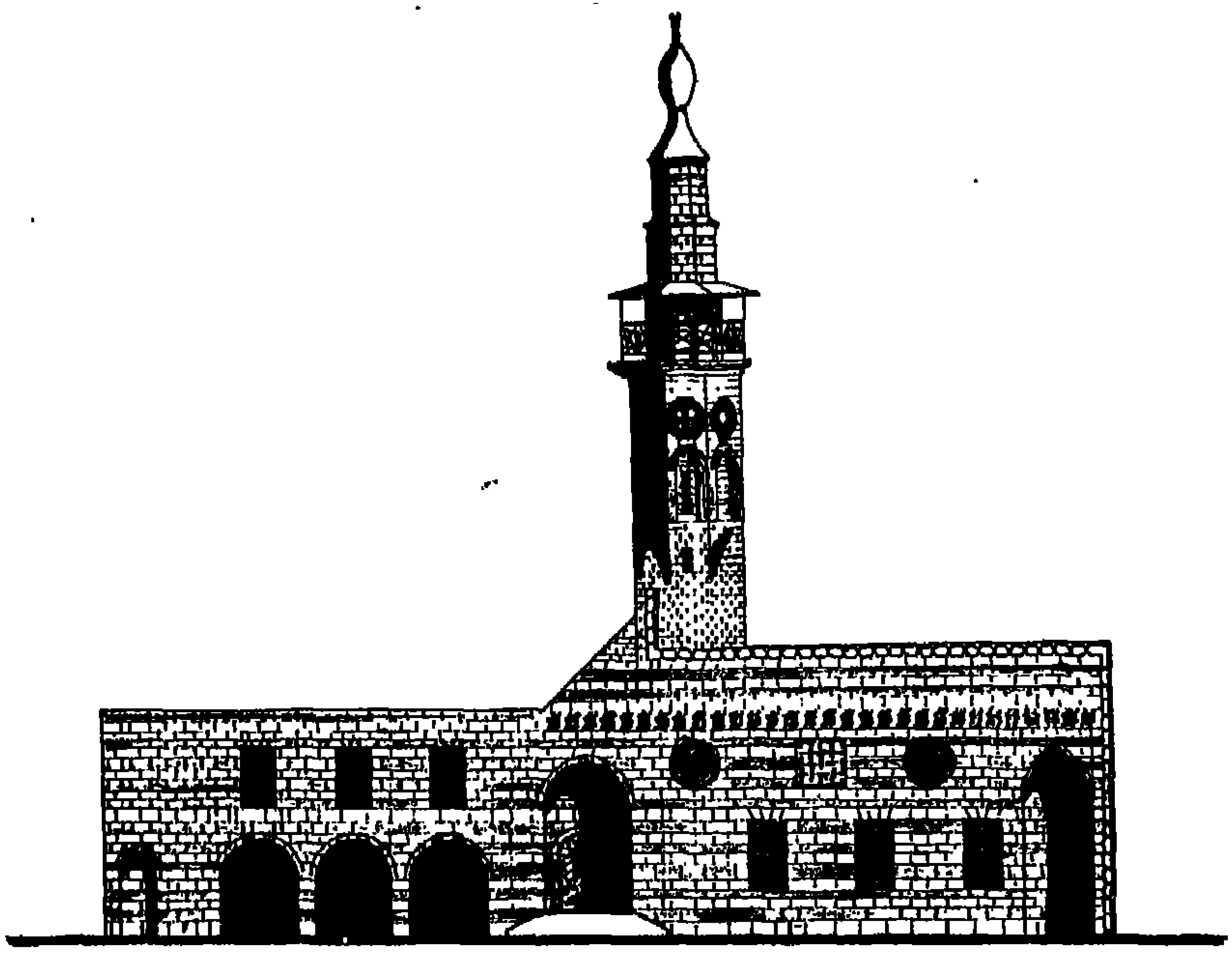

شكل ــ ١٥ ــ

واجهــة جامــع المعلق في دمشق . نموذج من فن البناء المملوكي في سورية .

١) المدرسة السورية ــ المصرية : كان لاشتراك الشام ومصر في تاريخ واحد تقريباً منذ ما قبل الميلاد بحوالي الف وخمسمائه سنة ، أثره في توحيد تراثها الفني ، وقد وقع البناء الاسلامي في القطرين ، منذ العهد الاموي ، تحت تأثيرات محلية متشابهة تتصل بالفن الهلينستي الشرقي والبيزنطي واستمر تاريخها متصلاً في العهد الطولوني ثم الاخشيـدي ثم الفاطمي ثم الايوبي والمملوكي والعثماني وهذا ما يوضح ، مع اتصال القطرين الجغرافي ، تشابه الاساليب الفنية فيها :

ومساجد هذه المدرسة حتى القرن العاشر مستطيلة الشكل وسقوفهـا عامة مسطحة . ولا تظهـر السقوف ذات القباب إلا في العهـد الفاطمي

« القرن العاشر » كما تظهر المقرنصات أما الأقواس فهي نصف دائرية أو مدببة أو بشكل قطع ناقص « حدوة الفرس » ومآذنها أحياناً مربعة ولكنها في غالبها مضلعة . وقد ظهر في العصور الاخيرة منها زخرفة البناء بتنويع ألوان حجارته وعمل الاشكال التزيينية منها .

وأزهى عصور هذه المدرسة العصر الاموي في الشام والفاطمي والايوبي في مصر والمملوكي في القطرين معاً . ومن أهم أبنيتها مسجد عمرو بمصر والجامع الاموي بدمشق وقبة الصخرة في القدس والجامع الازهر في مصر والمدرسة الظاهرية والعادلية الكبرى في دمشق وقلعة حلب .

٢) المدرسة العراقية – الفارسية : والأسس الاولى لأساليب هذه المدرسة فارسية . وقد سيطرت في العهد العباسي ولكنها لم تنفذ بتأثيرها الا في غرب العراق . وبلغت أوجها في مدينة سامراء في القرن الثالث . ولا نستطيع أن نوضح الكثير من أسلوب هذه المدرسة إلا في العصور المتأخرة ، وفي زمن الصفويين خاصة القرن « ١٦ – ١٧ » وهو من أزهى عصور الفن الاسلامي الايراني . اذ استعمل القوس الفارسي « المدبب القليل الارتفاع » كما جعلت الابواب الكبرى للمساجد ضمن اطار مستطيل مزخرف تقوم على جانبه مئذنتان رشيقتان ، والمآذن اسطوانية عامة ، وأما القبة فمتطاولة بصلية الشكل مزخرفة الظاهر والباطن . واشتهرت هذه المدرسة باستعمال القاشاني بزخارفه النباتية وندر استعمال الزخارف الهندسية .

وأهم آثار هذه المدرسة كانت في بغداد وسامراء ولكن معظمها اليوم أطلال ، وبقي في ايران أبنية اصفهان الرائعة وأخصها بالذكر « ميدان شاه » قلب المدينة الفني ومسجدي شاه : الجامع الذي بناه الشاه عباس ويعتبره بعضهم من أجمل مباني العالم . وتعود شهرته الى الغنى الفائق في

الزخارف الداخلية ، رغم ان الوحدة المعمارية فيه غير متكاملة ، كما يعود الى هذه المدرسة بنـــاء مشهد الكاظمين في بغداد الذي أتمه الشاه اسماعيل الصفوي في القرن السادس عشر الميلادي . وقد انتشر في عهد الصفويين بناء الاضرحة على نوعين : في غرب ايران حيث كان الضريح عبارة عن ردهة يليها بناء تعلوه قبة ، وفي شرق ايران اتخذ الضريح شكل جوسق مثمن الاضلاع ، ومن اجمل الامثلة على ذلك الجامع الضريحي للشيخ صفي الدين باردبيل الذي انشىء في القرن السادس عشر واكمل في اواسط القرن التالي .

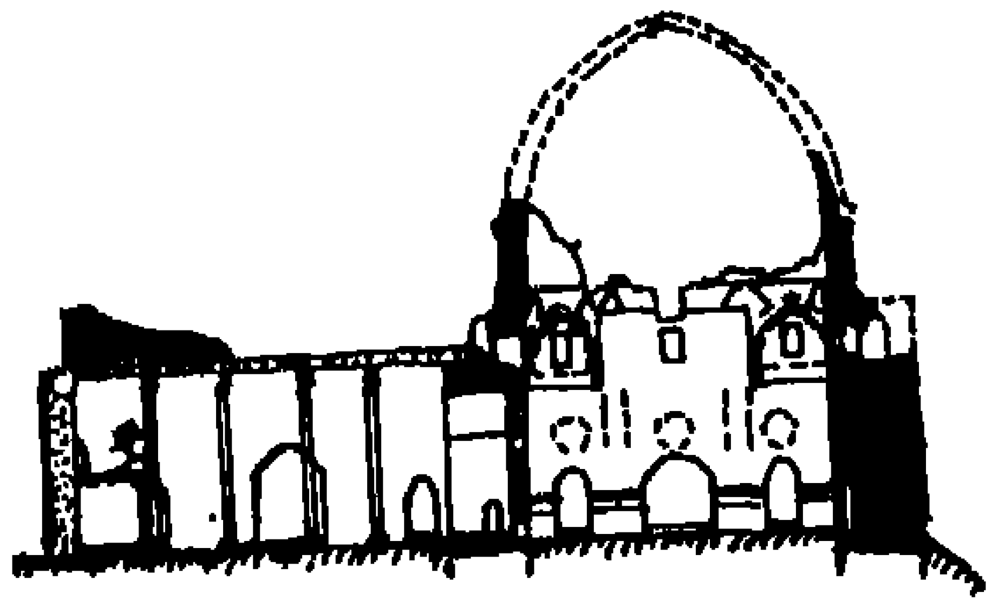

شكل ــ ١٦ ــ
مقطع بناء مسجد الجمعة في اردبيل

٣ ــ المدرسة الهندية : وقد ظهرت في شمال الهند منذ القرن الثاني عشر حتى السادس عشر ابنية اسلامية هندية الطابع ثم جاء سلاطين المغول المسلمين « القرون ١٦ ــ ١٨ » فاقتبسوا في أبنيتهم القوس والقبة البصلية عن المدرسة الفارسية . وزادوا على ذلك استعمال الرخام المخرم والدعائم الضخمة . ومن اشهر مراكز الفن الهندي الاسلامي مدينة دهلي وفيها قصر أباطرة المغول والجامع الاكبر . وهناك خاصة مدينة « أغرة » التي اشتهرت بأثرها الفني الخارق « تاج محل » وهو ضريح تذكاري لزوجة الشاه جهان المتوفية سنة ١٦٣١ م ظل يبنى خلال ٢٢ سنة عمل أثناءها فيه ٢٠ الف عامل .

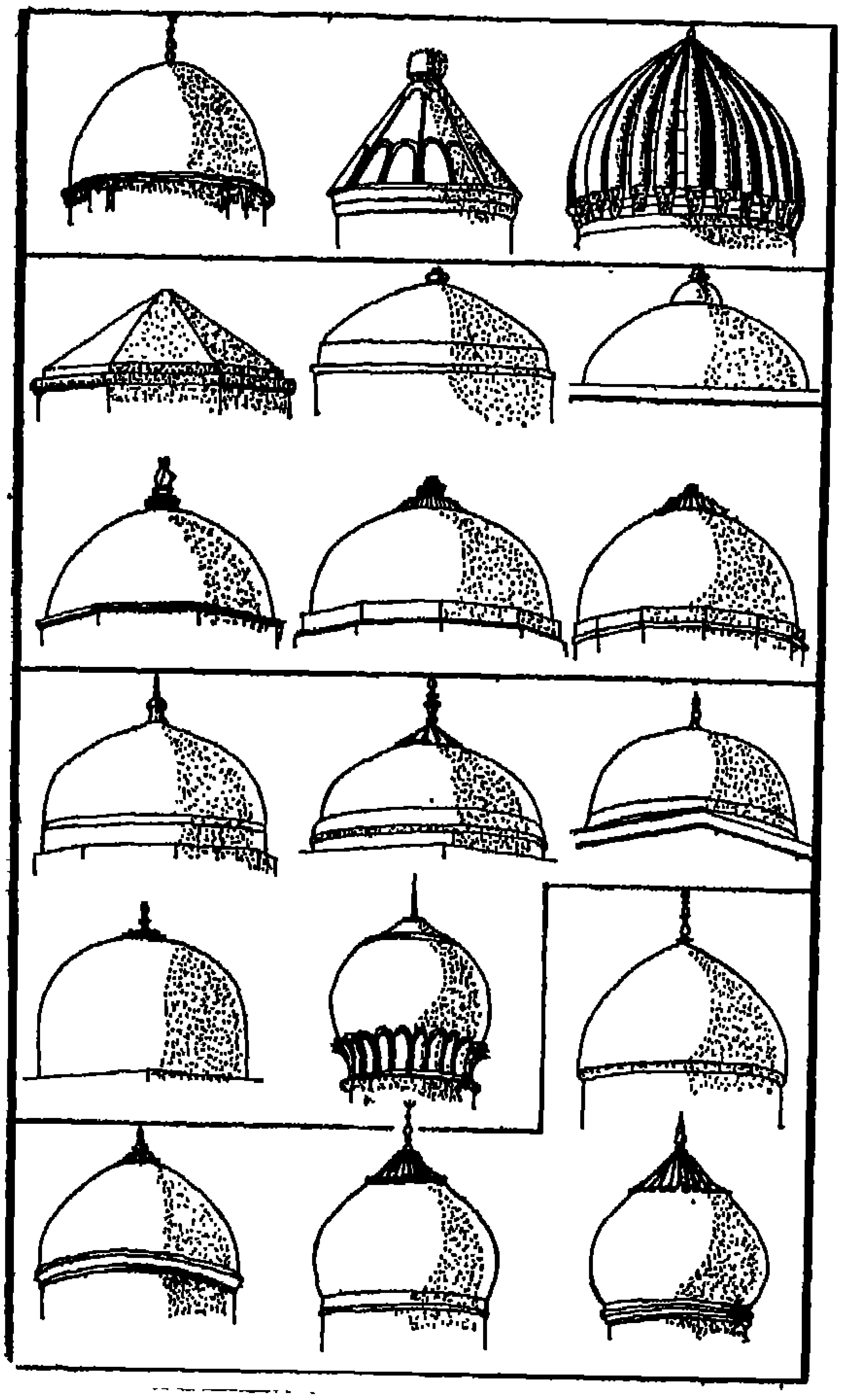

شكل ـ ١٧ ـ
نماذج القباب في العالم الاسلامي مشرقية ومغربية

٤ ـ **مدرسة المغرب والاندلس :** ظل الطراز الاموي سائداً في الاندلس حتى القرن الخامس الهجري « ١١ م » وقد برز خاصة في جامع قرطبة غير أن الطراز المغربي ـ الاندلسي بدأ بالظهور بعد ذلك في عهد المرابطين والموحدين وازدهر وبلغ أوجه في القرن التاسع هـ « الخامس عشر م » في

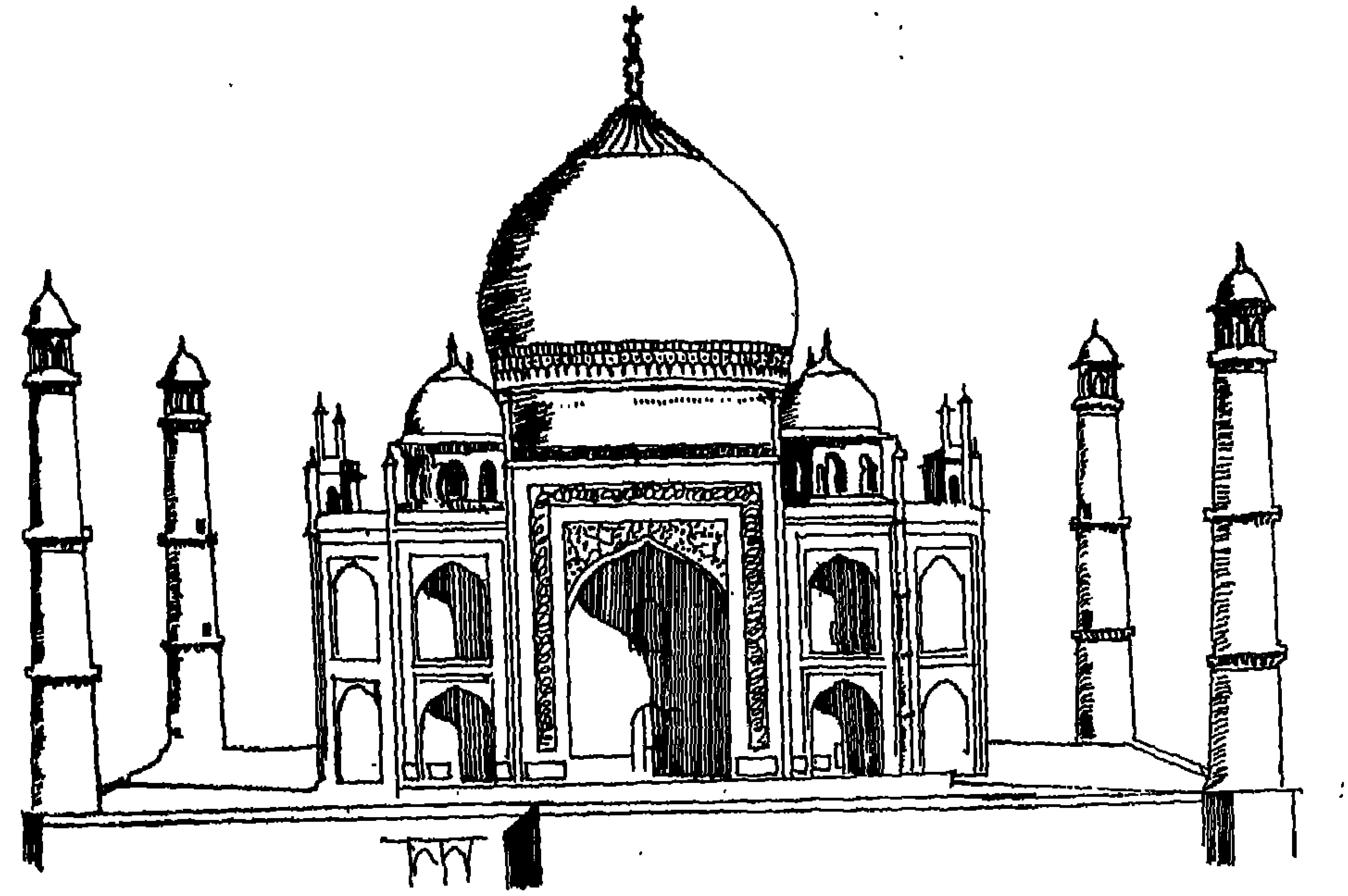

شكل ـ ١٨ ـ
من روائع الفن الاسلامي في الهند بناء تاج محل في اغرا (١٦٣٥ م)

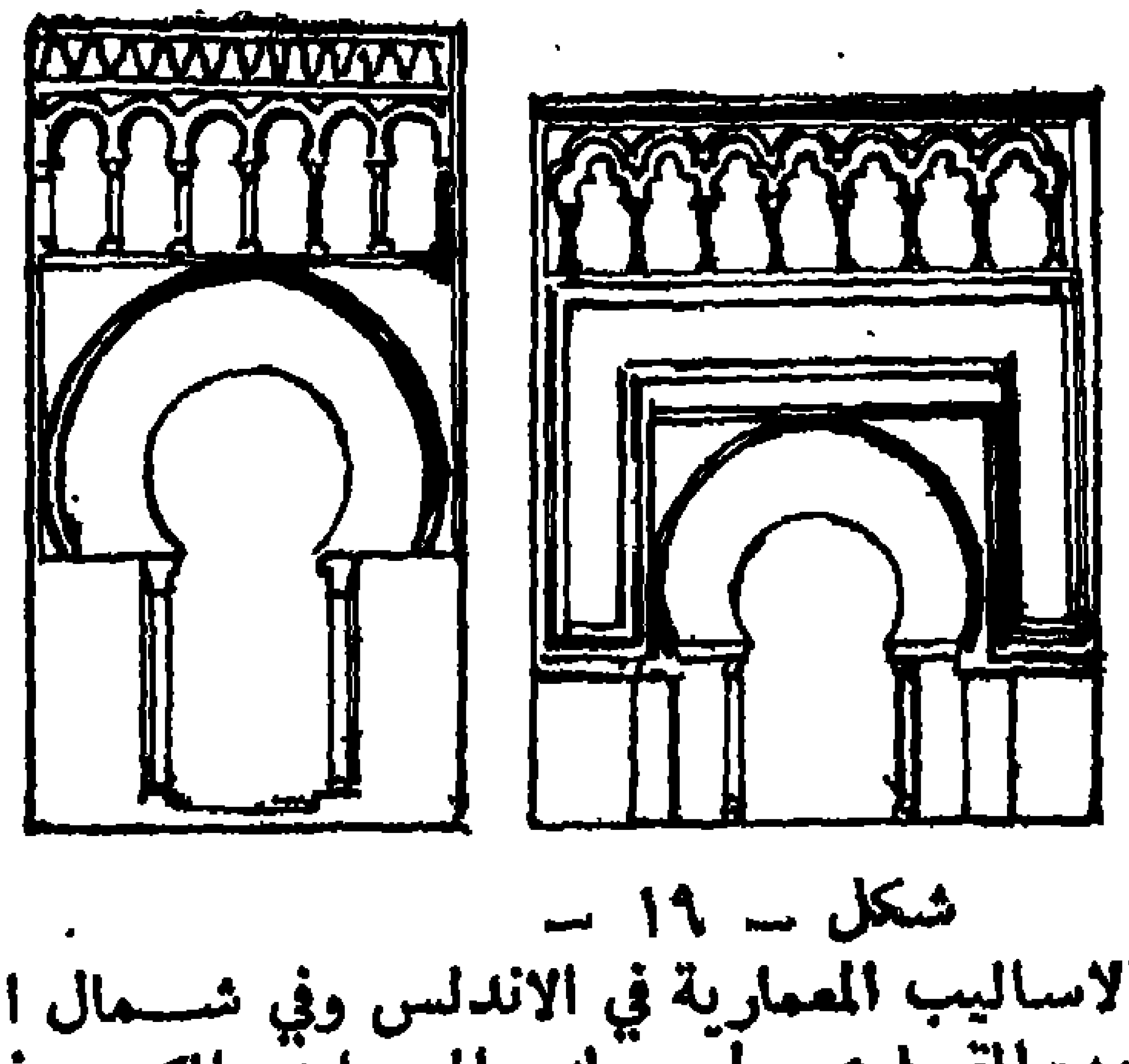

شكل ـ ١٩ ـ
استخدمت نفس الاساليب المعمارية في الاندلس وفي شمال افريقيا الشكل الى يمين- القارىء لمحراب الجامع الكبير في قرطبة والشكل الاخر لباب مكتبة الجامع الكبير في القيروان

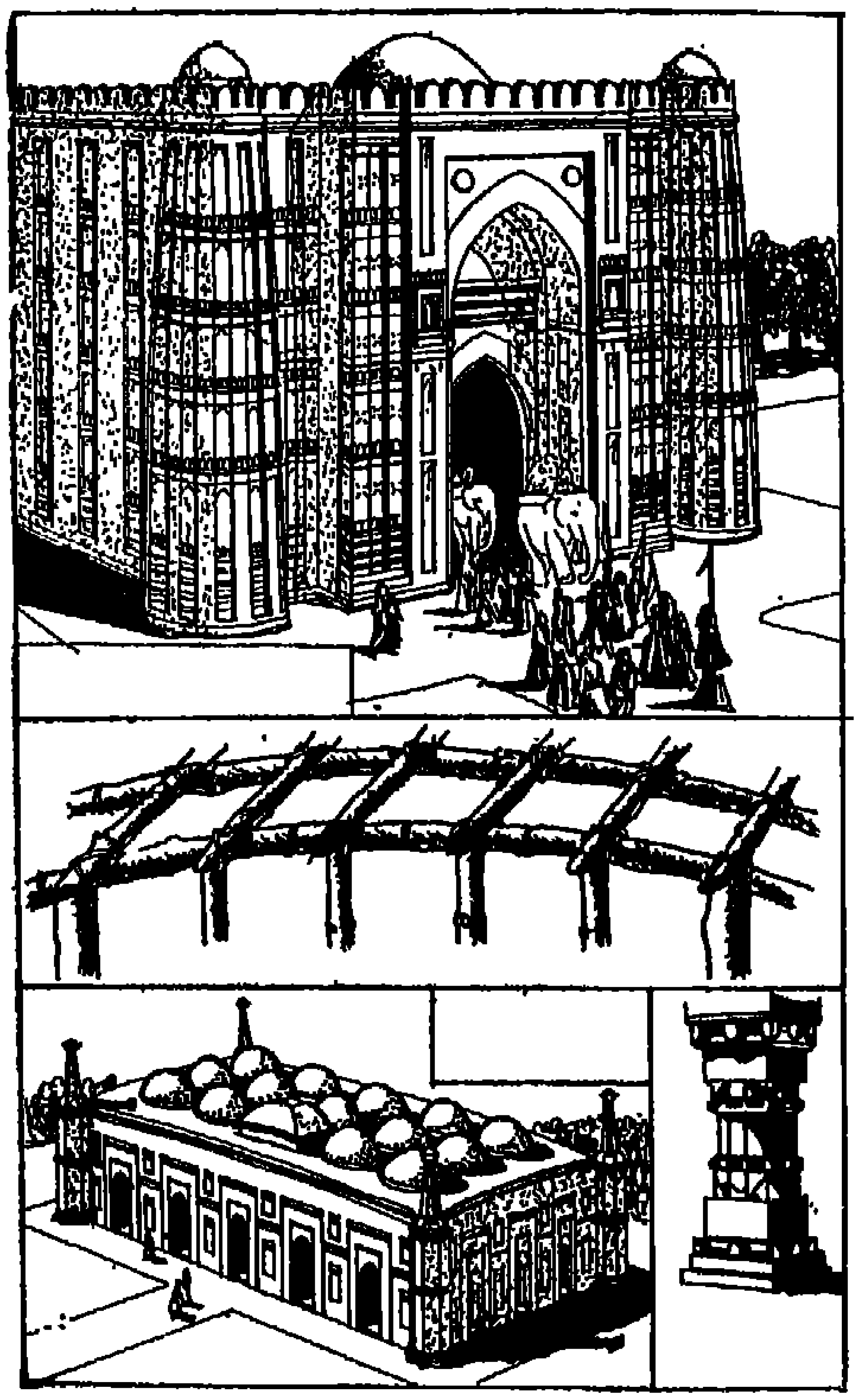

شكل — ٢٠ —
نماذج من فن البناء الاسلامي في الهند . في الاعلى دقهيـل
أو سوق مغطاة ضخمة ، وبوابة ، وطريق عبرها
وفي الوسط طريقة رفع السقف وفي الاسفل
مسجد في مدينة غور بني عام ١٤٩٣ — ١٥١٩ م

قصر الحمراء خاصة واتصال القطرين في الحكم سمح بتشابه الاساليب الفنية بينهما . أما في مراكش فقد استمر الاسلوب الاندلسي المغربي حتى عهد السعديين « القرن ١٦ — ١٧ » ثم بدأ ينحط بعد ذلك .

وأبرز خصائص هذه المدرسة وجود الشرفـة المسننة من الخشب فوق الابواب الكبرى ، واستعمال القوس المتطاولة ، المليئة بالمقرنصات ، وأما المآذن فهي عموماً مربعة الشكل مكسوة بالقاشاني والاعمدة وقد كثر في

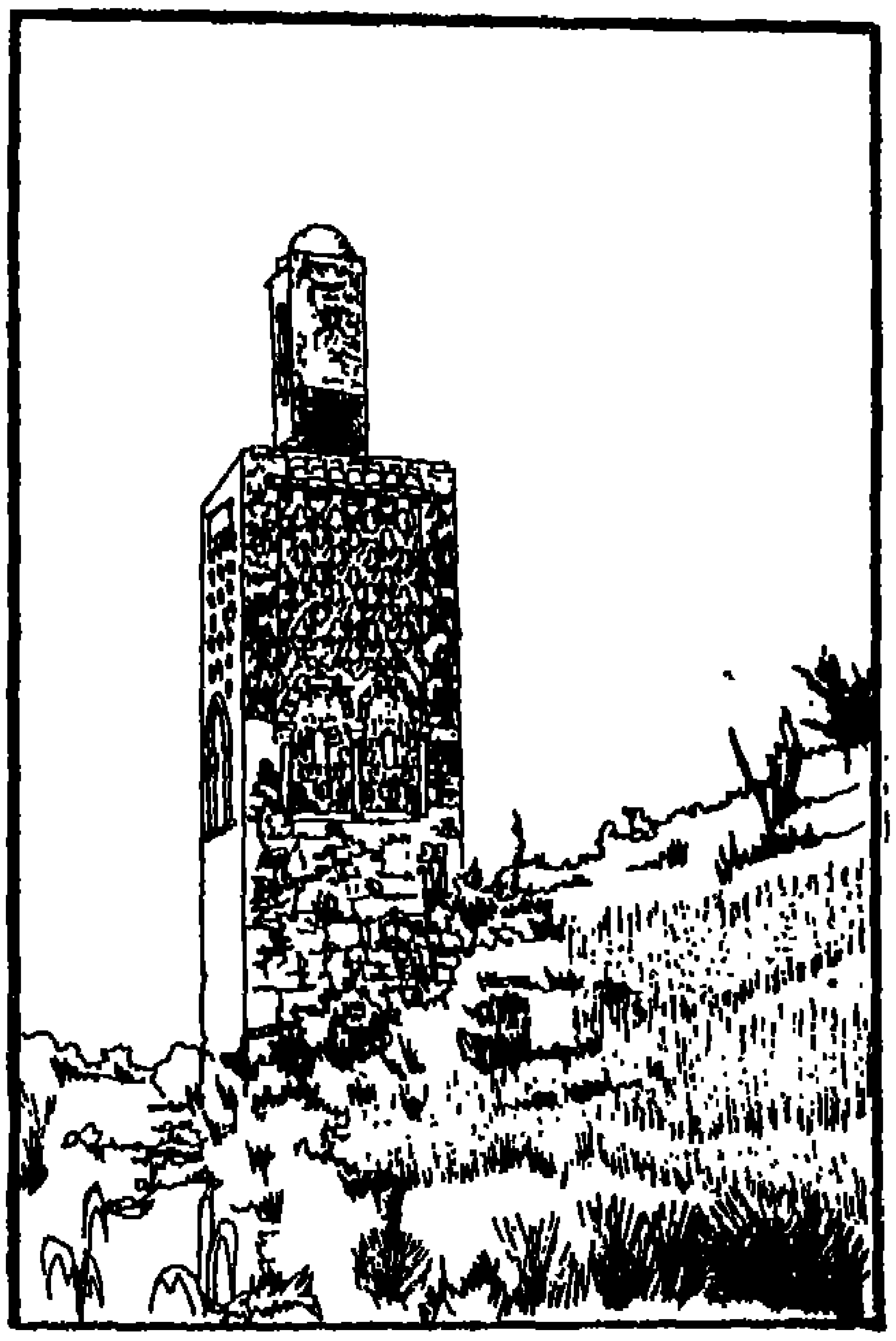

شكل ــ ٢١ ــ

بقايا منارة مسجد في الرباط ــ المغرب ــ من عهد سلاطين بني مرين تمتاز بتزييناتها من الفخار المطلي ، أو القاشاني المغربي الجميل ، الغائر والبارز

هذه المدرسة استعمال الجص المحفور والفسقيات واستعمال اللون الذهبي في التزيين .

وأهم أبنية هذه المدرسة : جامع قرطبة ومئذنته المربعة البالغة في الارتفاع ٧٣ ذراعاً . ومدرسة العطارين وجامع القرويين في فاس وجامع الكتبية في مراكش عدا قصور الزهراء والحمراء في الاندلس .

٥ ــ مدرسة الاندلس بعد زوال الحكم العربي ((الفن المدجن)) : لم ينته الفن الاسلامي في اسبانيا عام ١٤٩٢ م بسقوط غرناطة بل استمر تأثيره في اسبانيا والجزر القريبة زهاء قرن كامل تحت اسم الفن المدجن

على يد المدجنين وهم المسلمون الاندلسيون الذين بقوا تحت الحكم الاسباني ويظهر اثرهم واثر العناصر الاسلامية في زخرفة الكنائس الروسية والقوطية ثم اختلطت في ابنية عصر النهضة مع العناصر الواردة من ايطاليا .

واول فن مدجن ظهر في قشتاله ، في الكنائس التي أنشئت بعد عام ١٠٨٥ م « عام سقوط طليطلة » مثل كنيسة سان رومان باقواسها الحدوية وزخرفتها العربية الملونة ، وكنيسة سانت ماري لابلانش في طليطلة « ١٢٠٠م » والكنيسة الملكية او كنيسة سان فرناندو التي بناها الفونسو الحكيم « ١٢٥٢ — ١٢٨٦ م » في المسجد الاموي الكبير في قرطبة ، وجعل المعماريون مقرنصاتها وزخارفها النباتية شبيهة بفن غرناطة الاسلامي .وكذلك « القصر » في « اشبيليه » «١٣٥٤ » الذي ذكر عنه المعلقون الفنيون ان بصالاته الفاخرة الزينة وبحدائقه الغناء .. يؤكد بصورة قاطعة استمرار تذوق الفن الاسلامي من قبل الملوك المسيحيين .

٦ ـ **المدرسة العثمانية :** تأثر العثمانيون أولاً بالطراز العراقي الفارسي ثم بالطراز البيزنطي فأخذوا عن الأول الزخرفة واستعمال القاشاني وعن الثاني طريقة البناء . وهكذا ظهر مثلاً الجامع العثماني المكون من قاعة مربعة لا صحن خارجياً لها ، تعلوها قبة منخفضة وعلى طرفي القاعة غرف نصف دائرية تعلوها قباب نصفية . أما المآذن فهي لكثرة اضلاعها مستديرة ولكنها رشيقة جداً تستدق في اعلاها ولها شرفتان أو ثلاث شرفات . وتزين هذه المدرسة البناء بالقاشاني الأزرق وبألوان الحجارة احياناً .

وأهم مراكز هذه المدرسة استانبول أما أبرز ابنيتها فجامع السلطان بايزيد وجامع السليمانية . ولها في دمشق التكية السليمانية وجامع السنانية عدا قصري العظم في دمشق وحماة .

الفصل الرابع

المساجد

المساجد وظواهرها المعمارية :

إذا كانت المساجد أهم ما بناه المسلمون من الابنية فان الفن الاسلامي إنما نشأ فيها في الواقع . والمسجد اهم مكان تتمثل فيه العمارة الاسلامية والفن الاسلامي معاً . ولقد ظهر على المساجد الاولى البساطة في البناء والاثاث ، ثم أخذ المسلمون يعتنون بها فيوسعون مساحتها ، ويبنونها بالحجارة والاعمدة ويزينونها لتلائم ما وصلوا اليه من غنى وقوة وسعة ، فكان مسجد قباء الذي بناه الرسول عليه الصلاة والسلام عام الهجرة في المدينة لا يتجاوز باحة مربعة صغيرة تحيط به جدران مبنية من الآجر والحجارة ، يرتكز سقفه المصنوع من الجريد والاغصان على جذوع النخل، وهو أول نموذج للمساجد الاسلامية ، ثم بني المسجد الثاني في الكوفة بعد سبعة عشر عاماً ، ورفع سقفه على اعمدة من الرخام اخذت من انقاض بعض القصور القديمة ، ثم بنيت المساجد في الجزيرة وفي الممالك المفتوحة . وكانت مساجد الحجاز النموذج الذي تحاكيه مساجد البلدان الاخرى ، وساعد على ذلك مجيء الحجاج في كل عام إلى مكة والمدينة ، وقد أدخل على بناء المسجد في عهد الرسول **المنبر** ليقف عليه أثناء الخطابة ، ومنع عمر أن يتخذ المنبر في مساجد العالم الاسلامي غير مسجد المدينة ، ولكن المسلمين بعد عمر اتخذوا المنابر للخطابة ، واتخذ معاوية **مقصورة** في المسجد ليحتجب عن المصلين ، لأنه خشي أن يحل به ماحل بعمر وعلي من اغتيال واقتدى به الخلفاء ، وأدخل على المساجد زيادات أخرى مع الزمن فاتخذت المآذن لأول مرة في دمشق حين أذن المسلمون فيها للصلاة من أبراج المعبد الوثني القديم الذي قام على أنقاضه المسجد الاموي ـ كما يقول زكي محمد حسن ـ وأقيمت مآذن في مسجد عمرو في الفسطاط بأمر من معاوية ـ كما جاء في خطط المقريزي ـ واتخذ **المحراب** المجوف للامام

في الصلاة وللدلالة على جهة القبلة ، وأول محراب كان في مسجد المدينة ، ثم في الفسطاط ثم في دمشق ، وتعمم بعد ذلك ثم أدخلت **الايوانات** وهي الاروقة التي تحيط بصحن المسجد ولها أقواس مرفوعة على أعمدة أو دعائم ، وألحق بكثير من المساجد غرف خاصة للمؤذن والامام ، أو لايواء طلبة العلم الاغراب ، أو لحفظ مكتبة المسجد ، وفي العالم الاسلامي اليوم آلاف مؤلفة من المساجد ، بعضها قديم وبعضها حديث العهد ، وهي جميعها تحتوي تقريباً ما ذكرنا من حرم وقباء ، ومنبر ومحراب وأماكن للوضوء ومآذن للآذان ، ولكنها تختلف بطراز بنائها ، وتزييناتها ومحرابها ، وشكل مآذنها ، ويغلب على كل اقليم نظام معماري خاص متأثر بالفنون المعمارية السائدة فيه ... ومن أهم المساجد التي بنيت في العصور الاسلامية وكانت ذات ظواهر معمارية أثرت في فن العمارة للمساجد هي :

١ ــ **الحرم الشريف في القدس :** يضم الحرم الشريف في القدس ثلاثة مساجد : مسجد الصخرة ، ومسجد عمر ، والمسجد الأقصى .

اما مسجد عمر فهو مسجد بسيط يقوم عند الطرف الشرقي من الحرم في المكان الذي صلى فيه عمر بن الخطاب لما ذهب إلى القدس ليتسلمها من البطريرك صفرونيوس .

وأما المسجد الاقصى فهو المسجد الرئيسي في الحرم وقد بني غرب مسجد عمر ومحاذياً له وهو يشبه في تنظيمه الداخلي الجامع الاموي في دمشق والجامع العمري الكبير في بيروت .

وأما مسجد الصخرة فهو بناء صغير نسبياً مثمن ، تعلوه قبة كبيرة وكانت أول المساجد التي طلعت على العالم الاسلامي بنموذج جديد من

البناء يختلف عن بساطة المساجد الأولى وزهدها.وقد تم بناء قبة الصخرة في القدس في عهد عبد الملك بن مروان ، فلقد رأى عبد الملك ، أن ينشىء حول الصخرة المقدسة التي وقف عليها إبراهيم عليه السلام ليضحي ابنه « وفديناه بذبح عظيم » ، وهي التي وضع الرسول عليه السلام قدمه عليها في ليلة الاسراء لما عرج إلى السماء ، بناء يتفق ومركز الصخرة الديني عند المسلمين ، وعظمة الدولة العربية القوية والغنية ، بحيث لا يقل رونقها وبناؤها وزخرفها عن أعظم الكنائس أو المعابد عند الطوائف الاخرى ، فأحيطت الصخرة ببناء مستدير وحوله رواق دائروي ، وجعلت فوق الرواق قبة محمولة على ستة عشر قوساً ترتكز على أربع دعائم واثنتي عشر سارية ، واقيم وراء الرواق عمدان ودعائم أخرى نظمت على شكل مثمن منتظم ، وخلفها شيدت ثمانية جدران بارتفاع تسعة أمتار فكان مجموع البناء من الخارج يؤلف مثمناً بديعاً تختلف كل الاختلاف عن بقية المساجد ، وبقي هذا الشكل فريداً في نوعه في البلاد الاسلامية . وقد زينت القبة من الداخل بالفسيفساء ، وقد استبدلها سليمان القانوني سنة ١٥٤٨ م بلوحات من القاشاني المدهون بالميناء ، وكان استعمال القبة في المسجد – وهي التي كانت مستعملة في الكنائس المسيحية ، وفي أبنية الرومان والبيزنطيين – وفي استعمال الأعمدة ذات التيجان ، والأقواس نصف الدائروية . كل هذا كان فتحاً جديداً في بناء المساجد ، بدأه عبد الملك في القدس ، وتبعه الوليد في دمشق ونما وكمل في المساجد الأخرى المتعددة التي أنشئت في أملاك الدولة العباسية أو في شمالي أفريقيا أو في الأندلس .

وعلى نفس الهضبة التي بنيت عليها قبة الصخرة يقوم المسجد الأقصى وهو بناء أموي تعرض لكثير من عاديات الزمن وهو مؤلف من جناح

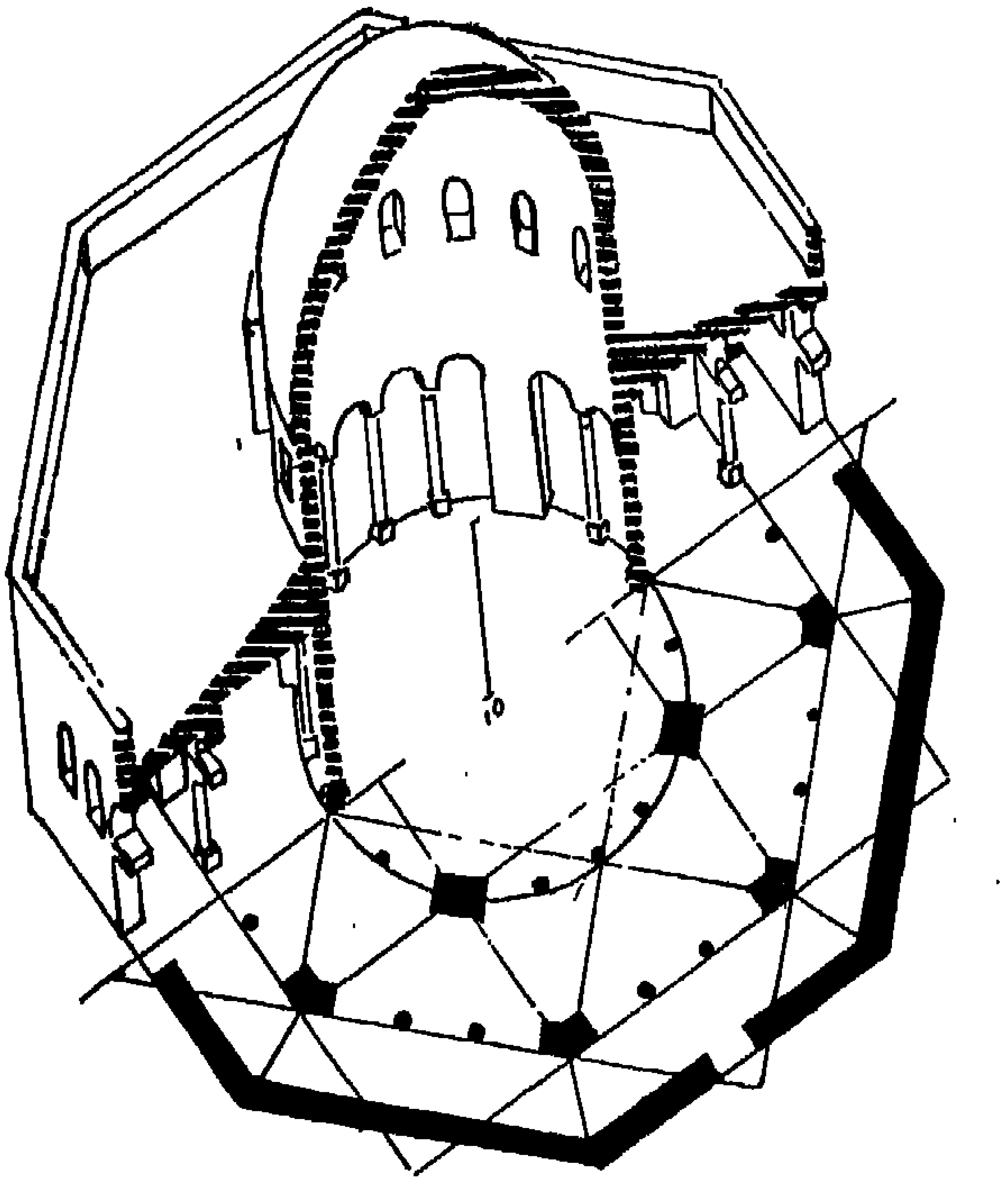

شكل ـ ٢٢ ـ
مقطع ومسقط قبة الصخرة في القدس

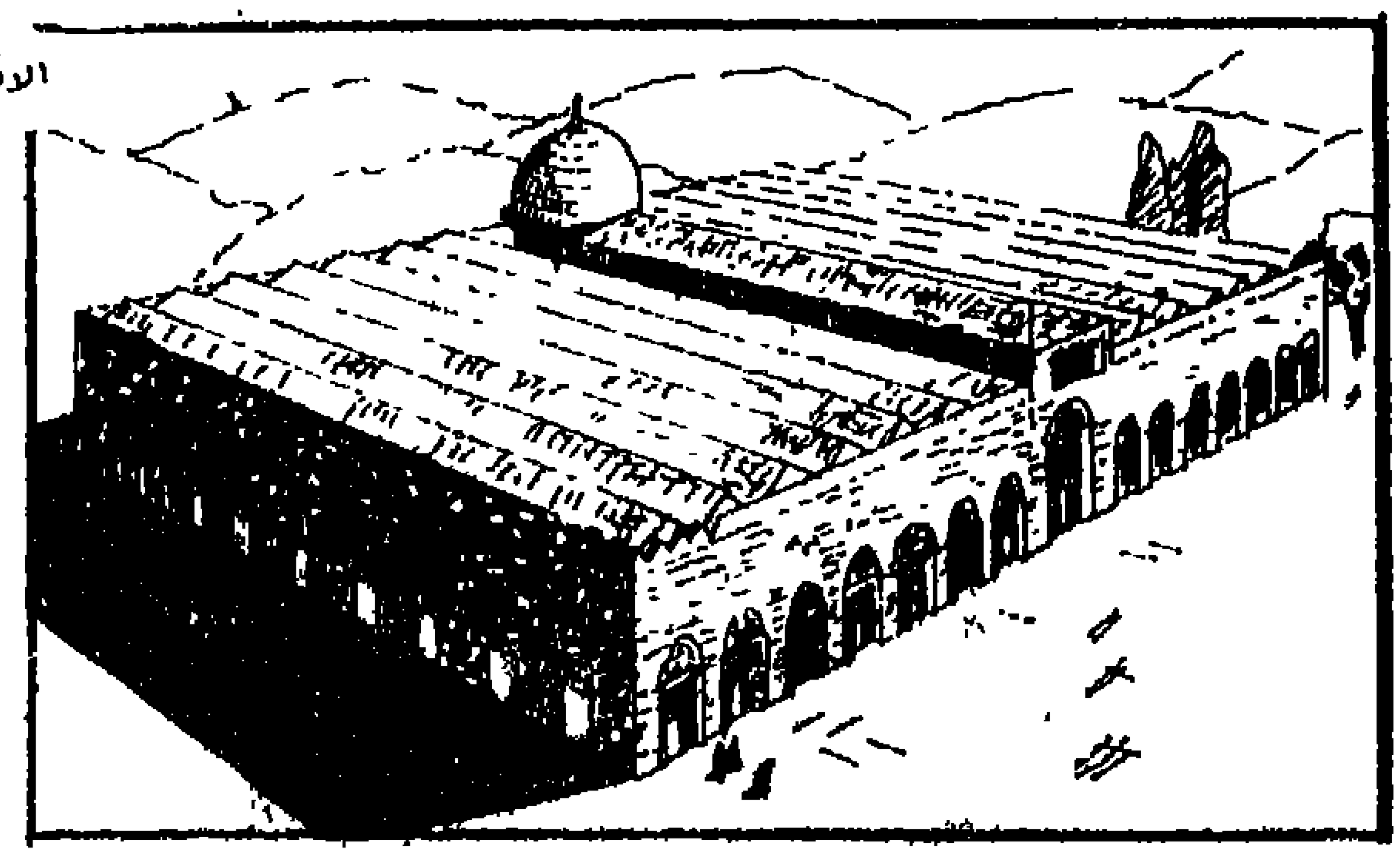

شكل ـ ٢٣ ـ

مركزي عريض تحده أقواس ترتكز على أعمدة وعلى جانبيه جناحان أضيق أضيفت إليه عدة أجنحة على طرفيه .

٢ ـ **المسجد الاموي بدمشق :** ويقوم المسجد الأموي بدمشق في منطقة مقدسة من معبد وثني قديم للاله جوبيتر الدمشقي ، وفي عهد الامبراطور تيودور سنة ٣٧٩ م حول الى كنيسة أطلق عليها اسم كنيسة القديس يوحنا ، وكان في كل ركن من أركان المعبد الوثني برج مربع ، وقد اختط أبو عبيدة بن الجراح على المعبد جامعاً ، كما استعمل المسلمون الأبراج للأذان ، ثم جاء الوليد بن عبد الملك وكان كلفا بالعمارة ، فاشترى

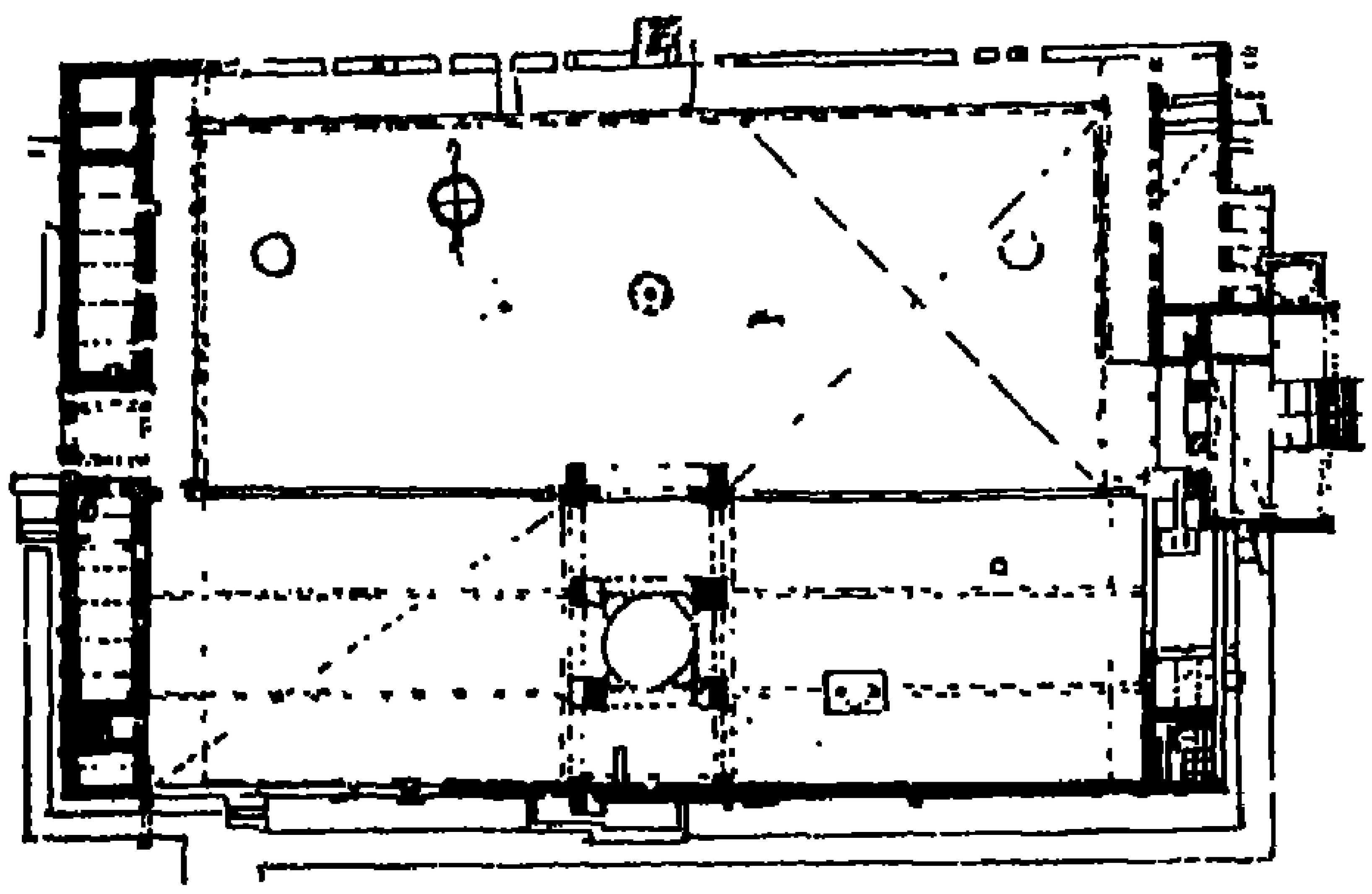

شكل ـ ٢٤ ـ

مسقط الجامع الاموي في دمشق

الكنيسة من النصارى وعوضهم بدلها ، وأمر باقامة مسجد فخم مكانها ، وتم تشييده بين سنتي ٨٨ و ٩٦ هـ « ٧٠٧ - ٧١٤ م » واستقدم

لبنائه العمال من جميع الاطراف ، وقيل ان امبراطور الروم وجه إلى دمشق مائتي صانع من أمهر الصناع البيزنطيين لينضموا إلى عمال المسجد بناء على طلب الوليد ... والمسجد يتألف من صحن كبير مستطيل الشكل وايوان أو بيت للصلاة وطوله ١٣٦ متراً بعرض ٣٧ متراً وفي هذا الايوان ثلاثة صفوف من الطارات موازية للقبلة ومحمولة على أعمدة رخامية ذات تيجان كورنثية ، وفوقها أقواس أصغر منها ، وفي الوسط ترى اليوم قبة حجريه أضيفت اليها في عصر متأخر عندما شيدت بشكل بيضوي .... وقد كان المسجد مفروشاً بالمرمر ، وكانت جدرانه مغطاة بلوحات من الرخام إلى ارتفاع قامة الانسان ، وفوق اللوحات زخارف من الفسيفساء الملونة والمذهبة ، ولم يبق منها إلا جزء في الرواق الغربي ، وقد احترق المسجد عدة مرات ، وأدخل على زخرفته وبنائه بعض التعديل فيما بعد ...

وقد أزيلت الكسوة من بعض الجدران فظهرت ألواح الفسيفساء التي تزين أروقة الصحن وتمثل مجموعة من الاشجار العالية يتخللها قصور وبيوت يعتقد أنها تمثل غوطة دمشق وبردى الذي يرويها .

ويؤكد علماء الآثار أن الأموي بني جميعه دفعة واحدة بعد أن دكت جميع الأبنية السابقة ، ولم يكن بناؤه ترميما أو إتماماً لبناء سابق . ويقول في ذلك الدكتور سليم عادل : « ونحن لا نقبل نظريات ولزنجر وواتزنجر وديسو ولامانس ومن لف لفهم في أن الوليد لم يبن من المسجد غير القبة والمئذنة الشمالية وانه لم يجر في بناء الكنيسة إلا بعض الاصلاحات الجزئية وذلك لأسباب كثيرة . أهمها : أنه لا يوجد ولا كنيسة يشبه

مخططها مخطط الجامع الأموي ، وإن شكل البناء بصورة عامة يخالف تقاليد سورية النصرانية في فن العمارة . ونعتقد مع تيرش وستوزيكورسكي وسوفاجيه آخر مؤرخي المساجد أنه يقدم لنا نموذجاً متجانساً يصعب القول فيه أنه بني على دفعات في عصور مختلفة ، ثم ان زخارفه الاسلامية تنسجم مع بنائه انسجاماً تاماً يمنع عن التفكير أنها صنعت مستقلة عنه » .

ويقول الدكتور زكي محمد حسن : « .. وكان المسيحيون قد شيدوا في هذه المنطقة (أي المعبد الوثني) كنيسة قبل الفتح الاسلامي وقد هدم الوليد هذه الكنيسة وشيد الجامع . فلا صحة لما يزعمه بعض مؤرخي الفنون من أن بيت الصلاة في المسجد الحالي هو كنيسة القديس يوحنا التي قسمها المسلمون بينهم وبين المسيحيين بعد فتح دمشق (أي يقصد أن البناء جميعه من عمل الوليد لا أنه قلب الكنيسة إلى جامع بتغيير مظهرها)

ويقول أيضاً : « ومن المحتمل أن يكون تصميم الجامع الأموي متأثراً بنظام الكنائس السورية وأن تكون واجهة رواق القبلة تشبه واجهة القصور البيزنطية ، وأن يكون الباعث على إدخال البلاطة المعترضة (الرواق النصفي في داخل المسجد) في هذا الرواق الرغبة في إظهار أهمية المحراب الذي تنتهي به هذه البلاطة . وفي هذا الجامع بضع نوافذ من الرخام ، فيها أقدم نماذج من الزخارف الهندسية في الاسلام . والحق أن هذا الجامع درة في تاج العمارة الاسلامية . » ويعتبر سوفاجيه أن هذا المسجد كان « أول نجاح معماري في الاسلام » ويؤكد جوريج مارسيه أن « البناء المسيحي هدم » قبل إشادة المسجد إذ أن الصفة

العامة للبناء كما يقول مارسيه « بأقواسه وسقوفه وسطوحه ذات المنحدرين (جمالونين) لا تسمح باعتباره كنيسة محولة إلى مسجد » .

ويؤكد الأمير جعفر الحسني ، ان الوليد ، استصفى كنيسة القديس يوحنا كلها ، فهدمها وشيد مكانها جامعه الخالد . الذي أصبح من أكبر مساجد العالم الاسلامي ، بني على غير مثال معروف ؛ استوحى واضع تصميمه من الأبنية السورية قبل الإسلام ، وطرازها المألوف إذ ذاك ، فصاغ منها نوع بناء جديد له طابعه الخاص ، وشخصيته المستقلة ، وقد وفق المهندس والصانع الى حدّ بعيـــد في الجمع بين أساوب البنـــاء القديم وزخارفه وما تستلزمه شروط الحياة الإسلامية وتعاليمها الدينية ، حتى كاد يلتبس على الباحث أصول هذا المزج ويعتبره ابتكاراً لا مزج فيه ولا استعارة ، وهكذا وضعت معه اسس الهندسة العربية التي استراح اليهـــا العرب المسلمون واتخذوها مثالاً احتذوه . . وللأسف اصيب هـذا الجامع غير مرة بزلازل صدعت أركانه ومناراته ، وحرق ست مرات في عصور مختلفة أولها حريق سنة ١٠٦٩ م والأخير سنة ١٨٩٣ م ذهبت بمحاسنه ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وكان يعاد بناؤه في كل مرة إلى ما كان عليه قبل الكارثة مع تحوير بسيط .

وسرعان ما شيدت كثير من المساجد التي تشبه في تخطيطهـا المسجد الأموي بدمشق ، كالمسجد الذي بدىء ببنائه في عهد الوليد وانتهى في عهد أخيه سليمان وهو المسجد الأموي في حلب. وقد شيد في وسط المدينة مابين باب انطاكية والقلعة ، وقد تطور مع الزمن بناء هذا الجامع واصابه تحوير وتعديل أضاعا علينا

شكل — ٢٥ —

مئذنة من مآذن المسجد الاموي
بدمشق (القرن السابع الميلادي)

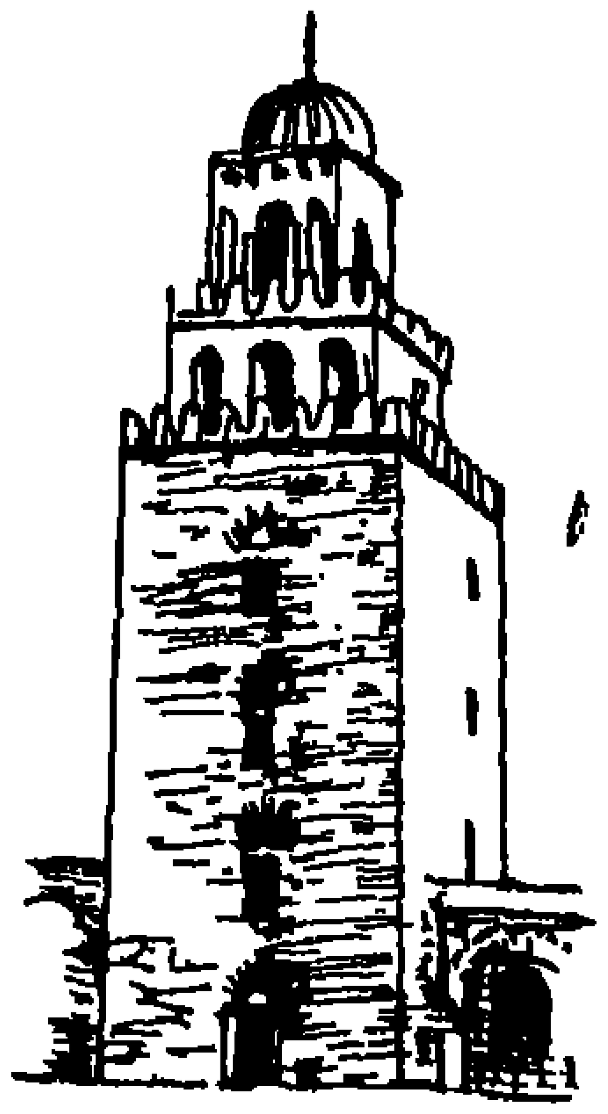

شكل — ٢٦ —

منارة جامع القـيروان
(القرن الثامن الميلادي)

شكله الأصلي ، ولكن هنالك دلائل وقرائن تحملنا على الاعتقاد بانه بني على غرار الجامع الأموي بدمشق ، ولكن دونه كلفة ونفقة . وأقل منه اسرافاً بالتنميق والزخارف . وكذلك يشبه في تخطيطه جامـع الزيتونـة في تونس ومسجد سيدي عقبة في القيروان ، وجامع قرطبة في الأندلس .

٣ — **جامع القيروان** : ويدعى بجامع سيدي عقبة ، بناه عقبة بن نافـع عندما خط مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ثم هدم وأعيد بناؤه سنة ٧٦ هـ وزيد في مساحته بأمر هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ هـ ، والقسم الأكبر من بنائه الحالي يرجع إلى عصر هشام ، ويمتاز هذا المسجد بأعمدته وتيجانه التي نقلها العرب من انقاض أبنية قديمة واستعملوها في رفـع سقوفه ، وأبعاده الآن تقرب من أبعاد مسجد دمشق إذ يبلـغ طوله ١٣٥ متراً وعرضه ٨٠ متراً ، وفي المصلى منه سبعة عشر بهواً توازي محوره الاساسي ، وعلى طرفي البهو الأوسط قبتان رشيقتان . وتتألف مئذنته من ثلاثة أبراج مربعة متعاقبة ، ويرجع بناء الطابق الأول والثاني منها لعهد هشام ، أما

الطابق العلوي فمن المرجح أنه أضيف بعد القرن الخامس الهجري ، وتعد هذه المئذنة من أجمل المآذن الإسلامية وتعلوها قبة صغيرة .

٤ ــ **جامع الزيتونة** : هو رابع جوامع القارة الأفريقية في الزمان، فجامع الفسطاس انشىء سنة ١٣ هـ وجامع الناقة بطرابلس (جامع عمرو بن العاص) سنة ٢٣ هـ . وجامع عقبة بن نافع بالقيروان سنة ٥١ هـ وجامع الزيتونة سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م .

وجامع الزيتونة رباط وجامع ، بل رباط فيه جامع . والرباط هو ثكنة (حصن) للمتطوعين لحراسة الثغور . فكان المغرب « دار حرب » يحتاج إلى الدفاع عن المكاسب الإسلامية العربية ... فأسس المغاربة ألف رباط على الساحل من طنجة إلى الاسكندرية لحماية الثغور وحراستها ووقايتها من « الكومندوس » والقرصنة . وجامع الزيتونة رباط لحماية الثغور ، فهو يتركب من أربع قلاع . في كل ركن قلعة مبنية بصناديق الحجر الكبرى ، وفيها صومعة ، مستديرة للاستكشاف والاستطلاع ومراقبة حركة العدو في البحر .

وهو جامعة علمية إسلامية ، تدرس فيه ، علاوة على العلوم اللسانية والدينية ، العلوم الرياضية والطبيعية والطبية ، وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته برنامج التعليم وعائلة العلوم التي كانت تدرس وأساليب تدريسها وأسماء الكتب التي تدرس فيها . وحول الجامع كانت أسواق تتعلق بمهمة التعليم وهي سوق الكتبيين « الوراقين » وسوق السفارين « المجلدين » ، ومجموعة مدارس لمبيت الطلبة . وفي الجامع مكتبة أسسها أبو زكريا مؤسس الدولة الحفيصة وأضاف اليها من جاء بعده من الخلفاء الموحدين أو من الأمراء

المراديين او الحسينيين فتجمع فيها نحو ٢٥ الف مخطوط منها المنفرد ومنها النادر ومنها النفيس .

يتكون الجامع اليوم من بيت الصلاة والصحن والمئذنة التي تسمى بتونس صومعة وميضأة .

يكاد جامع يكون متحفاً شاملاً للانماط والمدارس المعمارية الاسلامية فيه الفن المغربي من أفريقي وأندلسي ومراكشي ، وفيه الفن الفاطمي والعربي والتركي .

أما عن الفن المغربي فبناؤه الأول تجميع من الفنون البيزنطية والايرانية والعربية ، تولد منها الفن الإفريقي البحت ، فالقلعة بيزنطية والصومعة المستديرة ايرانية والتأليف العام عربي يحاكي جامع الكوفة . ثم جاء الاغالبة وبنوا المحراب الثاني والقبة ومقصورة الامير وبيت الصلاة ومجنبات الصحن بعمار أغلبي مغربي فيه الكوفي الأغلبي البارز البسيط والقبة المحكمة والزليج (القاشاني) الذي جلبه من بغداد اسماعيل الطلاء القيرواني ، ورؤوس الأعمدة المزخرفة بعرائش الكروم المفرعة والكتابة بالطومار على طول أعالي جدار الصحن .

ونجد الفن الفاطمي في المجنبة الجنوبية وقبتها التي تحاكي قبة المدخل من جامع عبد الله المهدي بالمهدية . وكذلك تيجان الأعمدة الفاطمية التي زخرفت بصور مجسمة في كل ركن من أركان تاج العمود الأربعة . ونجد الفن الصنهاجي في زخرفة الأعمدة والتيجان التي نقشت أبدع نقش وزخرفت بالكوفي المزهر أبدع زخرفة . ونجد الفن الموحد في الكوفي المربع وأبواب المدخل الشمالي لبيت الصلاة وصحن الجنائز والمكتبة العبدلية القديمة وخزانات الماء ، ثم نجد الفن الأندلسي في زخرف المحراب والأقسام السفلى

من القبة بالخط الكوفي الأندلسي الرائع ... أما الفن التركي فنجده في أبواب دار الإمام وأقواس صحن الجنائز والخطوط المحشورة بالرصاص الأسود .

وبالجملة ، الزيتونة مركب إسلامي جامع[1].

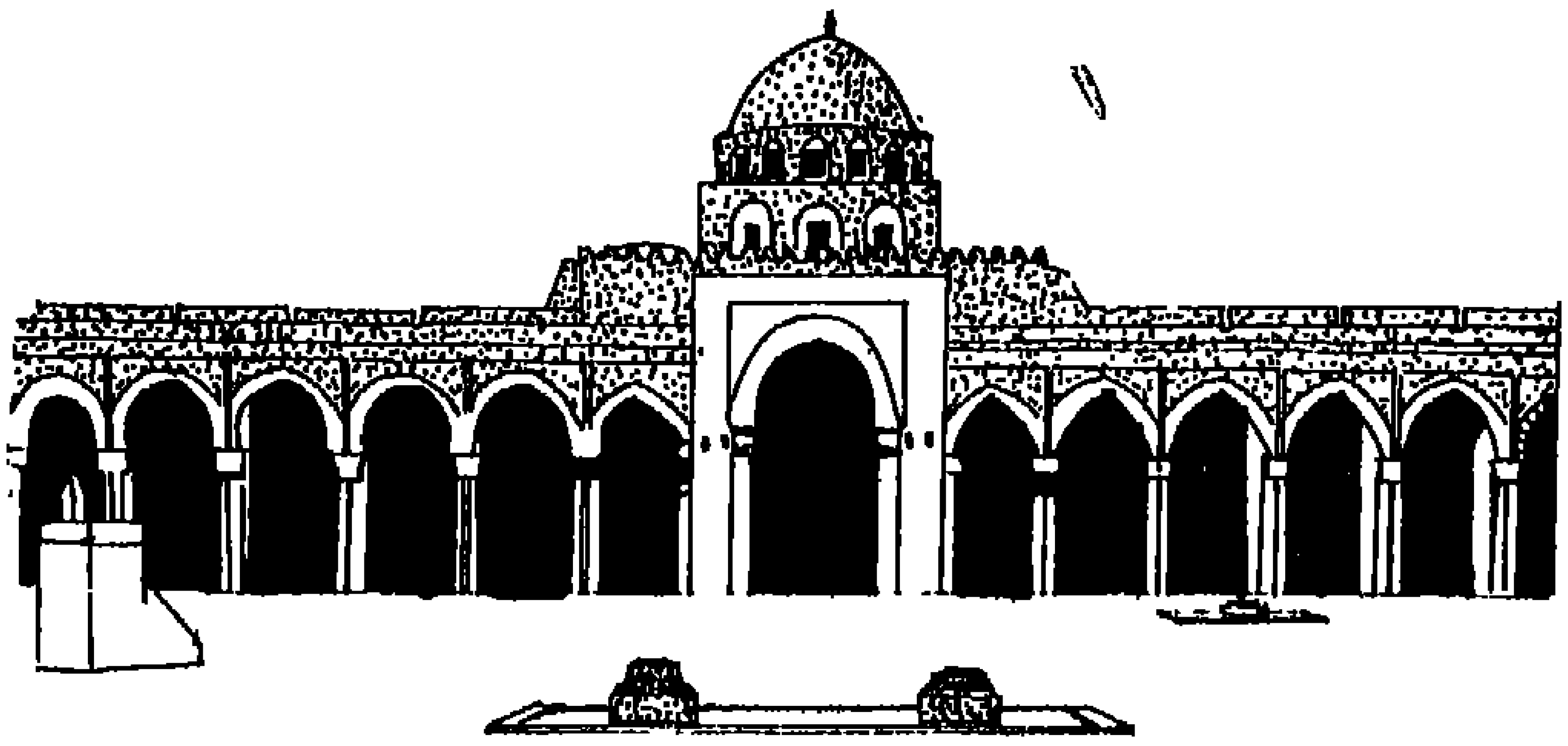

شكل — ٢٧ —
المسجد الجامع في القيروان

٥ — مسجد قرطبة : وقد بناه عبد الرحمن الداخل قبل وفاته بعامين في سنة ٧٨٦ هـ وأراد أن يضاهي مساجد الشرق سعة وعمراناً وعظمة ، وبني على مثال المسجد النبوي الذي بناه الوليد بن عبد الملك في المدينة المنورة ، ويمتاز بكثير أعمدته الرومانية وأقواسه على شكل نعل الفرس ، وكثير منها مزدوج ، يعلو بعضها فوق بعض . وواجهة القبلة من الداخل مزينة بالفسيفساء الدقيقة ، يخالطها قطع صغيرة صدفية وذهبية ، وصورت بشكل أن الناظر اليها من ناحية اليمين يرى مناظر غير المناظر التي يراها من ناحية اليسار وذلك بانعكاس الضوء فيها . وفي دائرة القبلة والمحراب آيات قرآنية بالكتابة الكوفية ، وعن يمين القبلة ويسارها بابان لغرفتين صغيرتين إحداهما لتعبد الإمام والثانية لوضع لوازم المنبر ، أما

(١) عثمان الكعاك . العربي ١١٨

المحراب فواسع من داخله وتعلوه قطعة واحدة من الرخام تكوّن سقفه ، كل ذلك باق إلى اليوم ، إذ تحول الجامع في سنة ١٢٣٦ م إلى كاتدرائية مسيحية باسم « لاموثكيتا » تحريفاً للفظة المسجد .

٦ ـ مسجد سامراء : وقد بني من الآجر ، واستخدمت فيه دعائم من الآجر لحمل القناطر عوضاً عن الأعمدة الرخامية ، كما يمتاز بالمئذنة الباقية حتى اليوم ، وهي مئذنة مرتفعة ، مبنية من الآجر ، ويصعد اليها بدرج حلزوني .

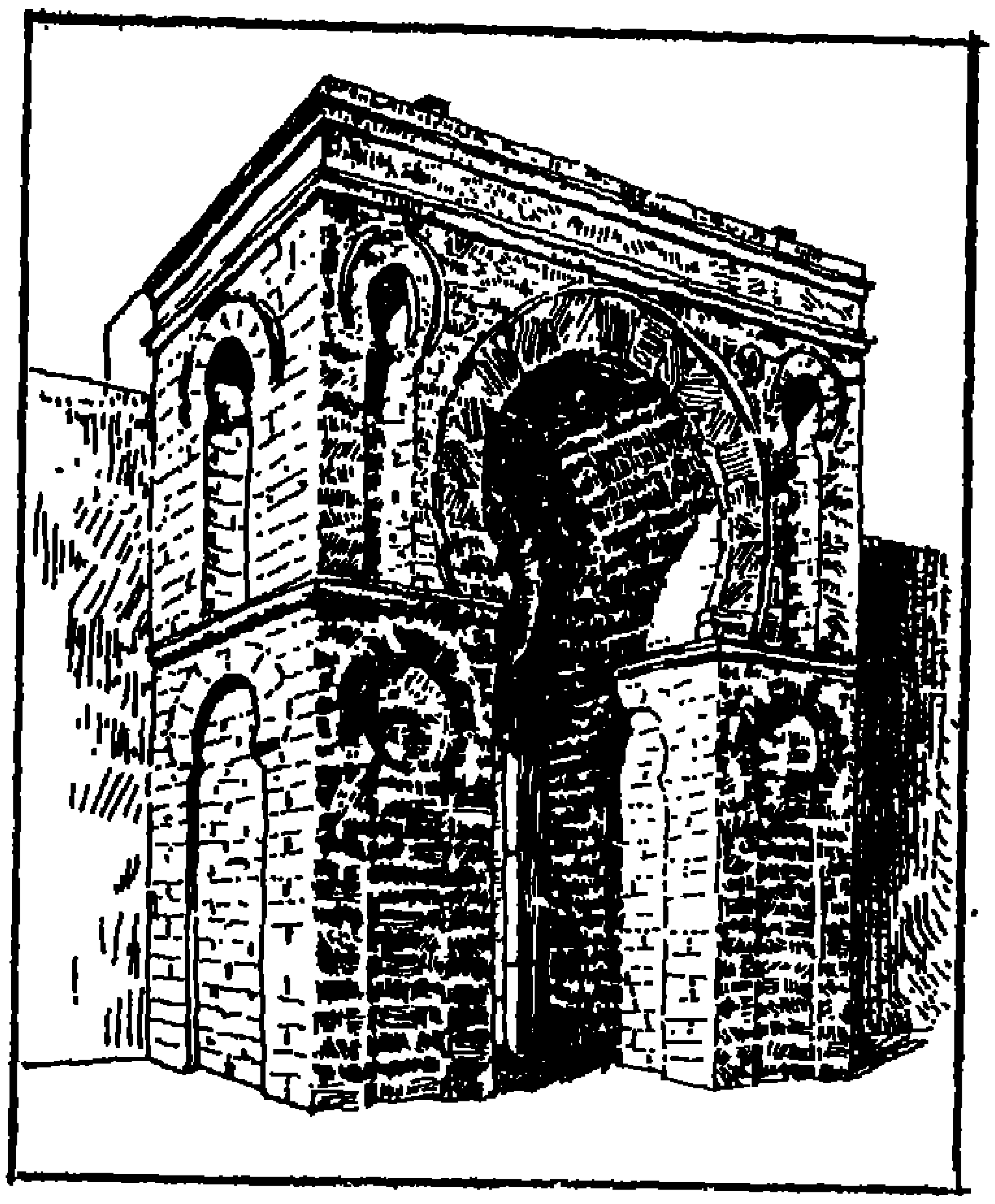

شكل ـ ٢٨ ـ
مدخل الجامع الكبير في المهدية

٧ ـ جامع ابن طولون : وبناه احمد بن طولون على مثال مسجد سامراء سنة (٢٦٣ ـ ٢٦٥) فبنى فيه مئذنة ملوية ، وكسا الآجر بطبقة من الجص وزينه بكثير من الكتابات إما بالجص والآجر او حفرها في الخشب

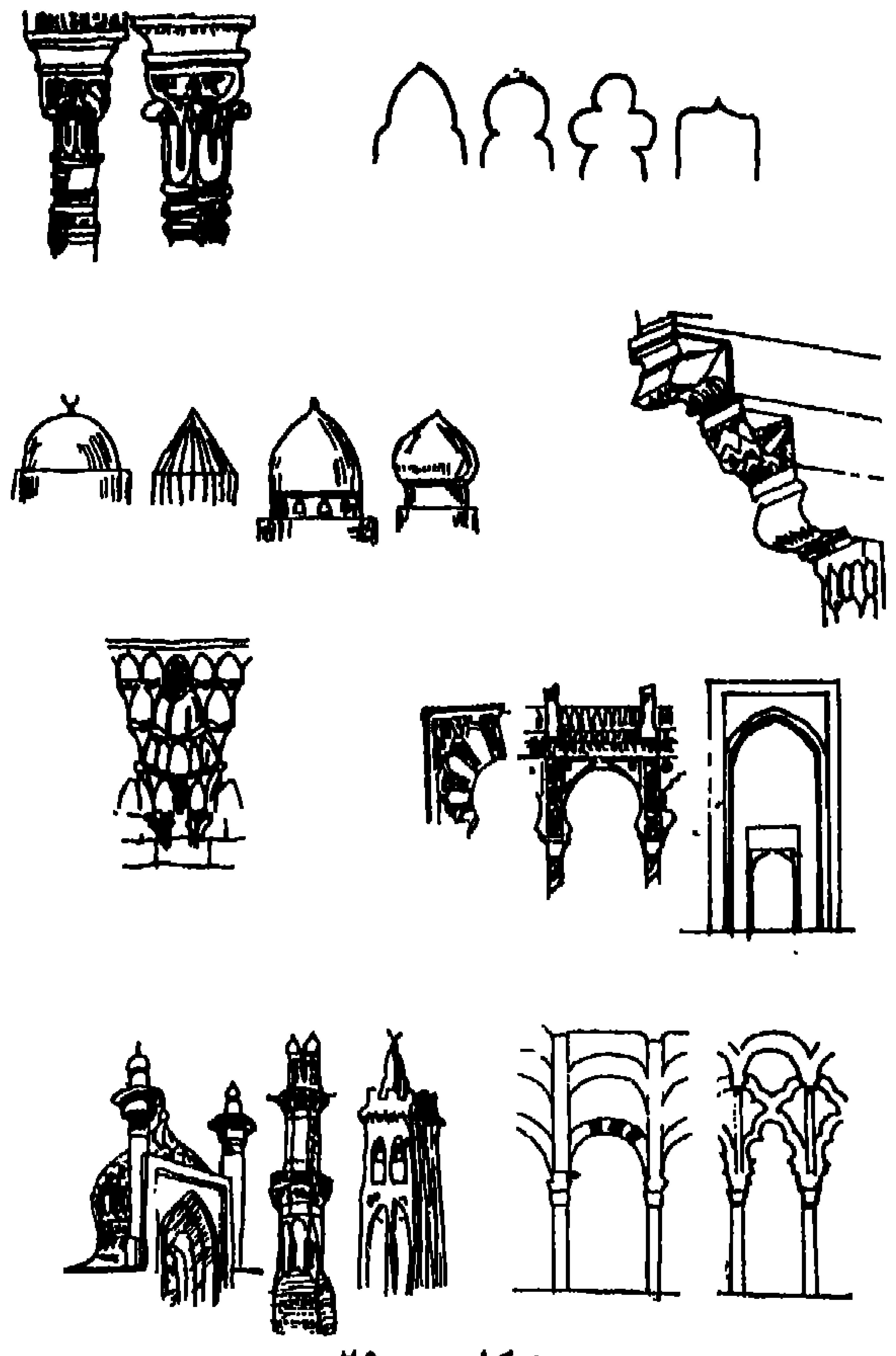

شكل — ٢٩ —
مجموعة أقواس وقباب ومآذن ومقرنصات ، تمثل الطرز
الاسلامية من فن الريازة والعمران الديني

وعني بأن يكون بنيانه قوياً — وقد بقي حتى اليوم — ليتخذه إلى جانب الصلاة ، معقلاً له إذا تهدده خطر خارجي أو داخلي ، وليكون مدرسة دينية ، ودارآ للحكومة ، إذ كان يصدر منه اوامر الدولة ، كما كانت تعقد فيه المحاكم ، ووضع في الجامع خزانة ملآى بالأدوية والاشربة التي يحتاج اليها المصلون والمرضى ، وعين له طبيباً يقوم بالاشراف على الحالة الصحية ويداوي خاصة ما قد يطرأ على المصلين يوم الجمعة ، فكان بمثابة

شكل — ٣٠ —

نقش على الرخام في مدينة المهدية في تونس (محفوظ في متحف باردو)

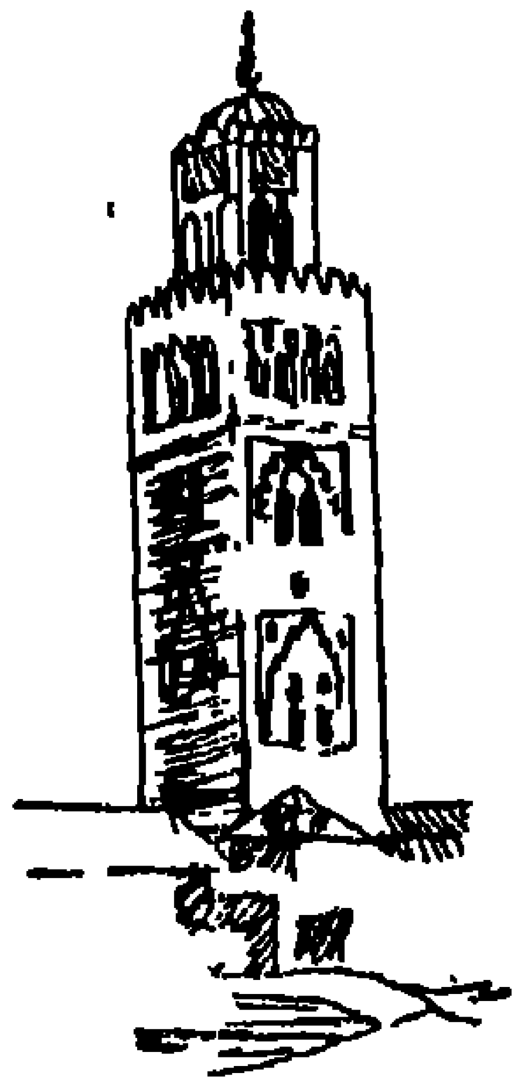

شكل — ٣١ —

نموذج من مآذن المغرب الاقصى في مدينة مراكش (القرن الثاني عشر)

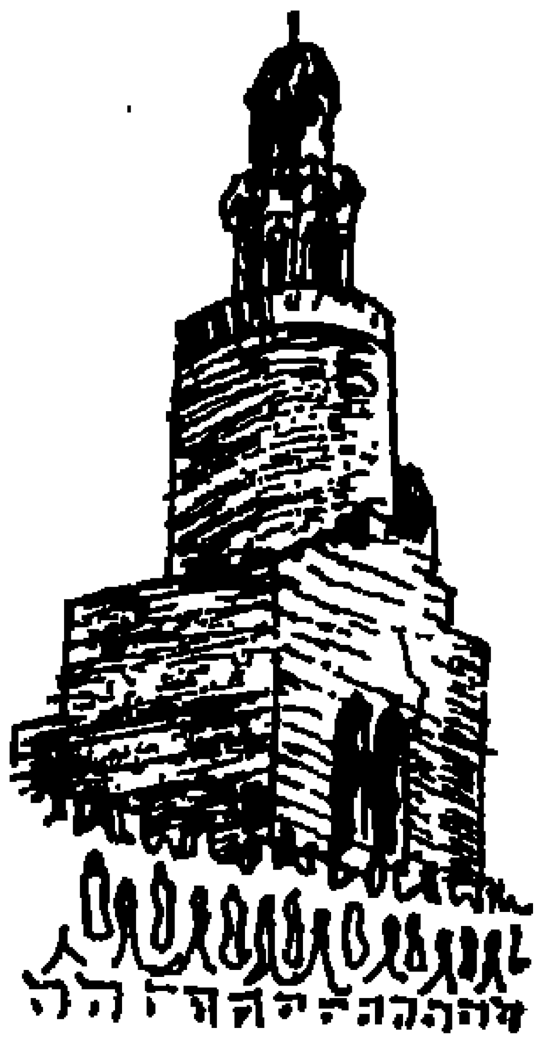

شكل — ٣٢ —

نموذج من مآذن القاهرة في (القرن التاسع)

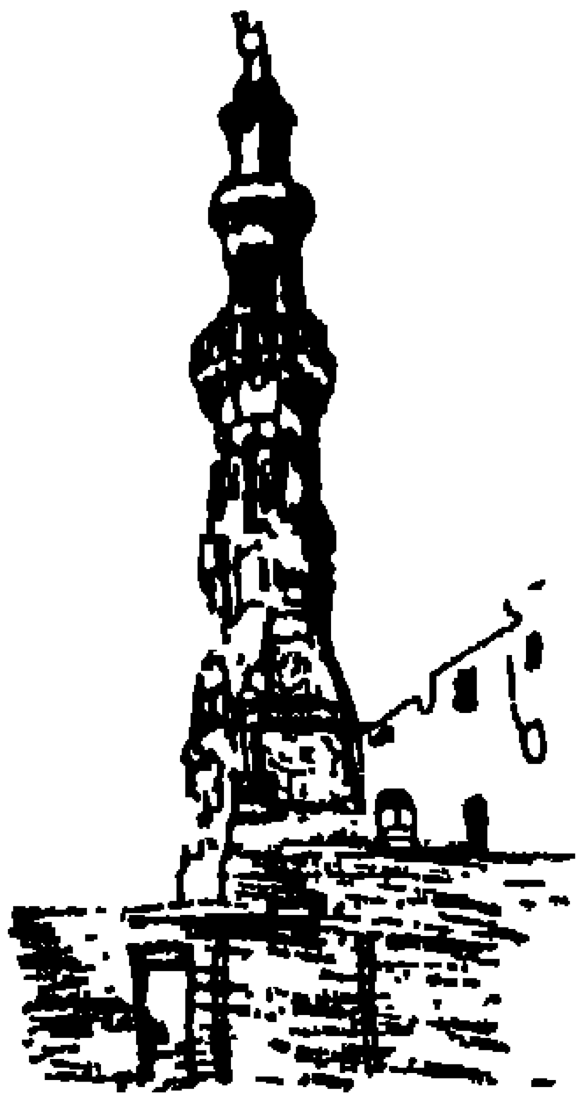

شكل — ٣٣ —

مئذنة أحد مساجد القاهرة (القرن الخامس عشر)

طبيب الاسعاف ، وصيدلية الاسعاف ، وهكذا نرى ان مسجد ابن طولون بني ليكون جامعاً للصلاة ، وقلعة محصنة ، ومحكمة ، ومستشفى ، فلا عجب ان بذل ابن طولون كثيراً من العناية به .

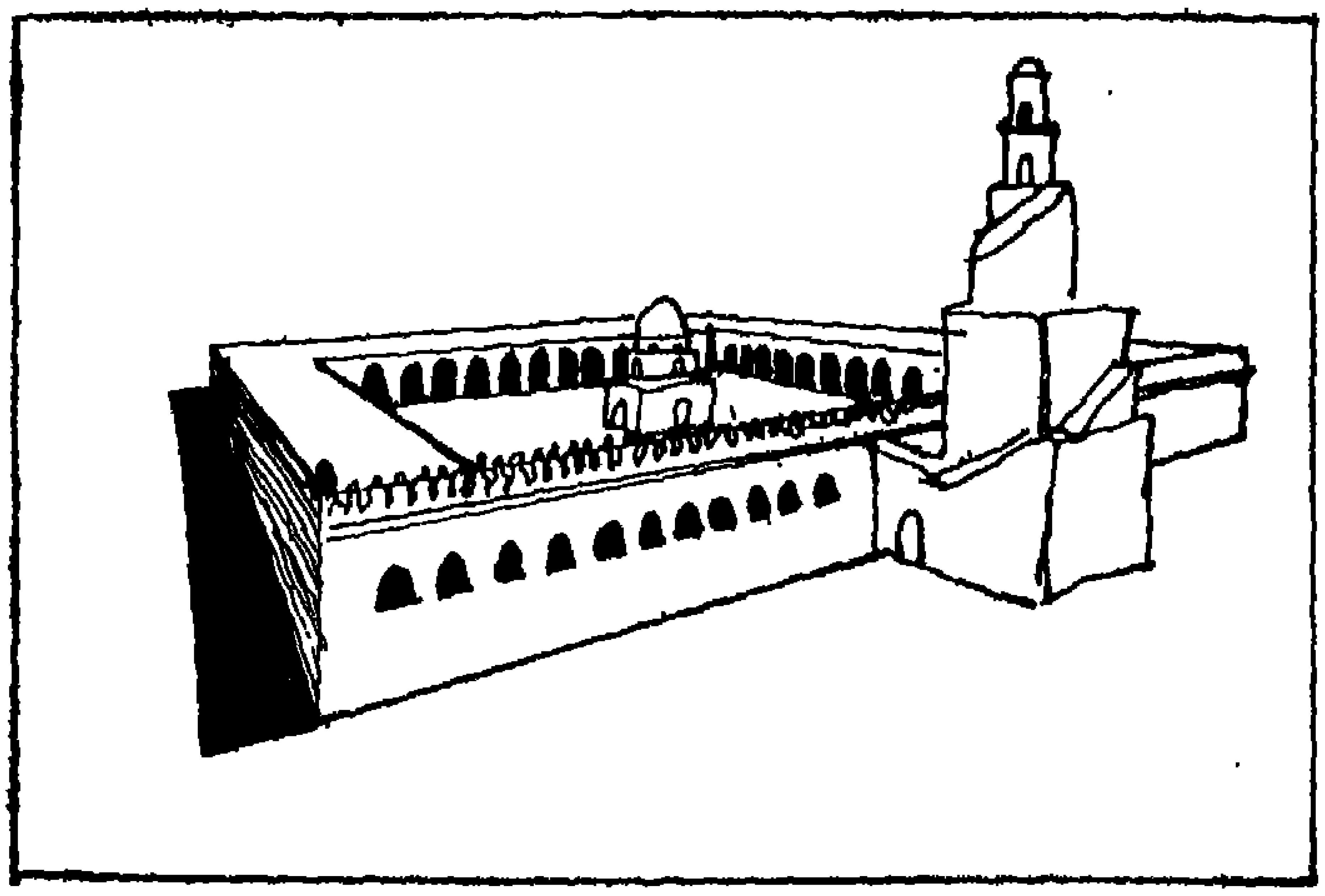

شكل — ٣٤ —

جامع ابن طولون كما كان في عهد بنائه الاول ، وتشاهد المأذنة المصرية الشبيهة بمئذنة سامراء وهي اقتباس من نظام بناء الابراج (الزقورات) البابلية في العصور القديمة

45 Mosque of Ibn Tulun

شكل — ٣٥ —

من بقايا مسجد ابن طولون في القاهرة

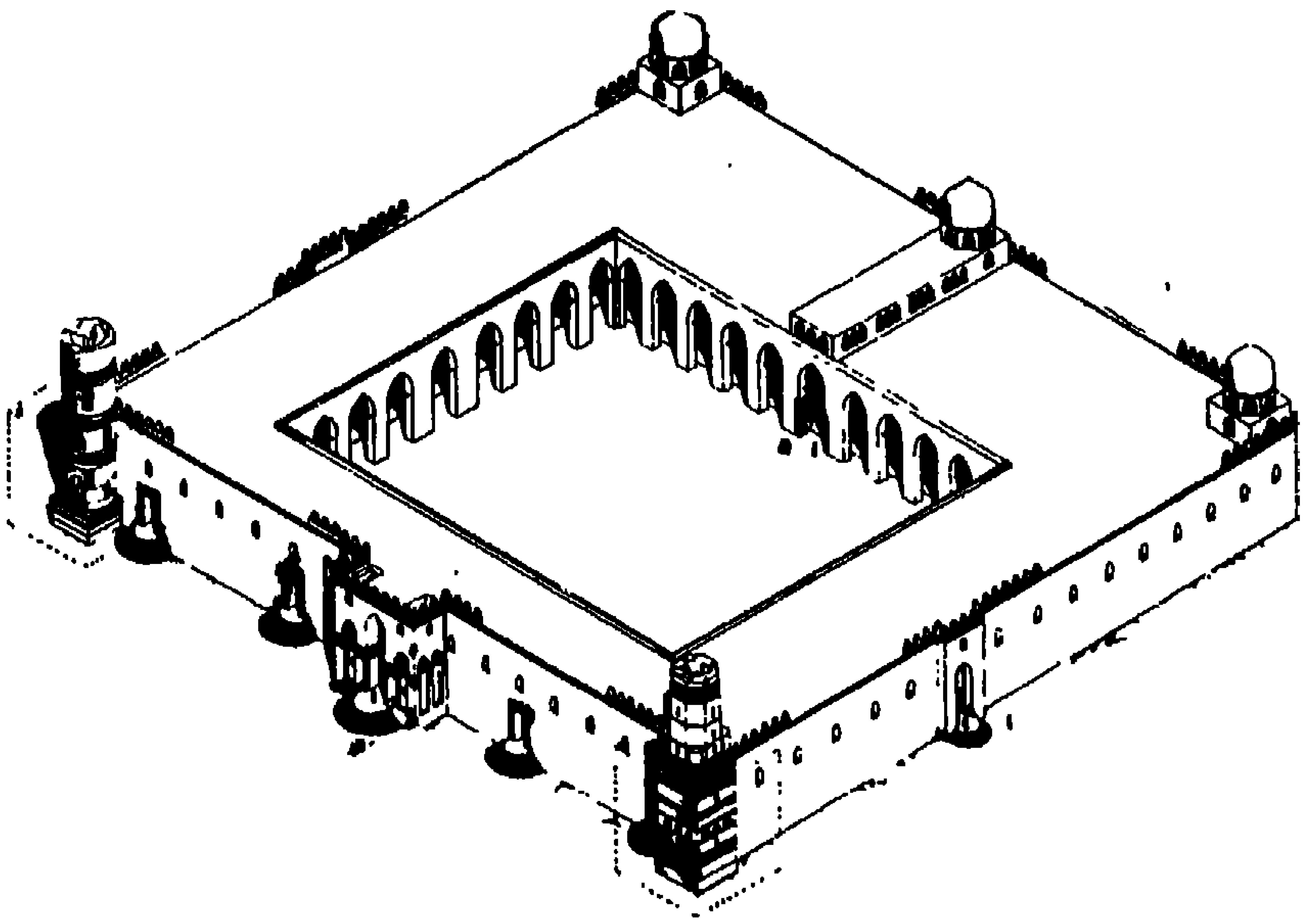

شكل — ٣٦ —
جامع الحاكم في القاهرة وهو نموذج لتطور فن بناء المساجد في العهد الفاطمي

ومنارة هذا المسجد تمتاز بسلم من الخارج بأربع جوانب ، يصعد منها إلى سطح ، فسلم حلزوني نصف دائري يوصل إلى سطح آخر يرتكز عليه الجزء العلوي وهو على هيئة مبخرة وهي المنارة الوحيدة في مصر ذات السلم الخارجي وهي تشبه منارة سامراء .

٨ — مساجد الفاطميين :

الجامع الازهر : نموذج من فن بناء المساجد في عصر الفاطميين ، بناه القائد جوهر الصقلي باسم الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، وتمت عمارته سنة (٣٦١ هـ — ٩٧٢ م) . وقد ادخلت عليه عدة زيادات حتى تضاعفت مساحته واصبح اليوم بشكله الحالي . معرضاً لفن العمارة الاسلامية الدينية في مصر منذ العصر الفاطمي حتى حكم اسرة محمد علي . إذ لم تمض اربع

سنوات على انشائه حتى امر الخليفة الفاطمي العزيز بالله باصلاح ما كان من عمارته يتطلب الاصلاح والتجديد ، ثم جدد الحاكم بامر الله مئذنتـه سنة (٤٠٠ هـ — ١٠٠٩ م) وكذلك ادخل المستنصر عليه بعض الاصلاحات . وفي عهد المماليك ، جدد عمارته الظاهر بيبرس ، فعمر الواهي من اركانه وبيضه واصلح سقوفه وبلطه وفرشه وكساه ، واستجد بـه مقصورة ، واعاد اليه خطبة الجمعة ، وصلاة الجمعة ، بعد ان كان صلاح الدين الايوبي قد امر بأن تبطلا فيه والاكتفاء بصلاة الجمعة في الجامع الحاكمي ..

ثم اضيف إلى الازهر مدرستان في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي . ثم مدرسة ثالثة في القرن التالي ... وفي العهـد العثماني اضاف الامير عبد الرحمن كتخدا (سنة ١١٦٧ هـ — ١٧٥٣ م) اقساماً هامة إلى بنيانه وتخطيطه وكذلك فعل ولاة مصر من اسرة محمد علي .

ومع كل هذه التعديلات ، فان الازهر لا يزال يحتفظ بأجزاء هامة من عناصره المعمارية الاصلية ، وقد بنيت جدرانه من الآجر ، وكذلك عقوده وقبابه ودعامته . وجميع أعمدته وتيجانها جلبت من آثار قديمـة سابقة ، وليس لبناته الاوائل فضل في صياغتها ، وإنما اقتصر فضلهم على تنسيق هذه الاعمدة القصيرة فوق الاسس واعدادها لحمل العقود ، ورفعها إلى اقصى علو استطاعت ان تتحمله .

ومن الزخارف المتبقية من البناء الاصلي اللوحات التي تحف بالنوافـذ اذ كانت النوافذ محشوة بستائر جصية مخرمة قوام بعضها حلقات هندسية متشابكة ، وقوام بعضهـا الآخر أوراق نباتيـة متجانسة شبيهـة بأنصاف المراوح النخيلية .

وكان يدور حول اللوحات والنوافذ اطار متصل يربط بينها جميعاً نقشت عليها كتابة كوفية من آيات الكتاب المبين .

وإذا كان الأزهر نموذجاً لفن بناء الجوامع في العصر الفاطمي بمصر ، فان مساجد الفاطميين عامة احتفظت بنظم المساجد الجامعة الأولى وكان لها ، مثلها ، بيوت مسقوفة للصلاة ، تمتـد موازية لجدار القبلة ، وتنقسم إلى بلاطات ، ومنها ابهاء مكشوفة ، وتحيط بها مجنبات من رواق أو أكثر ، ومساحاتهـا أصغر من مساحات المساجد السابقة ، فمساحة الأزهر نصف مساحة مسجد عمرو ، وكذلك مساحات الجوامع الفاطمية الأولى كمسجد الجيوشي والأقمر والسيدة رقية في القاهرة . كما اضيفت لهذه المساجد قاعات فيها أضرحة .

٩ ـ **مساجد العصر المملوكي في الشام ومصر :** لم يعتبر المهندسون والفنانون العصر المملوكي في الشام ومصر ، عصراً ذهبياً لتاريخ العمارة الاسلامية ، عن عبث ، وانما لكثرة وتنوع العمائر التي ظهرت في هذه الفترة ، من مساجد ومدارس وأضرحة وحمامات وأسبلة وخانات ، لم يحتفظ فيها بالأساليب المعمارية المتوارثة ، بل أضيف عليها كثير من التحسين والتوسيع والاتقان والاناقة وخاصة في الواجهات والمنارات والقباب وفي الزخارف الجصية والرخامية . فمن ذلك مثلاً العناية بواجهات المساجد ، وتحويل صناعة المحراب من الجص أو الخشب في العهد الفاطمي إلى الرخام الذي أصبح الخامة الأساسية في البناء والزخرفة ، وأخذ الرخام الملون يلعب دوره في تغشية الجدران كما اخذت أشغال النجارة الدقيقة ، وعمل الخراطة والتطعيم بالصدف والعاج والابنوس تغشى المنابر والأبواب والشبابيك ،

وظهرت السقوف مموهة بالذهب بدرجة رفيعة من الاتقاق والتناسق والجمال. ومن مساجد هذه الفترة :

مسجد الظاهر بيبرس في القاهرة : شيد بين عامي ٦٦٥ هـ ٦٦٧ سنة ١٢٦٦ و ١٢٦٩ م . وشكله مربع تقريباً ، وقوام تصميمه صحن يحيط به أربعة ايوانات أكبرهـا ايوان القبلة الذي يتكون من ستة أروقة ، وواجهته بنيت بالحجر . أماالداخل فبناؤه جميعه من الآجر . وفيه ٢٧ نافذة بعقد مدببة كانت مزخرفة بزخارف جصية .

مسجد المنصور قلاوون : شيد عام ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م وقوام تصميمه صحن تحيط به أربعة ايوانات كمسجد بيبرس أكبرها ايوان القبلة أيضاً وأمام المحراب قبة كبيرة محمولة على عمد من الغرانيت الاحمر .

مسجد السلطان حسن : ويعد أجمل العمائر المملوكية في مصر والشام ويقوم في سفح قلعة الجبل بمدينة القاهرة ، تم تشييده خلال سبعة أعوام ٧٥٧ — ٧٦٤ هـ / ١٣٥٦ — ١٣٦٣ م . واجمل ما في هذا المسجد قبو ايوانه الشرقي الذي يعد من معجزات البناء في الفن الاسلامي ، اذ تبلغ فتحته ١٩،٢٠ متراً يحيط به من الداخل افريز جصي مكتوب فيه بالخط الكوفي آيات من سورة الفتح ، وهو طراز من الكتابة لانظير له ، وجدران هذا الايوان مستورة بالرخام وعقد الايوان بني بالآجر ماعدا بدايته فانها بالحجر . وفي هذا الايوان دكة من الرخام الدقيق الصنع . وارتفاع قبته الكلي نحو ٥٠ متراً وهي مؤزرة بالرخام الفاخر ، وبها طراز خشبي منقوش ومذهب ، وكانت القبة من الخشب ومغلفة بالرصاص وغطاؤها الحالي جديد الصنع .

ويمتاز هذا الجامع بنسبه الضخمة وايواناته العالية ومدخله الضخم الغني بالزخارف ومئذنتيه العاليتين وجدرانه الضخمة لما فيها من تجاويف عمودية تزيد من ارتفاع البناء ، والكورنيش الفاخر الذي يعلو الجدران فيتوجها ويزيد من وحدة البناء كله .

وشيدت في زوايا الجامع مدارس يوصل إليها باب في كل زاوية من زوايا الصحن ، الحقت بها مساكن للطلبة ، وقد أراد السلطان حسن أن تدرس فيها المذاهب الاربعة .

١٠ ـ مساجد العصر السلجوقي : ظهر أثر السلاجقة في العراق وايران وآسيا الصغرى والشام ، وهم رغم انتمائهم إلى قبائل تركية واعتمادهم على ابناء المناطق التي سيطروا عليها سياسياً ، رعوا الفنون المعمارية ، وظهرت في عهدهم مساجد وعمائر ذات طراز خاص متميز بالضخامة والمظهر القوي ، وقد تأثروا في بنائها بما ظهر من أساليب معمارية في الهند على يد محمود الغزنوي والدولة الغزنوية . . . وأكثر الابنية السلجوقية مجموعات تضم : المسجد ، المدرسة ، الضريح ، ولقد طغى اسم المدرسة أحياناً على اسم المسجد كالمدرسة المستنصرية في بغداد مثلاً المنسوبة إلى الخليفة المستنصر ، والتي خصصت لتدريس المذاهب الأربعة . فكان لكل مذهب أيوان خاص فيه المسجد وموضع التدريس . وفي داخل المدرسة حمام للطلبة ودار للوضوء . وهكذا اختلط بناء المدرسة مع بناء المسجد . وجمعت ايران بشكل خاص بين تصميم المدرسة ذات الصحن المستطيل وبين استخدام القباب في المساجد ، وصار الصحن في المساجد الجديدة يختلف كثيراً عن فناء المدرسة . ومن أشهر مساجد ايران في هذه الحقبة ، مسجد الجمعة في مدينة اصفهان

الذي بني في عهد السلطان السلجوقي الكبير أبو الفتح مكلشاه . اما عمائر الجزيرة الفراتية والعراق فتميزت بايوانات واعمدة واكتاف ، منها الجامع النوري في الموصل الذي أمر بتشييده نور الدين محمود زنكي ، اتابك الموصل ، وكان قوام هذا الجامع صحناً تحيط به ايوانات ولا يزال أحدها قائماً مع المنارة المعروفة باسم الحدباء ويزيد ارتفاعها على ٥٠ متراً . وهي غنية جداً بالزخارف الهندسية المؤلفة من اختلاف وضع الآجر وأكثر مساجد السلاجقة في بلاد الشام امتازت بتزيين جدار القبلة منها بزخارف من الحجر جميلة ودقيقة الصنع ...

وقد اتسع في هذا العصر نطاق استعمال الفسيفساء الخزفية والقاشاني في تزيين الجدران ، وعملت محاريب خزفيـــة مسطحة ذات رسوم تمثل محراباً يحف به عمودان بارزان . واستعملت الكتابة الكوفيـة المزهرة ، وتطور الخط النسخي تطوراً كبيراً وبخاصة في القرن الثاني عشر الميلادي .

١١ ــ مساجد العصر المغولي في ايران : بعد أن قضى هولاكو زعيم التتر على بغداد ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقتل الخليفة المستعصم ، اعتنق اتباعه الاسلام واسسوا الاسرة الايلياخية في ايران حكمت قرابة قرن من الزمان ، وقد تأثروا بالثقافة الصينية والايرانية القديمة فتطورت ابنيتهم نحو الرشاقة ، وهم وان احتفظوا بطابع الفن المعماري السلجوقي المتمثل في مسجد الجمعة في اصفهان ، إلا أنهم أشبعوها بالأساليب الفنية الصينية ، من ذلك مسجد فرامين وجامع جوهر شاد بمدينة مشهد والمسجد الجامع بمدينة يزد .

وجامع فرامين بني عام ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م وهو مرحلة جديدة للوصول إلى التصميم الايراني البحت في تصميم المساجد ، ويقوم تخطيطه المستطيل على

صحن حوله أربعة ايوانات متعامدة ، ويغطي الايوان الرئيسي قبة ، ويحف بالايوانات اروقة محمولة على اكتاف ومغطاة بطريقة الاقباء .

وفي عصر تيمورلنك وما بعده شاع بناء المساجد التي تعلوها قبة ضخمة ويؤدي إليها مدخل عال يلفت النظر بعظمته وفخامته ، مثل مسجد كليان في بخارى بما فيه من ايوان ضخم في الجبهة ومئذنة اسطوانية تبعث الرهبة في النفوس .

وابدع مساجد هذه الفترة الجامع الازرق في تبريز الذي شيد في منتصف القرن التاسع الهجري (ق ١٥) ، وكان في وسطه قاعة كبرى عليها قبة وحولها قاعات اصغر حجماً وعلى كل منها قبة اقل ارتفاعاً . وفي أحد الجوانب ضريح ذو قبة عالية .

وفسيفساء هذا المسجد الخزفية غاية في الابداع والجمال . وتمتاز بلونها الازرق الناصع والازرق الادكن ، والاسمر والاخضر الادكن .

وزخارف العصر المغولي الايراني وصلت إلى حد الابداع بقوالب الآجر وفسيفساء القرميد ، كما في الجامع الازرق المذكور ، واصبحت الزخرفة بالآجر غير المطلي بالدهان المتقنة من خصائص هذا العصر . كذلك استعمال الجص في صنع النقوش في محاريب المساجد (واستعمل الجص في نقوش آدمية وحيوانية بارزة في زخرفة القصور) والاكثار من المقرنصات بما يذكرنا بمقرنصات الطراز الاندلسي والمغربي كما في قصر الحمراء . وانشأ التيموريون عدداً من المدارس ، مع المساجد ، ومنفصلة عنها ، منها مدرسة سمرقند التي شيدها تيمورلنك ٨٠٣ هـ / ١٣٩٩ م .

١٢ ـ **مساجد العصر الصفوي** : اتخذ الصفويون الذين تأسست دولتهم عام ٩٠٧ هـ/ ١٥٠٢ م مدينة تبريز الايرانية عاصمة لهم ، ثم نقلت العاصمة، بعد ذلك إلى مدينة اصفهان . وقد حاول الصفويون بعث الحضارة الايرانية القديمة ، ومحاكاة الأساليب الفنية الايرانية في منشآتهم العمرانيـــة ومنها المساجد وما يلحق بها من أضرحة أو مدارس . وأشهر المساجـد الصفوية ، جامع وضريح الشيخ صفي الدين في مدينة اربيل ، وهذا الشيخ هو الولي الذي ينتسب إليه الصفويون لذلك عمدوا إلى جعله من الضخامـة والجمـال والغنى ما ينافس به بقية المساجد والأضرحة في المنـاطق الأخرى ، حتى انهم اضطروا بعد وقت من اقامة بناء خاص ملحق يعرف بقصر البورسلين أو الصيني « شيني خانة » لحفظ مجموعة الخزف الخاصة بالضريح .

ويعتبر مسجد الشاه في اصفهان التحفة المعمارية الثانية للصفويين .

وجميع المساجد والاضرحة الصفوية محلاة بالفسيفساء الخزفيـــة ذات الألوان الجميلة ورسوم الزهور والفروع النباتية البديعة ومنقوشة بالزخارف الجصية الملونة مما اكسبها طابعها الخاص ، تجلى فيه ذوق الايرانيين الفني ، ومهارتهم في منح ألوانهم الهادئة سحراً وجاذبية ...

وانتشر الطراز الصفوي ، خارج ايران ، فيما انشأ الصفويون أو ما انشيء من مساجد شيعية في المناطق التي وصل إليها نفوذهم ، وخاصة في العراق كمساجد واضرحـة النجف وكربلاء وسامراء ومثالها البـارز في بناء « مشهد الكاظمين » في بغداد .

١٣ ـ **مساجد العصر الهندي المغولي** : بعد أن نشر الغزنويون الطراز المعماري السلجوقي فيما فتحوه من الهند ، مرّ على المناطق الاسلامية عهـد من الجمود ، إلى أن أقام الامبراطور بابر حفيد تيمورلنك في دهلي امبراطورية

اسلامية مغولية ٩٣٣ - ١٢٧٥ هـ/ ١٥٢٦ - ١٨٥٧ م وشيدت في هذا العهد كثير من المساجد ، جمعت بين الأساليب الهندية القديمة وطبيعة العبادة في المساجد الاسلامية ، واقتبست بعض الطرز الايرانية المعمارية ، فجاءت نسجاً جديداً نسجه بحق طراز البناء الهندي الاسلامي .

ومن أشهر مساجد الهند في هذا العصر الجامع الكبير في بيجابور الذي شيد في منتصف القرن العاشر الهجري /١٦ م ، ومسجد الجمعة في دلهي الذي شيده شاه جيهان ...

ومساجد الهند تمتاز بمداخل كبيرة تبدو كأنها أبنية قائمة بذاتها ومنارات عالية وقباب بصلية .

وتلحق الأضرحة بالمساجد ، ولعل ضريح « تاج محل » أشهر ضريح ، لا في الاسلام ، بل في جميع العصور ، وهو الذي أقامه الامبراطور شاه جيهان لزوجته ممتاز محل بين عامي ١٠٣٩ - ١٠٥٨ هـ/ ١٦٣٠ - ١٦٤٨ م في مدينة أجرا العاصمة آنذاك على ضفة نهر جمنا . وهو عبارة عن مبنى مغطى بقبة بصلية عالية حولها أربع قباب أصغر منها ويحيط بالمبنى أربع منارات رشيقة كالحراس الامناء ، وتتقدمه حديقة كبيرة ، والمبنى مغشى بالمرمر الناصع البياض وسط الحدائق والمباني المجاورة المشيدة من الحجر الرملي الأحمر ، ونسب هذا البناء تتكامل مع فتحاته ، وبما تحدثه من ظلال وأضواء تكاملا عجباً ، تجعله درة في جبين العمارة الاسلامية في الهند .

١٤ - **مساجد العثمانيين** : قبل انتقال العثمانيين إلى استانبول وإتخاذها عاصمة ، اعتمدوا الطراز السلجوقي ، لا في المساجد فحسب بل في جميع عمائرهم ، وبعد فتح القسطنطينية ، تأثروا بالبناء البيزنطي المتمثل في آياصوفيا التي حولوها إلى مسجد .

وأول مسجد تأثرت هندسته بها ، مسجد المحمدية أو مسجد محمد الفاتح (٨٦٧ – ٨٧٣ هـ / ١٤٦٣ – ١٤٦٩ م) الذي نقل عن آياصوفيا نظام القبة وانصاف القبة .

ويعد العصر الذهبي لبناء المساجد العثمانية ، ما بني من تصميم واشراف المهندس التركي المسلم سنان الذي صمم خريطة ١٣٥ حماماً تركياً وأشرف على بنائها وأكثر من هذا العدد لخرائط المساجد . وأبدع منشآته جامع السليمانية في استانبول الذي دفن بجواره ويتكون من صحن سماوي تحيط به بوائك تغطيها قباب صغيرة . وتغطي الحرم قبة كبيرة تحيط بها أربعة انصاف قباب . وتقوم في جوانب المسجد مآذن طويلة ذات قمم مخروطية .

وقد نسج المهندسون العثمانيون على منوال سنان بعد وفاته لذلك عدّ إمام المدرسة العثمانية المعمارية في المساجد سواء في آسيا الصغرى أم في مصر والشام في العهد العثماني .

وأشهر المساجد العثمانية :

مسجد السليمية في أدرنة : بناه سنان ، وأظهر أقصى عبقريته في اقامة القبة الضخمة على ثمانية اكتاف كبيرة ، وفي الاكثار من النوافذ والفتحات تخفف من ضغط البناء .

جامع السلطان أحمد في استانبول (١٠١٨ – ١٠٢٥ هـ/١٦٠٩–١٦١٦ م) : بناه محمد آغا ثاني مهندس العصر العثماني بعد سنان ويقع جنوبي آياصوفيا . وجعلت قبته أعظم من قبة آيا صوفيا .

جامع سنان باشا المعروف بالسنانية في دمشق : ويتميز بمئذنته المكسوة

بالزخرف الزنجاري ، وبحرمه الجميـل الغني بألواح الرخام المجزع والألواح القاشانية .

جامع درويش باشا (الدرويشية) : وهو أغنى مساجد العثمانيين في سورية بالواحه القاشانية التي تعتبر أجمل وأروع وأرشق ما صنعه الفنانون الشاميون .

جامع العادلية وجامع الخسروية في حلب : وفيها كثير من ألواح القاشاني الجميلة .

مساجد : سليمان باشا بالقلعة ، مسجد الملكة صفية ، مسجد محمد أبو الذهب ، ومسجد محمد علي بالقلعة وكلها في القاهرة .

ويمكن أن نلحق بالحديث عن المساجد العثمانية ، مجموعـة العمارات التي ظهرت ، وتشبه من حيث تنوعها ، وتنوع الافادة عنها : **الزوايا** المقامة في شمال أفريقيا ، وتضم مسجـداً ، وحجرات للدراويش وغرف للطلاب ، ومطاعم للحجاج والطلاب والمحتاجين ، وقاعات للدراسة ، تلحق بها مساحات من الحدائق والبساتين ، وتسقى بعدد من البحرات والنافورات ... الخ . وخير مثال على ذلك التكية السليمانية في دمشق ، وفيها جامع قبته ومئذنتاه من الطراز العثماني الاستانبولي ، وبابه ومحرابه واروقته من الاسلوب العربي . . . وتلحق بهـا غرف مسقوفـة بقباب صغيرة تتناسب وحجمها . . .

المآذن : ذكرنا ان المآذن اتخذت لاول مرة في دمشق عقب دخول المسلمين اليها ، حين اذن المسلمون للصلاة على ابراج المعبد الوثني القديم ، ثم صنعوا مثلها في بناء مساجدهم . واطلق على المئذنة اسم « منارة » تشبيهاً لها ببناء المنائر على سواحل البحر ، وسميت بالمغرب الصومعة وتنطق « الصمعة » جمعهـا « صمع » وكانت المآذن الاموية مربعة ، كمآذن المسجد الاموي بدمشق ، واستمر هذا الطراز المعماري خلال العصر الاموي في شرق او

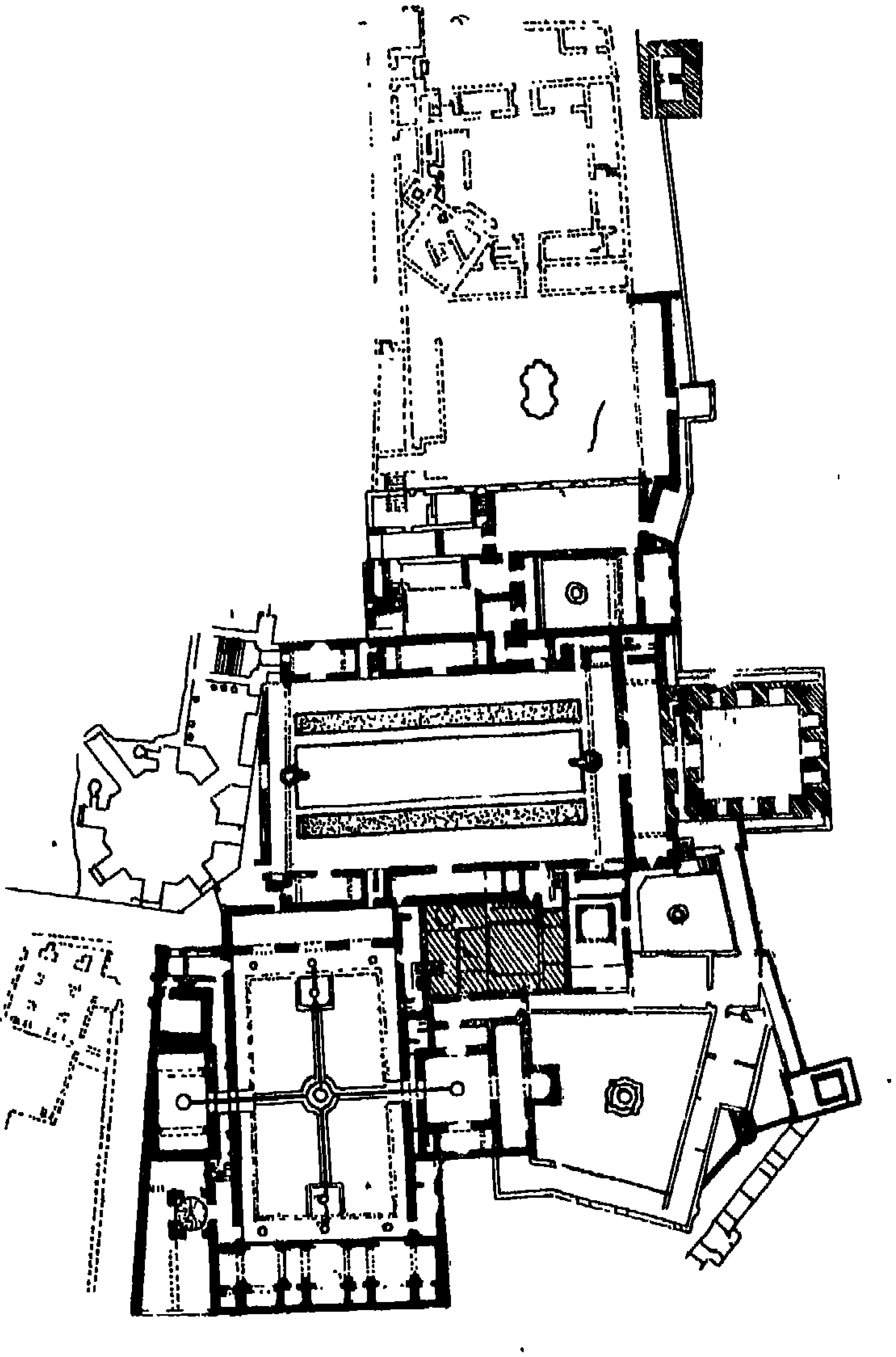

شكل — ٣٧ —
مسقط جامع غرناطة والأبنية الملحقة به

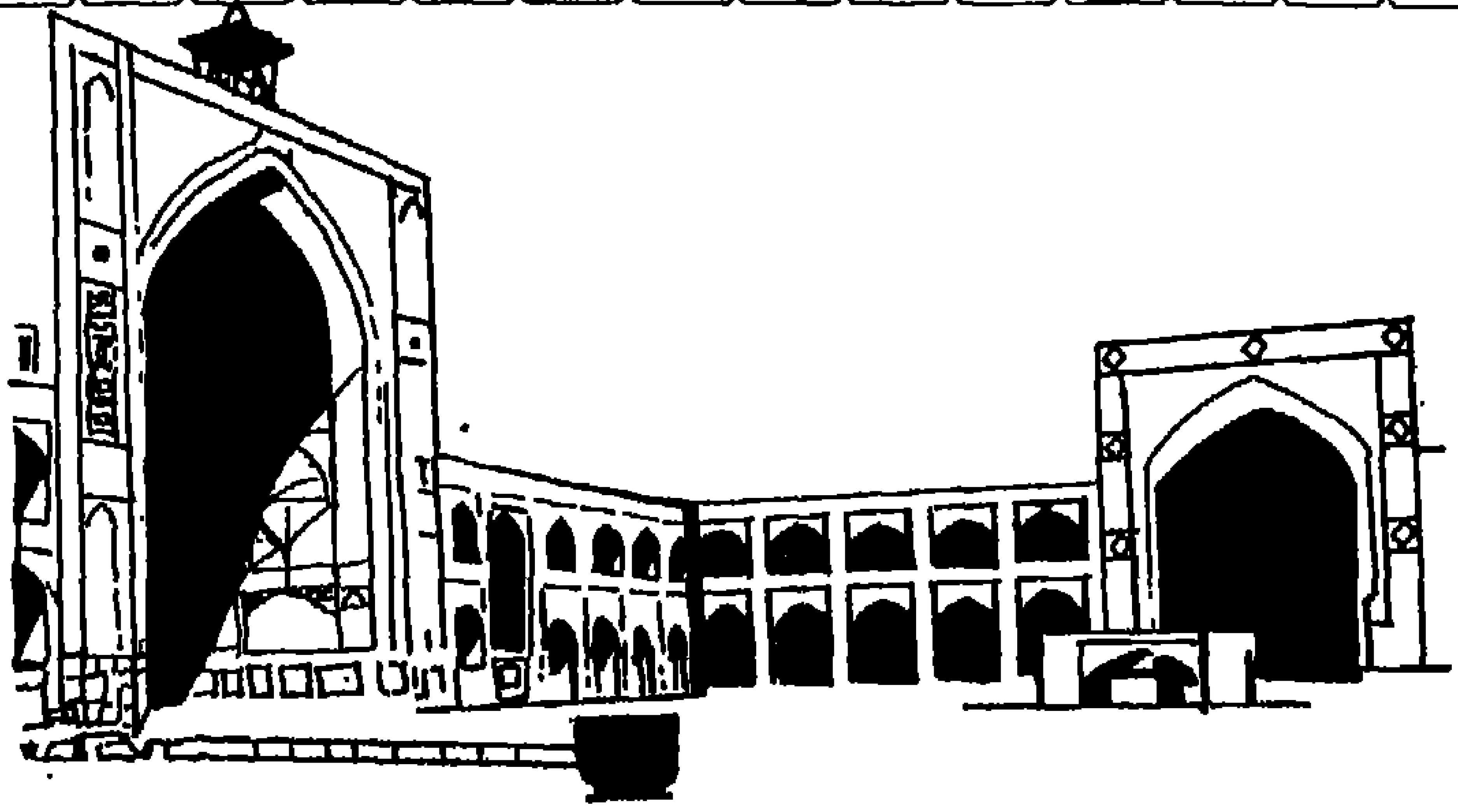

شكل — ٣٨ —
فناء المسجد الجامع في اصفهان بني عام ١٠٨٨ م ويلاحظ انه يرتفع فيه الايوان من كل جهة من جهات الفناء

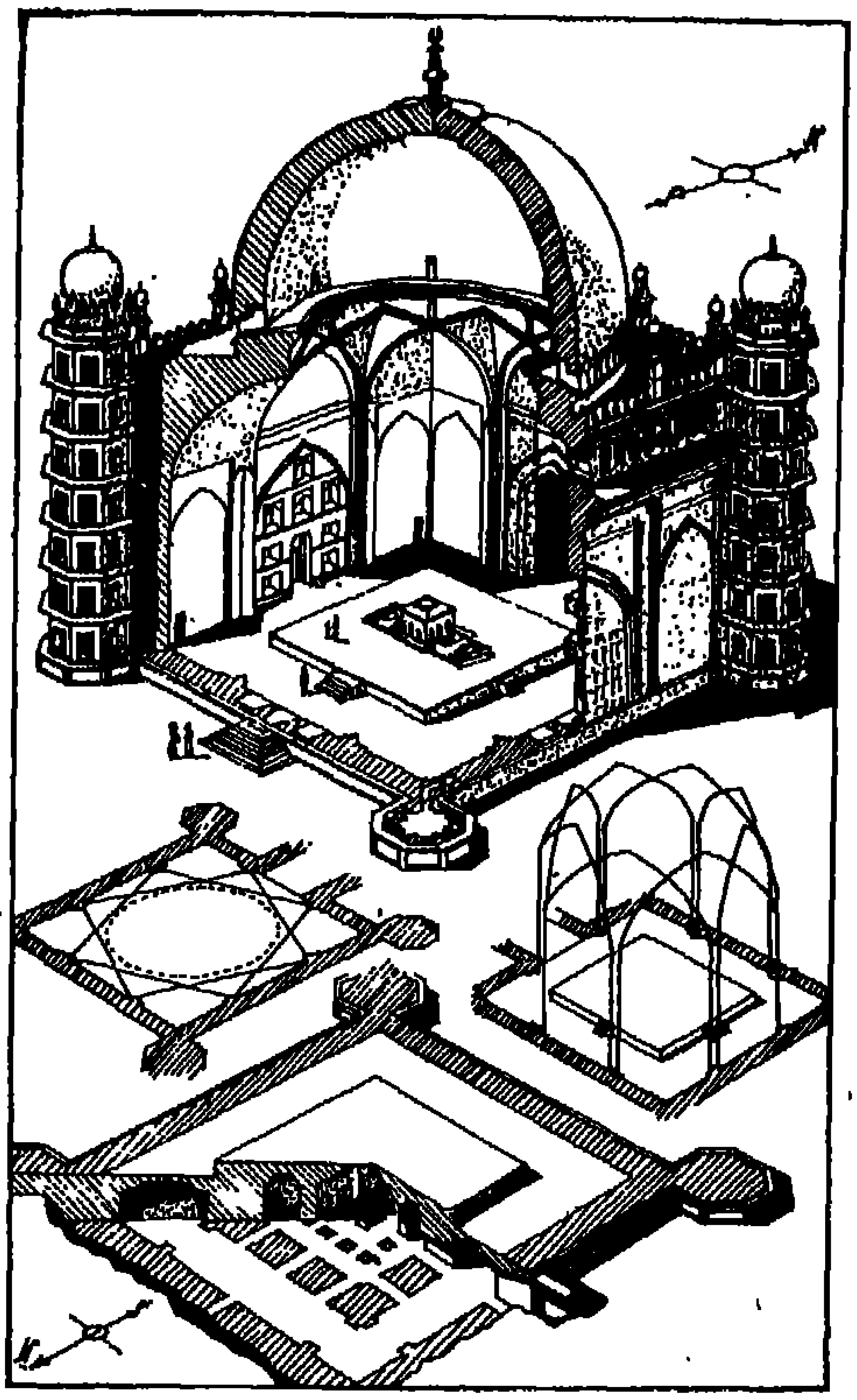

شكل — ٣٩ —
مدفن السلطان محمد عادل شاه في بيجابور (١٦٢٦ — ١٦٦٠ م).

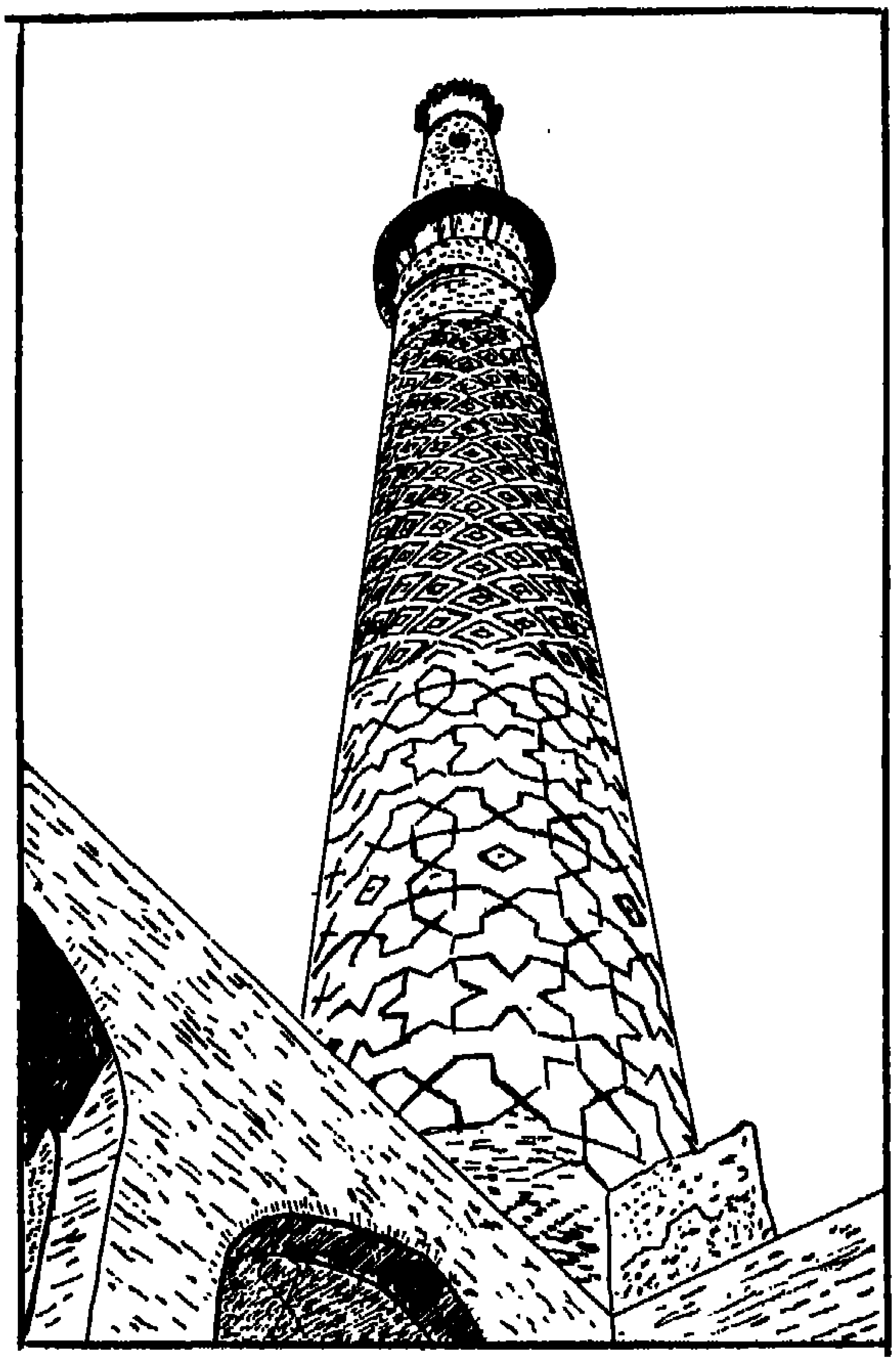

شكل ـ ٤٠ ـ
منارة جامع الامام علي في اصفهان (القرن ١١و١٢) ارتفاعها ١٥٦ـ١٦٠ قدما كل زخارفها من الآجـر . المئذنة من من العصر الصفوي ٩٢٨ هـ / ١٥٢١ م

غرب « كمأذنة جامع القيروان » ثم تطور هذا النظام المعماري ، فظهرت المآذن المدورة ، كمآذن الاربطة على سواحل شمال افريقيا لحراسة الثغور. واقدم نموذج لها في منارة الرباط الذي بناه هرثمة بن أعين والي الرشيد على منطقة تونس « ١٧٩ هـ » في مدينة « منستير » الحالية ، ومنارة رباط سوسة الذي بناه زيادة الله بن الاغلب « ٢٠٦هـ » ومنارة رباط جامع الزيتونة

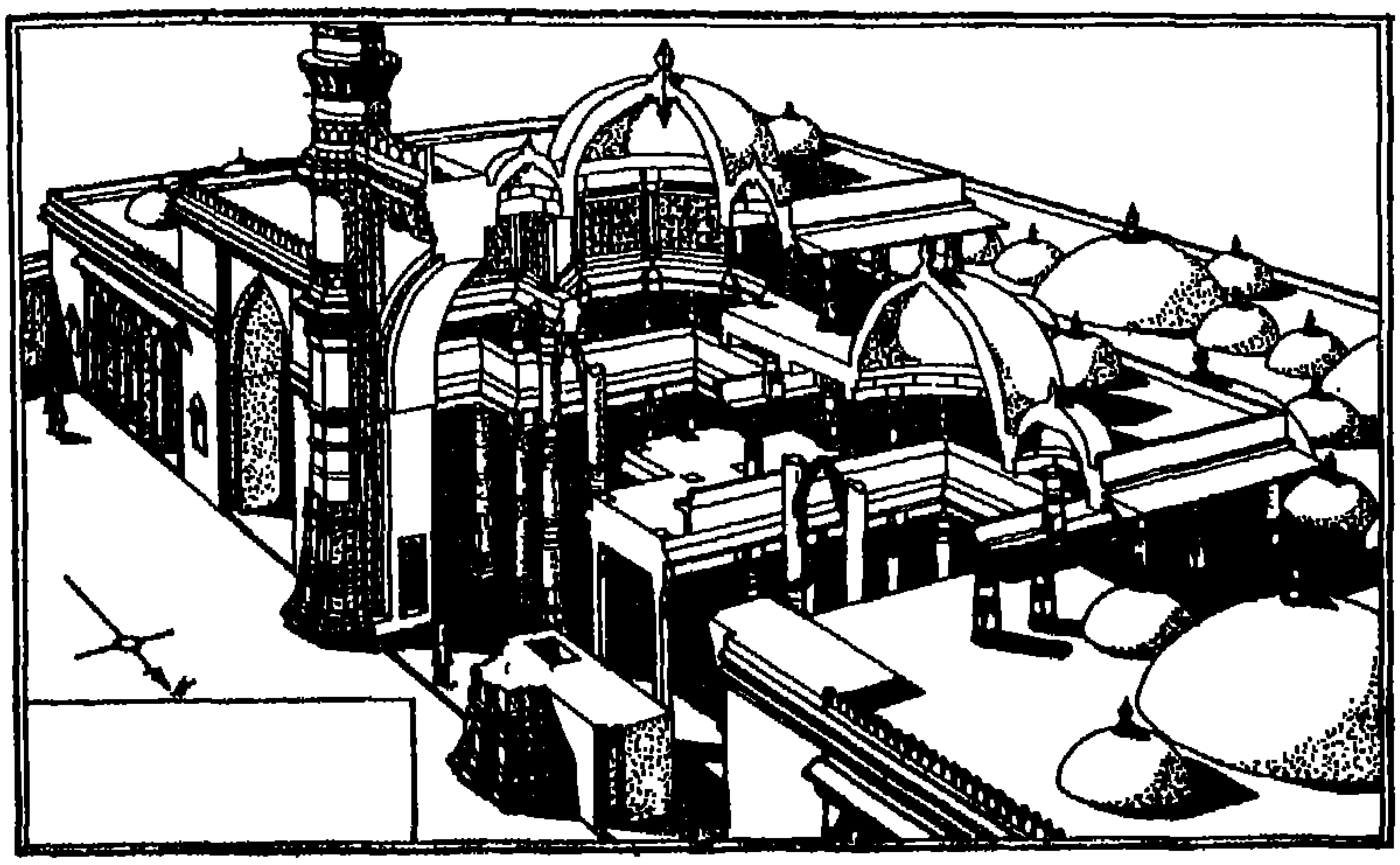

شكل – ٤١ –

مقطع للجامع المسجد في مقاطعة كوجورات الهندية تم بناؤه عام ١٥٢٣ م

شكل – ٤٢ –

باب الفتوح في القاهرة وقد ادخلت عليه عدة تحصينات خلال الربع الاخير من القرن الحادي عشر الميلادي ، ويظهر فيه أثر الاقتباس من فنون الحروب الصليبية المعمارية

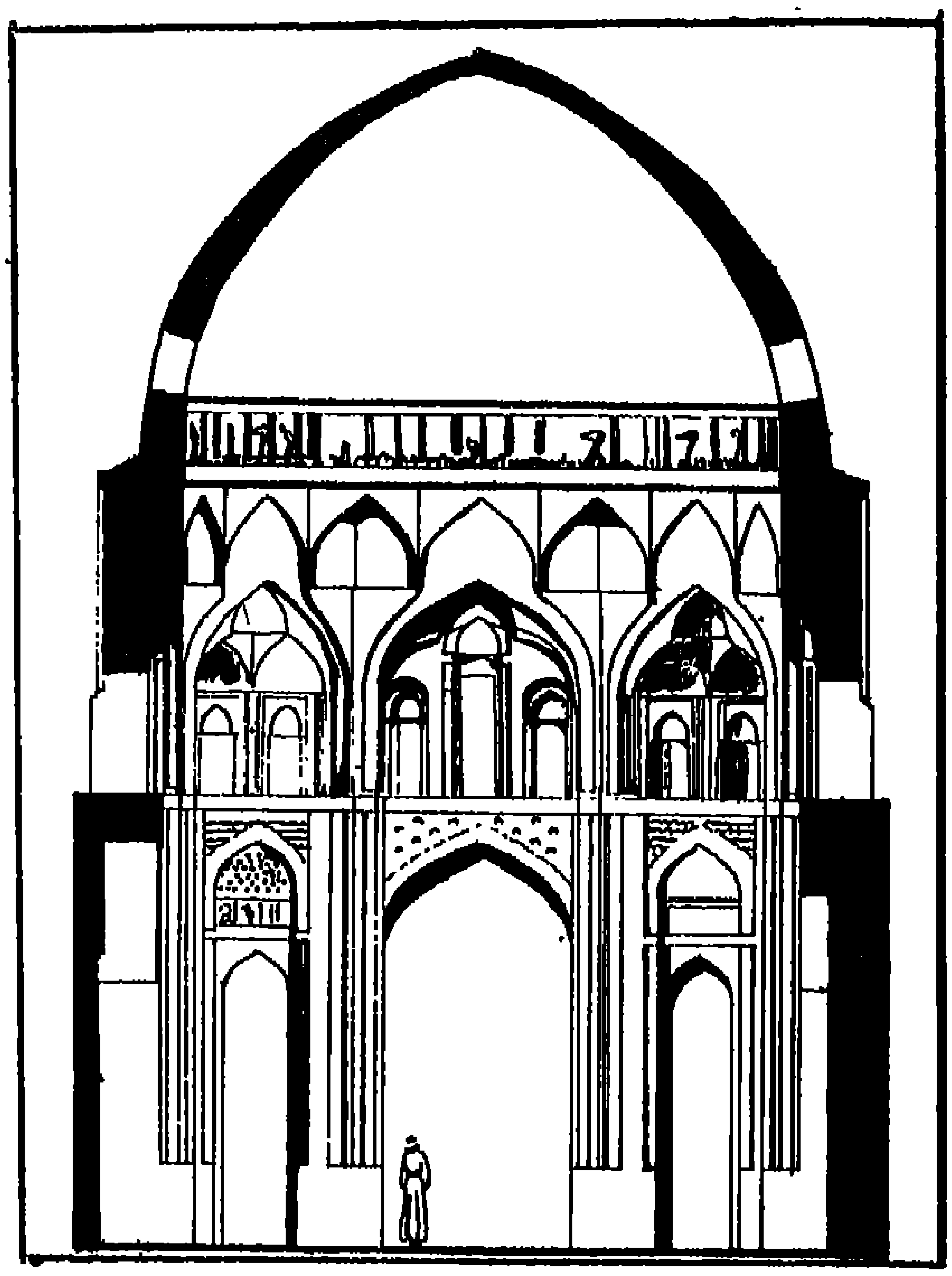

شكل ـ ٤٣ ـ
قطاع من قاعة القبة الصغرى في المسجد الجامع باصفهان
ويلاحظ فيها تطور البناء الاسلامي وتأثره بالطراز المغربي
كلما اتجهنا الى الشرق

« ٢٥٠ هـ » وتطور هذا الفن المعماري الاندلسي فشيدت المآذن المسدسة ، والمثمنة ، وزينت بزخارف الآجر الغائر والبارز ، وكسي قسم منها بالزليج « القاشاني » الذي يلمع تحت اشعة الشمس ، وسيطرت هذه النماذج على جميع ابنية المنائر في عهد المرابطين والموحدين .. ولكن المآذن المربعة لم تلغ تماماً في المغرب ، فمنارة الكتبية بمراكش ، ومنارة « صومعة » حسن بالرباط والمنصورة بتلمسان بقيت مربعة ، ثم انتشرت في شمال افريقيا

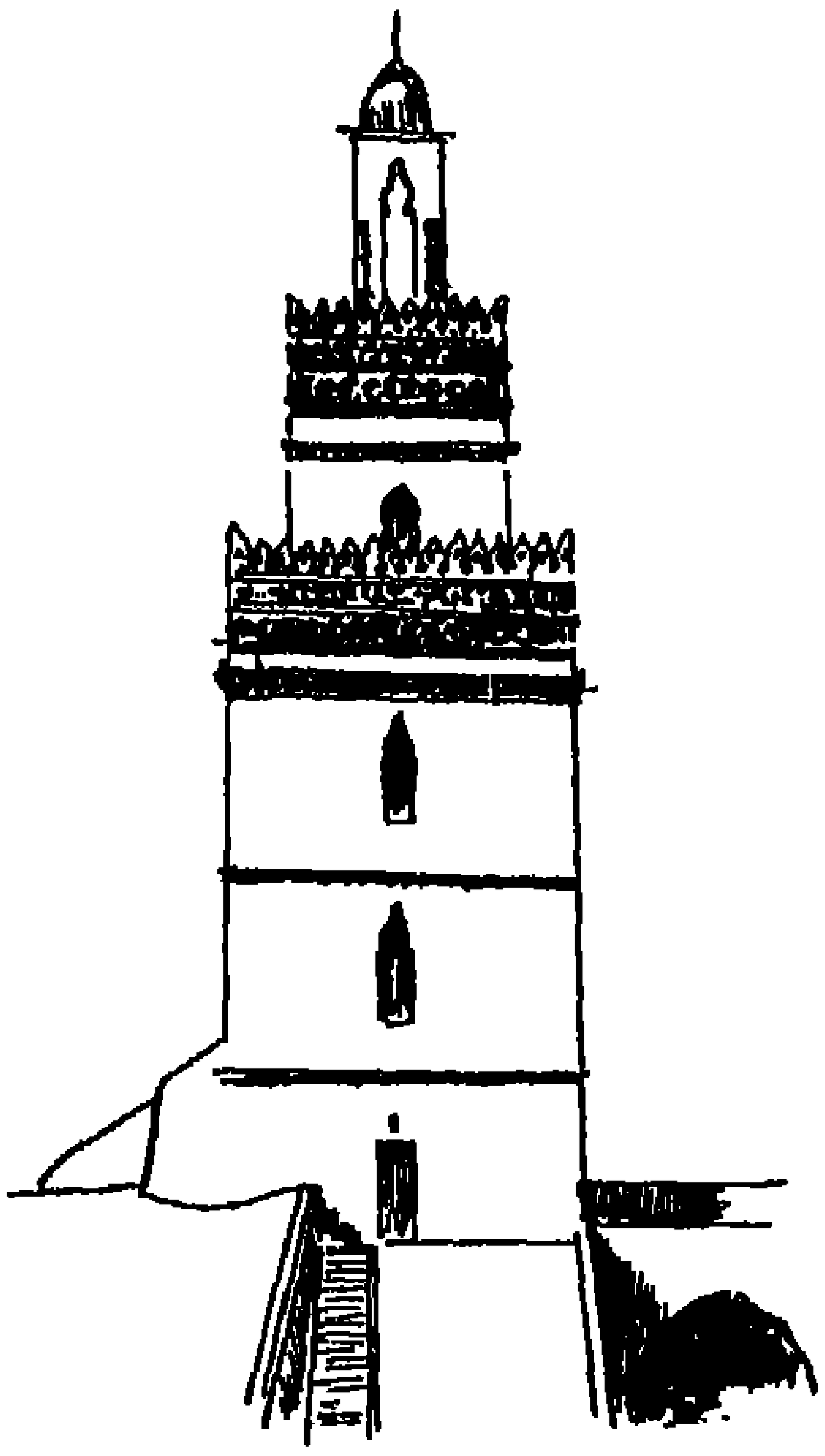

شكل — ٤٤ —

منارة (ماذنة) الجامع الكبير في صفاقس

طريقة بناء المآذن الاندلسية مع وفود المهاجرين من الاندلس الى المغرب على اثر الضعف وخروج العرب من هذه المنطقة « سنة ١٠١٧ هـ — ١٦١٣م ».

الفصل الخامس

القصور والأبنية الحربية

بسم الله الرحمن الرحيم

القصور : أخذ العرب بعد الفتح يميلون إلى حياة الترف والنعيم ، وتقليد غيرهم باتخاذ القصور المنيفة ، واقتناء الجواري والاثاث الفاخر ، ولقد ظهر في الحجاز في عصر الراشدين قصور شيدت من طبقتين أو ثلاث ، وفي العهد الأموي استعمل الخلفاء والأمراء بعض القصور الرومانية الموجودة في دمشق وغيرها ، كما بنوا قصوراً كثيرة ، اندثرت جميعها ، وذلك لأن بناءها كان غالباً من الطين أو التراب المشوي ، لم يستطع أن يقاوم عوامل الطبيعة ، وبيئة دمشق الرطبة ، وكل ما نعرفه عن هذه القصور من الكتب التي تذكرها ، فقد ذكروا أن معاوية اتخذ قصر الخضراء ومن اسمه نستدل على لون زخرفته ونقوشه ، ولما كان الامويون حديثي

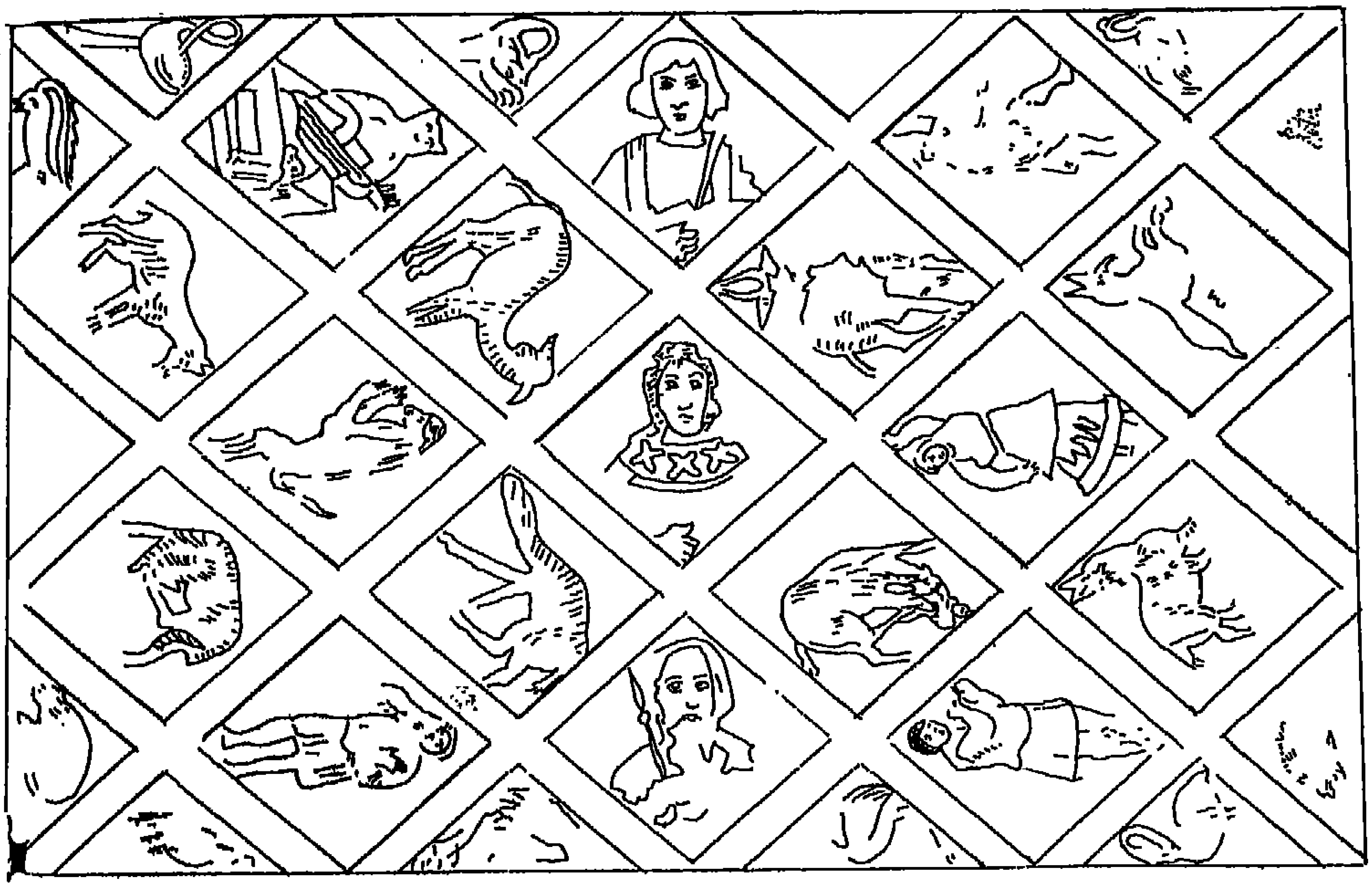

شكل ـ ٤٥ ـ

رسوم تخطيطة لنقوش في قصير عمرة ترجع الى نهاية القرن الاول الهجري وبداية القرن الثامن الميلادي موجودة على جدار القاعة الجانبية الاولى ، قوامها أشرطة تتقاطع فتؤلف سبعة عشر معينا وأربعة عشر مثلثا . والمثلثات فيها رسوم حيوانات أو رسوم طيور ذات رقبة طويلة . اما المعينات فان أعظمها شأنا ثلاثة : الواحد منها فوق الاخر وفيها سماوة (رسم نصفي) غلام وشاب ورجل ولعلها ترمز الى مراحل العمر المختلفة : الفتوة والرجولة والكهولة . وفي سائر المعينات رسوم حمار وحش وغزال وقرد يعزف على آلة موسيقية وقرد آخر وقف على قدميه الخلفيتين ، واخذ يصفق بقدميه الاماميتين ، وشاب بجلباب قصير وآخر ينفخ في مزمار ، وراقصة ذات جلباب طويل وذراعين عاريتين .

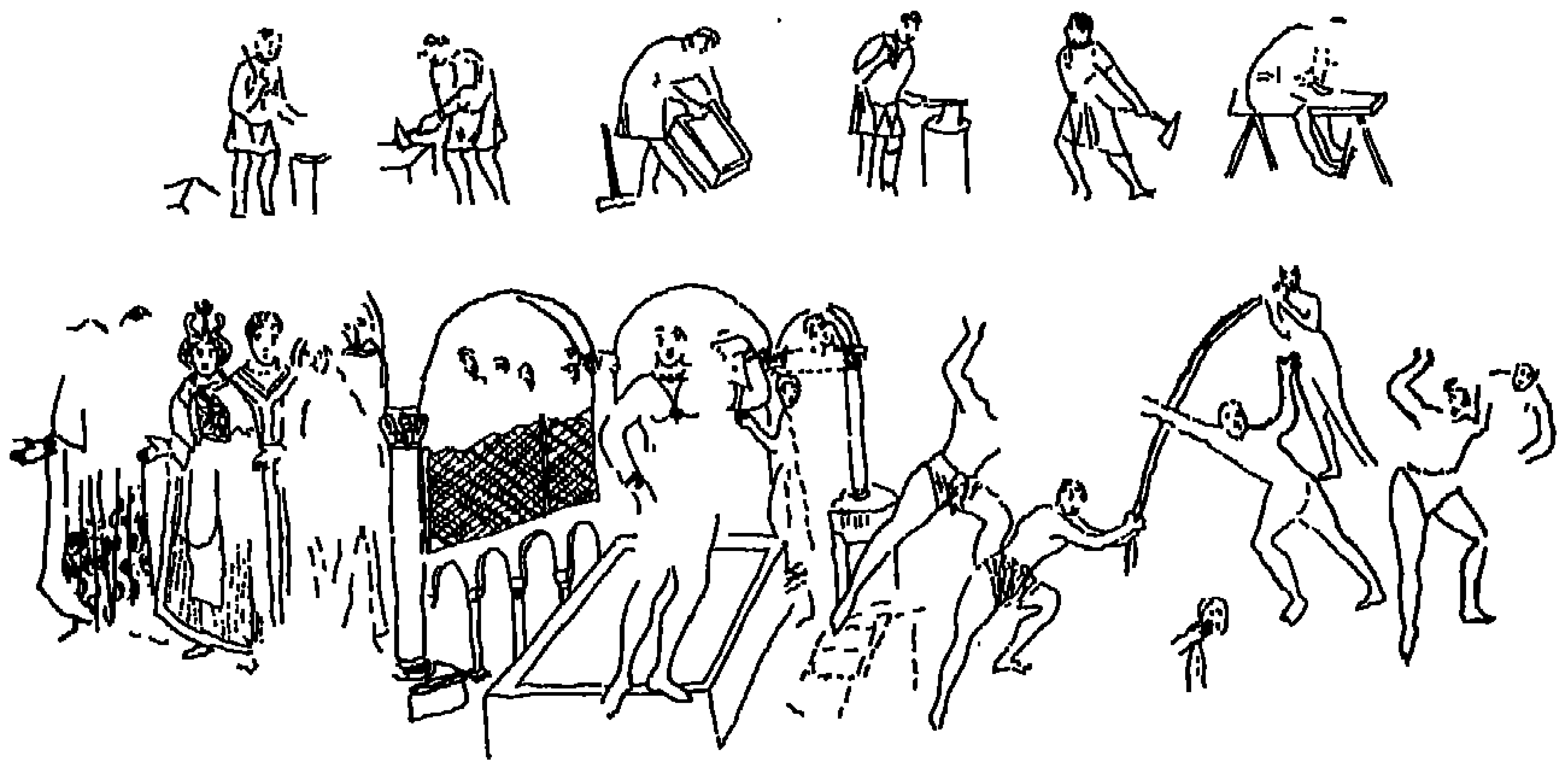

شكل — ٤٦ —

رسوم تخطيطية لنقوش في قصير عمرة ترجع الى نهاية القرن
الاول الهجري وبداية القرن الثامن الميلادي

١ — الرسم العلوي يمثل نقوشا لعمال البناء هي من اليمين الى اليسار : نجار يعمل بالمسحج (الفارة) — عامل في يده مطرقة — عامل في يده معول — عامل في يده صندوق رمل أو بلاط (مونة) — صانع يحمل قلعا (قدوم) ، عامل يحمل مخلا .

٢ — الرسم السفلي يمثل نقشا في الحائط الغربي من القاعة الرئيسية . الى اليسار الصورة التي تعرف باسم اعداء الاسلام وقوامها ستة اشخاص ذوي ملابس فاخرة مرسومين في صفين : ثلاثة في الصف الاول ، وثلاثة في الصف الثاني ، وفوق أربعة منهم كتابة بالعربية والاغريقية لا تزال باقية ، فالاول من اليسار في الصف الامامي فوقه كلمة قيصر بالعربية واليونانية لا تزال باقية ، فهو امبراطور بيزنطة ، والثاني في الصف الخلفي فوقه كلمة يظن انها لوذريق آخر ملوك القوط في اسبانيا ، والثالث في الصف الامامي فوقه كلمة كسرى فهو ملك الفرس ، والرابع في الصف الخلفي فوقه كلمة النجاشي فهو ملك الحبشة . والملاحظ ان تصميم هذه الصورة ساساني .

والى يمين هذا المشهد رسم نساء عاريات في حمام ثم رسم رجال شبه عارين يقومون ببعض العاب رياضية .

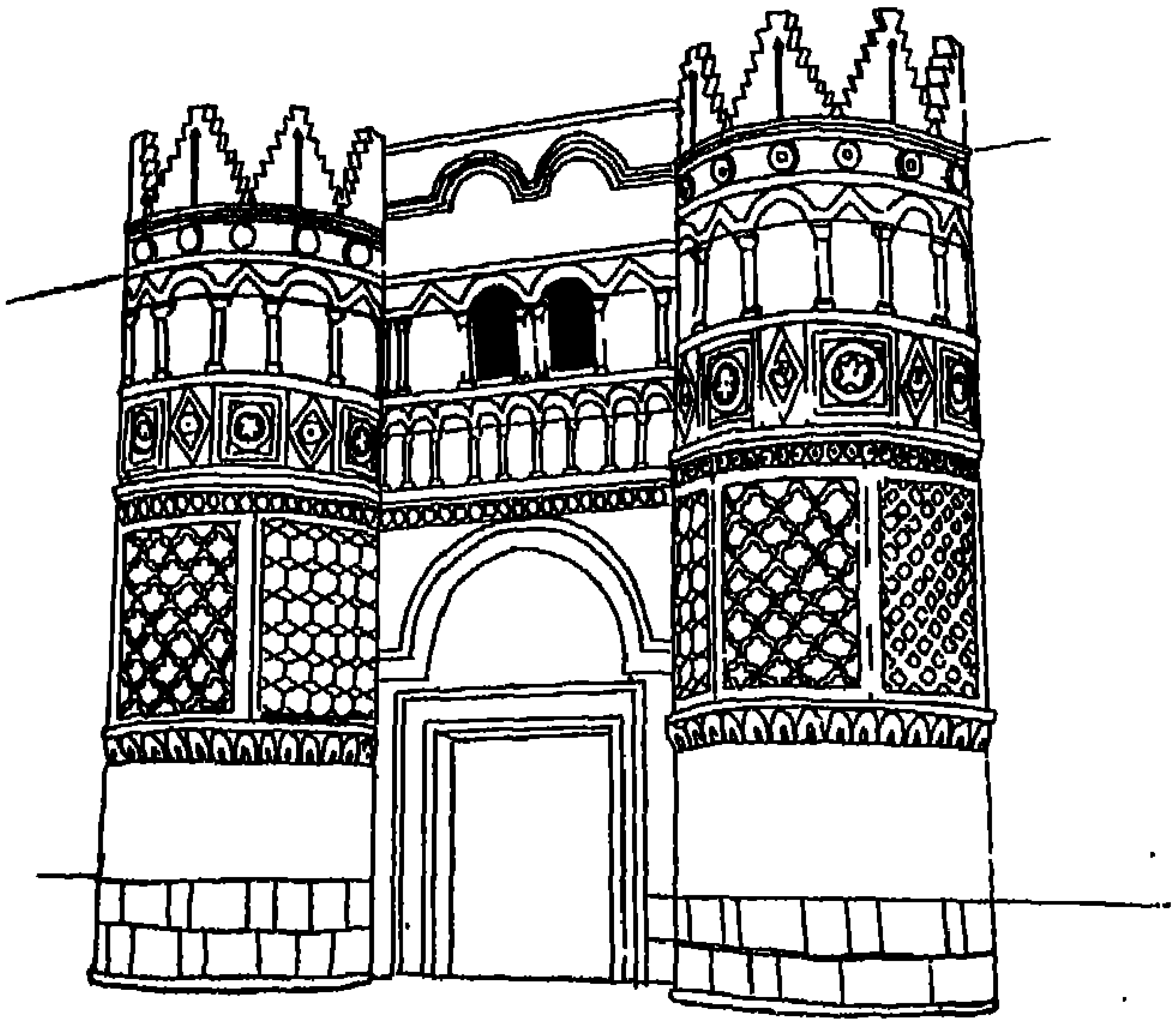

شكل – ٤٧ –
واجهة قصر الحير الغربي المعاد انشاؤه في متحف دمشق

عهد بالصحراء ، فقد كانوا يحنون اليها فاستخدموا كثيراً من القصور القديمة التي كان الرومان قد بنوها لتكون قلاعاً يتخذونها لصد غارات البدو قبل الاسلام ، وما لبث الامويون أن أمروا بانشاء قصور وحمامات في البادية سواء في بادية الشام ، أو في اقليم شرق الاردن . وكانوا يخرجون اليها لتمضية بعض أيام راحة وهدوء في كل عام ، بعيدين عن العاصمة ومشاغلها وضوضائها ، وأسوارها التي تجعلهم كأنهم في حصار ، وتمنع عنهم أفق الطبيعة اللانهائي الذي اعتادوا عليه ، ومن أشهر هذه القصور القصر الذي عثر عليه قريباً من تدمر ونقل إلى متحف دمشق ويدعى قصر الحير وقد تم ترميم جانب كبير منه ، ويلاحظ عليه أنواع منوعة من الزخرفة ، إذ لا نجد من بين الاربعين من نوافذه التي ورممت منه إلا نافذتين متشابهتين في زخاوفها ، كما نجد أعمدته باشكال متعددة ، فبعضها مستقيم اسطواني ، وبعضها ذو أضلاع معوجة ، وبعضها يشبه جذوع النخل ، وأخرى

تنتهي بتيجان على شكل سعف النخل . وهناك في شرقي الاردن بقايا قصير عمرة وهو عبارة عن حمام وقصر صغير للصيد يقع على بعد خمسين ميلا شرقي عمان ، اكتشفت آثاره سنة ١٨٩٨ م ويرجع عهده إلى الوليد ابن عبد الملك ويتألف من قاعة استقبال مستطيلة لها ثلاثة أروقة مسقوفة بسقف اسطواني الشكل ، وعلى جانبي منحنى صغير يتصل بالرواق الأوسط تقوم غرفتان صغيرتان وبجانبها حمام مؤلف من ثلاث غرف صغيرة . وقد دب التلف في نقوش الجدران والسقف ، وتدل بقاياها على أنها كانت تمثل رسوم صيد واستحمام ورسوم راقصات ورسوماً رمزية لآلهة الشعر والفلسفة والنصر والتاريخ عند اليونان وأخرى تمثل مراحل الحياة من شباب وكهولة ، وقبة السماء وأبراج النجوم ، وهناك رسم يجلب الانتباه يبين الخليفة الوليد بن عبد الملك على عرشه وحول رأسه هالة وفوقه مظلة ويحف به شخصان ، وعلى عقد المظلة كتابة بالخط الكوفي ، ورسم آخر يمثل أوخرا الملوك الذين حاربهم المسلمون وانتصروا عليهم ، كقيصر ولو ذرق آخر ملوك القوط ، وكسرى الفرس والنجاشي وغيرهم . ويظهر على هذه الصورة آثار الفن الساساني الفارسي بينما يظهر على طراز الصور الأخرى آثار الفن الهيليني ، مما دعا المؤرخين إلى الاعتقاد بأن الفنيين الذين رسموا الصور هم من السوريين والآراميين ، وأنهم يعرفون العربية واليونانية ...

وكذلك يعد القصر الذي كشفت آثاره في قرية المفجر شمالي أريحا والذي يعود تشييده إلى هشام بن عبد الملك نموذجاً لبناء القصور الأموية وفيه لوحة تعتبر أبدع زخاف الفسيفساء الأموية . يحتوي قصر المفجر على ثلاثة أبنية ضخمة منها قصر للسكن ومسجد للصلاة وحمام للاستحمام .

ومدخل القصر يقوم على برج مستطيل هائل ، على جانبه مقاعد مزودة

بالمنكآت الحجرية وداخله مزخرف بالمحاريب الصغيرة المنقوشة بالأشكال النباتية ، يعلو المدخل عقد مصلب الشكل ويكون من عدة أقواس صغيرة داخل قوس كبير كالعقود العربية في الأندلس . . . أما داخل القصر ، فيتبع بتصميمه ورسمه سائر قصور الأمويين ، فهو عبارة عن صحن مربع مكشوف تقوم على جوانبه أربعة أبنية على طابقين مستقلة الواحدة منها عن الأخرى ، ويفصلها عن الصحن الداخلي رواق مظلل بالعقود والأقواس المرتكزة على الأعمدة ... وغرف الطابق الأعلى كانت مرصوفة بالفسيفساء .

والمسجد مزود بمحراب في طرفه القبلي ، وعلى جانبيه غرف مستطيلة للوضوء ولخدم المسجد والمشرفين على نظافته .

والحمام عبارة عن غرفة مستطيلة ، مرصوفة بالفسيفساء المتعددة الألوان .

والشيء الذي ينفرد به قصر المفجر عن قصور الأمويين التقليدية وجود مسجد كبير خارج القصر ، وحمام كبير أيضاً . وهذا الحمام الخارجي يشبه الحمامات الرومية من حيث غرف للاستحمام بالماء الدافيء ، وأخرى للاستحمام بالهواء الحار ، وأخرى لمسح الجسم وفركه بالزيت . . كلها مجهزة بما يلزمها من أتون لتدفئة الماء والهواء ، وأقنية للماء الدافيء ، وأخرى للهواء الحار ، ومقاعد ومغاطس للاستحمام وهلم جرا .

ومن زخارف القصر ما وجد في غرفة صغيرة في زاوية من زوايا الديوان الكبير للقصر . رصف قسم من الغرفة بالفسيفساء برسم شجرة رمان تقف على جانب منها ظبيتان ترعيان العشب الأخضر ، وعلى الجانب الآخر ظبية ثالثة يفترسها أسد كاسر ، وجدران هذه الغرفة ونوافذها مزدانة بالجبس المنقوش بأشكال نباتية وهندسية أخرى تمثل طيوراً وحيوانات حقيقية أو خرافية وراقصات نصف عاريات[1] .

---

(1) من مقال ديمتري برامكي الذي شارك باعمال التنقيب عن القصر .

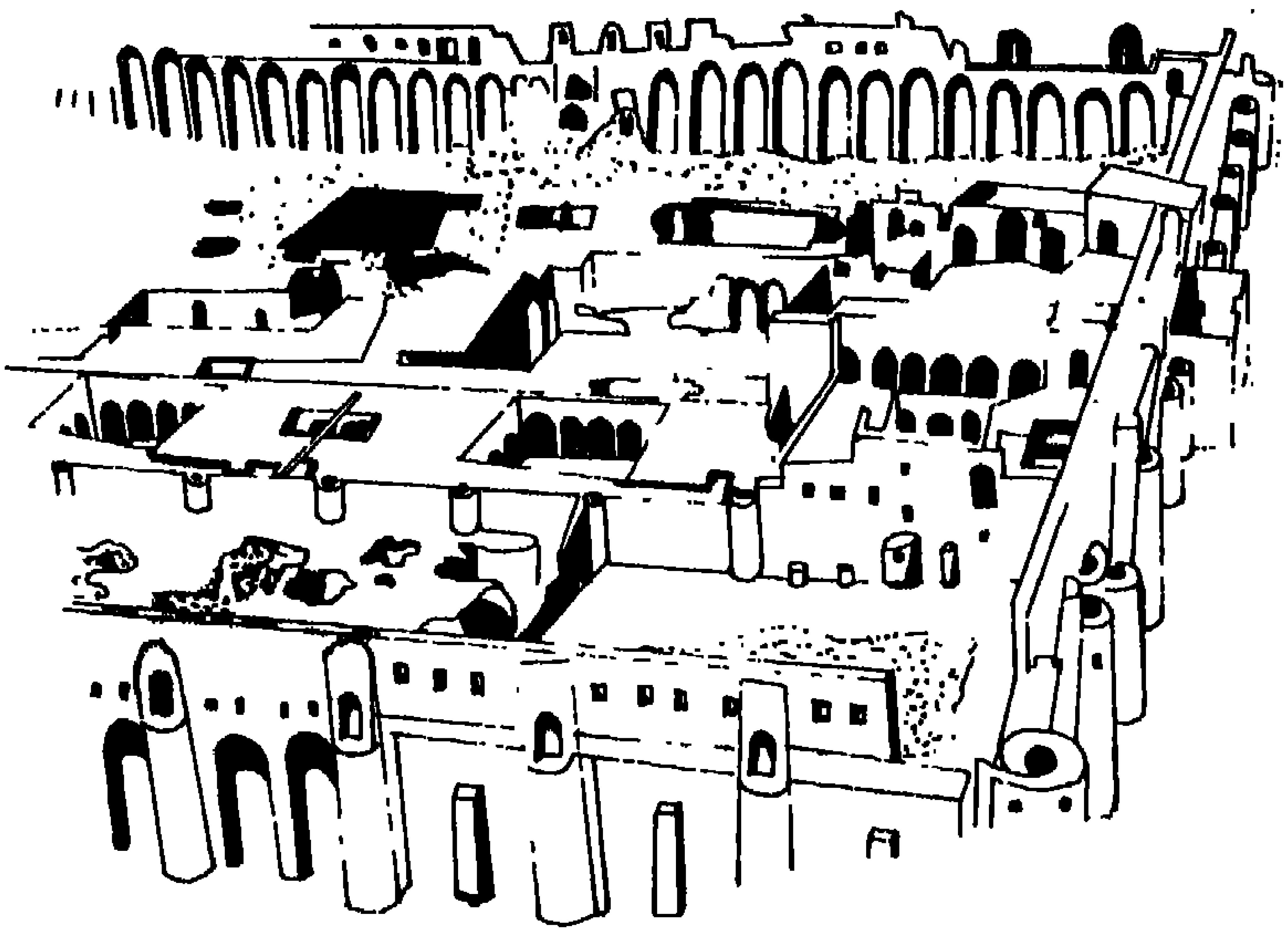

شكل ــ ٤٨ ــ
بقاية قصر الاخيضر كما هي عليه اليوم

وقد تسابق خلفاء بني العباس في إشادة القصور من المرمر في بغداد حتى دعيت بمدينة القصور ، وكانت قصورهم تتألق بالجواهر البراقة ، وتزدان بشتى أنواع الرياش الفاخر المجلوب من أطراف الدنيا . ومن أشهرها قصر الأخيضر الذي تقع بقاياه على بعد ١٢٠ كم إلى الجنوب الغربي من بغداد ويشكل بمخططه حلقة الاتصال بين طراز قصر المشتى من منشآت الأمويين وبين سامراء . وشكل البنـاء رباعي يشبه قصر المشتى ويضم مجموعة من البيوت وأبنية جانبية وأفناء واسعة ، وفيه جامع أثبتت التحريات أنه من أصل البناء ؛ وهذا القصر في الواقع كان حصناً أمامياً في منطقة مقفرة بعيدة عن العمران ، مشيد بالحجر والجص والآجر ويحيط به سور محصن على غرار القلاع الحربية .

ومنها أيضاً قصور سامراء التي هدمت وبدد آثارها المنقبون خلال عدة قرون يبحثون عن الآجر لاعادة استعماله ، وأهمها الجوسق الخاقاني بنـاه عام ٨٣٦ م المعتصم بن هارون الرشيد ويشرف على نهر دجلة وله جنـاح

مرتفع ، سمي بقصر الخلفاء أو طيسفون العرب تشبيهاً له بايوان كسرى في طيسفون .

كما شيد الفاطميون في مصر قصوراً أنيقة وفخمة ، ومن أشهرهـا **القصر الغربي** الذي بناه الخليفة العزيز وفيه قاعة **الذهب** حيث يجتمع مجلس الملك ، وكانت مزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب . ومن قصور الفاطميين : **قصر العرافة ، وقصر البحر** الذي وصفه ابن خلكان بأن لا يوجد له شبيه في الشرق ولا في الغرب **وقصر اللؤلؤ**

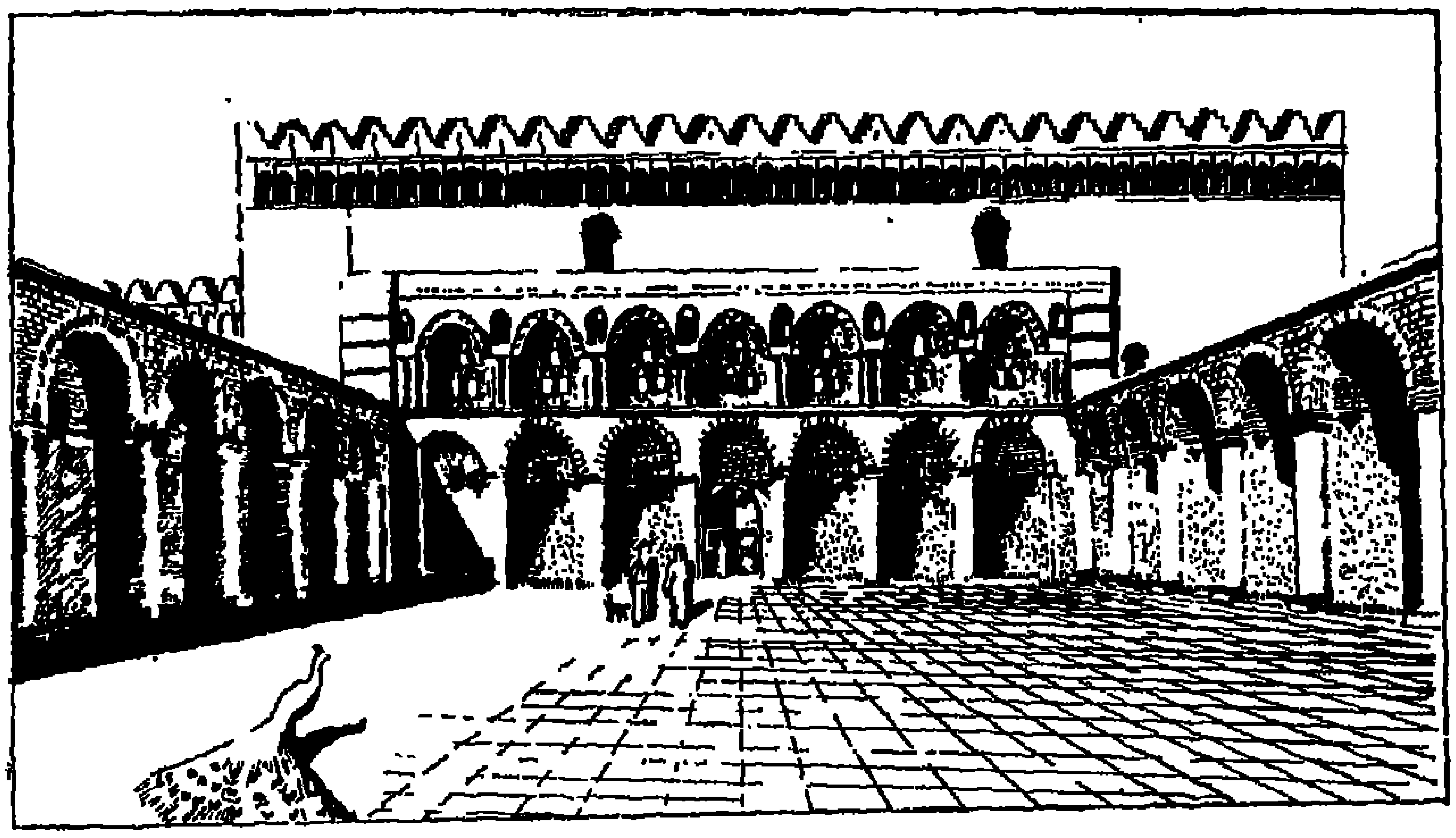

شكل — ٤٩ —
شكل مرمم لباحة قصر الاخيضر

وغيرها . وقد بزّت قصور الأندلس القصور الشرقية بعظمتها وحسن هندستها ، فكان قصر الزهراء عبارة عن عشرة قصور تشبه كما ذكرنا فرساي بجوار باريز ، أو قصر يلدز في عهد السلطان عبد الحميد . وقصر الحمراء الذي يشتهر بقاعاته العظيمة كقاعة الاسود وقاعة السفراء وقاعة بني سراج ، وقاعة العدل .

ويمثل « قصر البديع » في مدينة مراكش ، نموذجاً للفن المراكشي ، وقد

استغرق بناؤه ١٥ عاماً ، وقد تحول اليوم الى انقاض ، وكان مؤلفاً من صحن مستطيل الشكل واسع جداً يشغل مركزه بركة ماء ، يشبه الى حد بعيد قاعة الاسود في الاندلس .

ولعل الفن المدجن ، اي فن المسلمين الاسبان الذين بقوا في اسبانيا بعد خروج العرب منها يتمثل هذا في « القصر » في اشبيلة الذي بناه بطرس القاسي على نفس موقع القصر القديم الذي كان المسلمون قد اشادوه وقد اقيم « ١٣٥٠ — ١٣٦٩ » وجدد بناؤه في القرون ١٦ و ١٧ و ١٩ ويمتاز بمقرنصاته الجميلة ونقوشه الجصية البديعة واعمدته الرخامية ، مما يؤكد بصورة قاطعة استمرار تذوق الفن الاسلامي من قبل ملوك اسبانيا المسيحيين.

واذا انتقلنا الى المشرق وجدنا تطوراً في بناء القصور ، فظهرت في العهد السلجوقي اساليب فنية تسربت اليها من تركستان ، وخاصة موضوعات الكائنات الحية والتماثيل الآدمية من الجص او الحجر تمثل جنوداً او حراساً او امراء تزين القصور . ومن ذلك قصر « قره سراي » الذي اقامه الاتابك لؤلؤ في الموصل ولا تزال بعض اجزاء القاعة الكبرى فيه قائمة وفيها تزيينات من صفوف من التماثيل النصفية في جنبات الجدران .. وقصر السلطان في قونية يحتوي على تماثيل سباع متقنة النحت ، وسور قونية غني بالرسوم الحيوانية البارزة . .

أما قصور الصفويين في ايران فكانت صغيرة الحجم نسبياً قوام معظمها قاعة كبيرة عظيمة الارتفاع تحف بها قاعات صغيرة للسكن في طابقين اشهرها قصر شهل ستون وقصر هشت بهشت وقصر آينه خانه ، وزينت جدران جميعها باللوحات المصورة . . وبالمرايا والمنسوجات النفيسة ، واستعملت فيها اللوحات الزيتية الكبيرة التي تكثر في مواضيعها رسوم الزهور

والفاكهة والفسيفساء والمناظر الطبيعية الجميلة ، وفيها يظهر الفن الايراني الدقيق والجميل . .. وتطنب الكتب في وصف ما حوت هـذه القصور من اثاث فاخر ، وادوات تزينية دقيقة الصنع غالية الثمن .

ومن القصور العثمانيـة الباقيـة في الشام : قصر العظم بدمشق وقصر العظم بحماة ويعتبران نموذجاً للقصور العثمانية عامة ويتألف كل منهما من جناحين رئيسيين : جناح الاسرة صاحبة القصر « الحوملك » ، وجناح الضيوف والاستقبالات « السلملك » ، يلحق بهما جناح ثالث اصغر مخصص للخدم والمطبخ

ويمكن أن نلحق بالقصور الخانات التي أقامها العرب والمسلمون على طول الطرق ، تقف عندهـا القوافل ، وكثـيراً ما كانت تزود بدواب الصدقة حيث تعطى لكل من نفقت راحلته أثناء السفر راحلة غيرها من أموال الزكاة ، كما كانت مكاناً لتبادل التجارة .

والأبنية الحربية

بالرغم من أن العرب إنما فتحوا امبراطوريتهم الكبرى فتحاً ، فانهم لم يكثروا من الأبنية الحربية فيها إلا حين تهددت الاخطار العالم الاسلامي ، أي منذ القرنين التاسع والعاشر أيام الحروب المتقابلة مع البيزنطيين . ثم كانت الحملات الصليبية وما اقتضتها من حروب . ثم موجة المغول «جنكيز» والتتر « تيمور » ، فصارت تقام في سوريا خاصة وفي مصر أبنية حربية كثيرة حتى نهاية القرن الخامس عشر التي اقتبس الصليبيون الكثير من أساليبها : كبناء المشربيات وهي البروز المغطى في جسور القلعة لرمي المهاجمين بالمؤذيات . وكجعل مدخل القلعة إلى الداخل على شكل ممر ذي زوايا قائمة أو ملتوية لمقاومة العدو .

ولا شك أن أكثر الأمراء عناية ببناء القلاع هم سلاطين المماليك « القرون ١٣ — ١٦ . » . أما أهم وأجمل قلاع سوريا فاثنتان :

١ ـ **قلعـة حلب** : وتقوم على هضبة صخرية وجدت فيها آثار بيزنطية ومعظم أبنيتها الحالية تعود الى زمن الملك الظاهر غازي الذي جدد حصونها وبنى منحدراتها من أسفل الخندق إلى الاسوار ليتعذر التسلق إليها . وقد رممت أسوارها مراراً خلال القرون « ١٤ — ١٥ — ١٦ » . أما مدخلها القائم إلى اليوم فيعد من أجمل التحصينات العسكرية الباقية من القرون

الوسطى ، ويتألف من برج ضخم فيه الباب الخارجي الذي ينفذ منه إلى درج معلق فوق الخندق على عـدد من الركائز والاقواس حتى يصل الى باب القلعة الرئيسي ، وهو ذو واجهة جميلة البناء والتزيين وتقوم من فوقه قاعة العرش . وفي داخل القلعة مسجدان يرجع الكبير منها الى سنة١٢١٣م

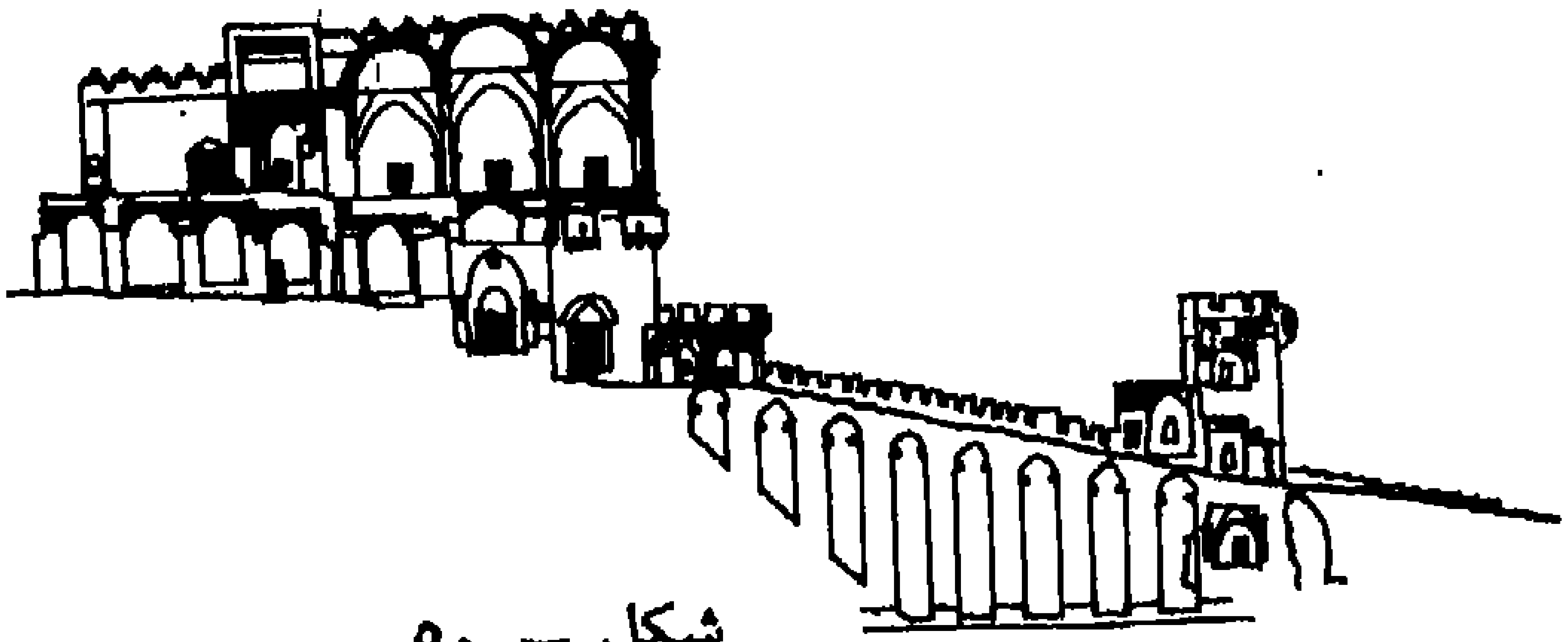

شكل ـ ٥٠ ـ

مقطع مدخل قلعة حلب وبناء القلعة كما كان ، كما رسمها سوفاجيه وقد ميز اليها بالخطوط (هاشور)الاضافات المملوكية بالاشارة عن البناء الايوبي الاصلي ، كما يلاحظ اهمية التحصينات التي ادخلت على القلعة في أيام الحروب الصليبية لتقويتها وزيادة مناعتها .

٢ ـ قلعة الحصن : (حصن الاكراد krak des Chevaliers)وتشرف على ممر حمص ـ طرابلس ، قرب تل كلخ . وأصل بنائها غامض ، وقد احتلها الصليبيون سنة ١١١٠ ثم صارت بيد « الاسبتارية » وهم فرقة دينية عسكرية من الصليبيين وبقيت لهم حتى سنة ١٢٧١ م إذ استلموا للظاهر بيبرس.

وتعد قلعة الحصن من أكمل الأبنية الحربيــة الباقية في سوريا : بأسوارها وأبراجها ومخازنها العميقة وخنادقها .

وفي انحاء العالم الاسلامي بنيت كثير من القلاع ، **كقلعة الموت** في ايران ، **وقلعة الجبل** التي بناها صلاح الدين في القاهرة . وعرفت بلاد المغرب والاندلس الكثير من العمارات العسكرية فاقدم القلاع المعروفة في الاندلس **قلعة مريدا** التي بناها عبد الرحمن الثاني عام ٨٣٥ م ، وقد اقتبس مهندسوها عناصر القلعة البيزنطية فكان لها : جسر يتقدمها على نهر غواديانا

وسور مربع مبني من الحجر المنحوت ، وابراج مستطيلة ، وابراج مربعة في زوايا السور وباب وحيد غير بارز ..

الا ان نشاط البناء العسكري بدا واضحاً في القرن الحادي عشر الميلادي ، في عهد المرابطين ، وتعد مدينة مراكش التي انشئت في هذه الفترة ، مدينة محصنة ، واقدم قلعة بناها المرابطون **قلعة سور الحجر** « ١٠٦٢ م » اكتشفت حديثاً ، وكانت على الارض التي اقيم عليها فيما بعد مسجد الكتبية : يليها **قلعة بني حماد واشير وبجاية وتاسفيمرت** الواقعة في جنوب شرقي مدينة مراكش ، وثم **قلعة الغديرة** الواقعة قريباً من اشبيلية .

وشهد القرنان الثالث عشر والرابع عشر في المغرب استمرار النشاط المعماري للقلاع والحصون . فبنيت حصون فاس « ١٢٧٦ م » كما بنيت مدينة المعسكر التي انشأها المغاربة خلال حصار العاصمة تلمسان ١٣٣٢ م ، وحصن شيله ، وحصن جبل طارق وقصبته مع البرج المستطيل في القلعة الحرة . .. اما في مدينتي تونس وموناستير فبقيت لنا من عمارات هذين القرنين بعض الاسوار الدفاعية .

٣ ـ **الرباط** : كما نلحق بها « الرباطات» وهي نوع من العمارات العسكرية والدينية معاً ، لذلك شبهها بعض الغربيين بالأديرة المحصنة ، وأكثر ما نشأت في شمالي افريقيا لصد محاولات الغزو البحري الاوربي ، واعداد حملات المجاهدين ، ويجتمع في الرباط اتباع طريقة دينية ، يعبدون الله ، ويستعدون للجهاد ، وأكثر الرباطات كان في تونس ، ومنها رباط مدينة سوسة الذي تم انشاؤه عام ٨٢١ م من قبل الاغالبة . ومخططه بسيط جداً ، يحيطه سور مربع الشكل مدعم من زواياه ، حسب المحاور ، بابراج ، يرتفع أحدها أكثر من غيره ، لمراقبة العدو ، وباب الرباط

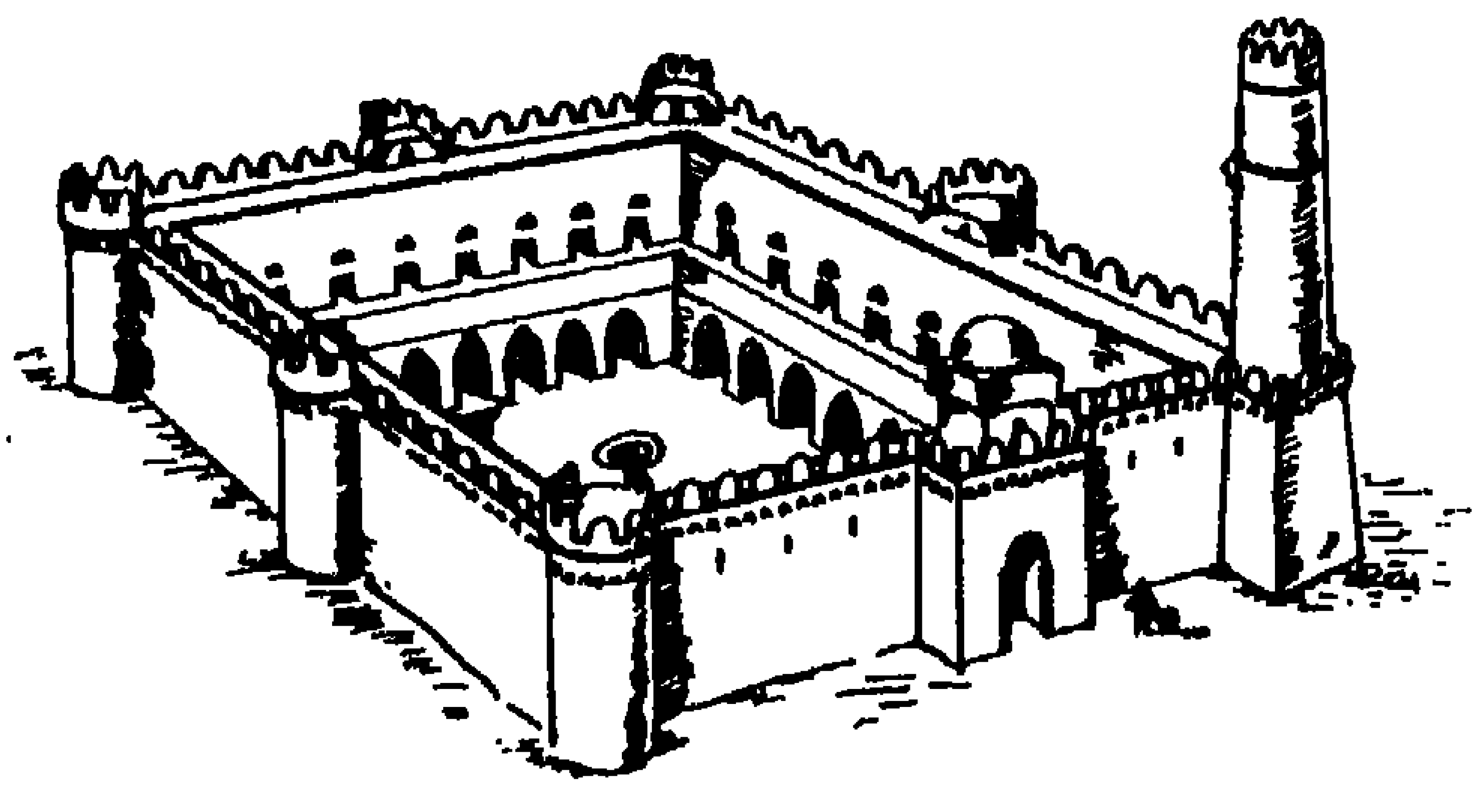

شكل – ٥١ –
رباط سوسة يعود بناء هذا الرباط الى عهد الاغالبة
وتم تشييده عام ٢٠٦ هـ

الوحيد في وسط أحد الأضلاع . وفي داخل الفناء يوجد مصلى وحجرات للسكن والعمل . ويعتقد أن مخطط هذا الرباط مقتبس من القصور السورية التي أنشئت في العصر الأموي .

ويشتغل المرابطون بحراسة الثغور ، فيكلفون منهم حرساً دائماً في المنارة تراقب قدوم اسطول العدو ، وحرساً مستعداً للعمل على اسطحة الرباط . اما بقية سكان الرباط فيلتفتون الى الاعمال اليومية ، فيؤمنون الطعام والشراب والسلاح للمقاتلة ، وكل الاعمال فيه مجانية : الطبيب ، المعلم ، النساخ ، الكفاءون ، صانعو الورق ، المشرفون على الحمام الزاجل لتأمين البريد الجوي ، موقدو النار للتخاطب ليلاً بين الرباطات باشارات واصطلاحات فيما بينهم ... الخ كلهم يعملون ويعيشون في الرباط ويقدمون خدماتهم مجانا وتنفق الدولة عليهم كمجمـــوع ، ويتـبرع المحسنون لهم بالاراضي والاقطاعات ويحبسون لهم الاحباس والاوقاف .

الفصل السادس

الرسم والتصوير والنقش والنحت

النقش والتصوير وصنع التماثيل : حارب الاسلام عبادة الأوثان ، وحطم الرسول عليه السلام أصنام الكعبة يوم فتح مكة ، وتشدد الدين بخلو أماكن العبادة من صورة كل ذي روح ، وروي عن الرسول أحاديث كثيرة ، تحرم التصوير ، أو تجعله مكروها ، مما جعل المصور مغضوباً عليه من رجال الدين ، وعرضة لسخطهم وسخط المجتمع الذي يقوم على أساس الدين ، ولذلك لم يبلغ المصور في صدر الاسلام المرتبة الرفيعة التي بلغها غيره من المفكرين والأدباء ، فلم يعن المؤرخون بتدوين أخبارهم عنايتهم بغيرهم من الشعراء والادباء والعلماء والمفكرين ، واذن فليس غريباً ألا يصلنا سوى اسم كتاب واحد عن المصورين ، على كثرة ما وصلنا من كتب الطبقات . وهو « ضوء النبراس وأنس الجلاس في أخبار المزوقين من الناس » ذكره المقريزي في خططه .. ويظهر أن المصورين أنفسهم تأثروا بموقف المجتمع منهم ، فلم يبذلوا كثيراً من الجهد في تمييز أساليبهم أو في طبع انتاجهم بطابع ذاتي ، ولم يضعوا أسماءهم على الصور التي رسموها ، ولذلك أصبحت دراسة التصوير العربي الاسلامي قاصرة على الرسوم لا على المصورين ... وكانت النتيجة الطبيعية لهذه الأمور أن التصوير لم يستعمل لخدمة الدين فلم يدخل المساجد ، ولم يسهم في تجميل المصاحف ، ولم يستعمل في توضيح كتب الفقه أو الحديث أو المؤلفات الدينية ، وما وصلنا من صور تمثل الموضوعات الدينية كصور الأنبياء ،

شكل — ٥٢ —

صفحة من صفحات احدى مخطوطات كتاب كليلة ودمنة من عهد المماليك
رسمت واستنسخت عام ١٢٢٢م في شمالي العراق . وهكذا يلاحظ ان
المخطوطات العربية كانت تزدان بالصور والرسوم ، لا في
الابحاث العلميــة والطبية فحسب ، بــل في
الادب والقصص وغيرها ايضا .

وبعض الأحداث الدينية كالمعراج ، انما كانت من رسم فنانين مسلمين غير عرب ... وهذه النظرة العامة إلى التصوير جعلته فناً مدنياً في طابعه ينظر اليه كفن من فنون الدنيا لا كعمل من أعمال الآخرة ، اللهم سوى تلك الزخارف الهندسية والنباتية ومناظر الطبيعة العامـــة والتفنن بزخرفة الخط العربي وتنويعه وتحويله الى موضوعات زخرفية جميلة ، تسر العين بمرآها ، ويصعب أحيانا على الانسان العادي قراءتها لكثرة ماأصاب أحرفها من تحوير اقتضته التعبيرات الفنية .

على أن هذا الموقف الديني المناوىء للتصوير والنحت لم يقض عليه قضاء تاماً . وقد كشفت الآثار عن تماثيل وصور إسلامية ترجع إلى العصر

الأموي ، أي الى أواخر القرن الأول الهجري ومطلع القرن الثاني؛وأقدم الأمثلة على ذلك التصاوير الطينية التي نجدهـا في قصير عمرة (شرقي الاردن) وهو ملهى وحمام أموى على جدرانه صور مائية مرسومة على الجص لست شخصيات ملكية يلبسون ثياباً حسنة ، يصطف ثلاثة منهم في الأمام وقد مدوا أيدهم . ويقف الثلاثة الباقون خلفهم ، منها صورة الخليفة نفسه وأخرى لعدوه لذريق (آخر ملوك في اسبانيا) وتمثل البقية صور قيصر وكسرى والنجاشي وامبراطور الصين ، كما ذكرنا في بحث القصور . وهناك صورة رمزية تمثل الظفـر والفلسفة والتاريـخ والشعر كما توجد صورة نسـاء عاريات في حمام ، ومجموعة رجال نقوم بتدريبات رياضية . وفي صورة لمشهد صيد نرى أسداً واثباً على حمار وحشي . وفي مشهد آخر صور تمثل الراقصات والموسيقيين وأهل الطرب . ونجد مثل ذلك في قصر الحير الغربي الذي نقلت بقاياه إلى دمشق ، فعلى واجهته الخارجية عدد من التماثيل من بينها تمثال للخليفة حفظ لنا معظمه ، وفي داخل القصر تمثال للخليفة يركب الحصان عدا عدد من الصور تملأ الجدران وتمثل تارة فارساً في الصيد ، وتارة جوقة موسيقية ، ولعل أجملها صورة نصفية لامرأة تحمل سلة وقد التف حول عنقها ثعبان وفوقها مخلوقان خرافيان ، ويحد هذه الصورة شريط تزخرفه أفرع نباتية تؤلف دوائر ويتفرع منهـا عناقيد وأوراق نباتية ، وفي وسط هذه الصورة ميدالية يحف بها شريط من حبات اللؤلؤ . ويزين عنق الامرأة عقد من اللؤلؤ .

ولم تحو المساجد الأموية ، ولا غيرها ، أي رسم للبشر أو الحيوان . ولكن الأمويين رسموا على جدران الجامع الأموي بدمشق وقبة الصخرة بالقدس والمسجد النبوي بالمدينة ، زخارف بالفسيفساء وهي فصوص صغيرة أو مكعبات دقيقة من الزجاج ومن الحجر ومن صفائح من الصدف تلصق

بنظام على طبقة من الجص . ويراعي حين لصقها أن تكون مسطحة وفي وضع أفقي .

وقد صممت رسوم الفسيفساء بحيث تؤلف وحدة مع البناء وتنسجم مع التصميم المعماري ... وأكثرها زخارف نباتية تقرب هيئاتها في بعض الاجزاء من الطبيعة بحيث تصبح أقرب إلى صورة طبيعية منها إلى وحدة زخرفية ، ومن هنا اعتبرت هذه الرسوم من باب التصوير .

شكل ــ ٥٣ ــ
فسيفساء من قصر هشام بن عبد اللك
في خربة المفجر قرب اريحا بالاردن . بني حوالي سنة ٧٣٠ م

وتتألف رسوم فسيفساء الجامع الأموي من موضوعات مختلفة : بعضها يمثل زخارف نباتية وبعضها يمثـــل أشجاراً ومياهاً وقصوراً وعمائر ذات طوابق عدة ، ومن طراز معمارية مختلفة وحدائق مزدهرة مثمرة وجبالاً

وتلالأ ، وقد صورت مياه النهر باللون الأزرق النقي يتخلله قليل من اللون الفيروزي واللازوردي والسماني ... وتتناثر على سطح النهر حبات الزبد التي تتألق على حافة أمواجه بلونها الفضي . أما الأشجار فيميز منها أشجار غوطة دمشق كالسرو والحور والمشمش والجوز والتين والتفاح وقد لونت بالاخضر بدرجات مختلفة ، ترصعه بقع مدورة وبيضاوية ذات لون وردي أو أصفر تمثل الفاكهة والأزهار . وتمثل صور فسيفساء قبة الصخرة نخيلاً وأشجاراً تتدلى منها فاكهة على شكل عناقيد العنب أو عراجين التمر ، يشوبها زخارف ، اذ يلاحظ على سوق الشجر أو جذوع النخل زخارف مؤلفة من فصوص من الجواهر ، أو من حبات اللؤلؤ ، وتشبه بشكل عام مناظر المسجد الأموي ، بما يدل على أن المدرسة الفنية واحدة في المسجدين .

ولم تحل عداوة الفقهاء المتزايدة للفن التصويري دون ارتقائه بعد ذلك على أساليب إسلامية صرفة أو مقتبسة ، وقد أثر عن العهد العباسي أخبار كثيرة تدل على انتشار الصور وقبول التماثيل لدى الناس ، فقد أقام المنصور فوق قبة قصره ببغداد تمثال فارس بيده رمح ، وأنشأ الأمين حراقات على دجلة في أشكال الأسود والنسور والحيتان ، وجعل المقتدر في قصره تماثيل فرسان وطيور .

ومن آثار سامراء مناظر لراقصات ومغنيات يعزفن على الآلات الموسيقية ، ونساء شبه عاريات ، وأخريات يصطدن الوحوش ، أو كنيسة فيها رهبان ، ويظهر فيها جميعاً أثر الأسلوب الفني الساساني أو البيزنطي

وقد وصف لنا الشعراء العباسيون بعض القصور وما كان عليها من رسوم حيوانية أو آدمية . من ذلك :

صور ترى ليث العرين تجاهه فيها ولا يخشى سطاه صُوارُ (قطيع البقر)

وفوارساً شبت لظى حرب وما ... دعيت نزالِ ، ولم يُشن مغار

وموسدين على أسرة ملكهم ... سكراً ولا خمر ولا خمار

ويصف الشاعر عمر بن مسعود الحلبي حماماً بدمشق فيه صور ومما قاله :

وخط فيهـا كل شخص إذا ... لاحظتـه تحسبه ينطق

ومثل الأشجار في لونها ... ولينها لو أنها تورق

أخيارها من فوق اغصانها ... بودها تنطق أو تزعق

وهيئة الملك وسلطانه ... وجيشه من حوله يزعق

هذا بسيف وله عبسة ... وذا بقوس وبه يعلق

شكل ــ ٥٤ ــ

صحن من الخزف ، مزخرف بزخارف متعددة الالوان ، يمثل فارسا على فرسه ، وقد كثر هذا النوع من الزخارف في مختلف بـلاد العـالم الاسلامي . وهذا الصحن مصنوع في الريّ بايران في القرن الثالث عشر الميـلادي .

شكل ـ ٥٥ ـ

نموذج بديع ونادر ، من الرسوم البارزة في العصر الامـوي . وهو سقف قصر خربة المفجر الاموي الباقية آثاره حتى الان في الاردن ، يلاحظ فيه نقش بارز لرؤوس ست نساء بشكل زهرة . وقد وجد هذا الاثر الفني بحالة جيدة في غرفـة الاستقبـال الصغيرة بجوار الحمام وكانت خلفية النقوش البارزة ملونـة بشكل تبرز النقش وتكسبه جمالا ، ويرى الفنانون اثر الاسلوب الساساني في النقش وفي التزيينات من ورق العنب والاقنثا (نبات شوكي) والزهور المختلفة .

كما وصف الشعراء والكتاب الكؤوس المصورة والستائر والاواني الخزفية والنقود والاسلحة والمصابيح والخيام المملوءة بالصور .

وإذا انتقلنا إلى العهد الفاطمي والايوبي وجدنا في دور الآثار عدداً كبيراً من آثار هذين العهدين من صور إنسانية وحيوانية ، كما نقع على أخبار بعض المصورين ومنهم (الكتامي) صاحب صورة (يوسف في الجب) الذي صوره وهو عريان ومثله (القصير) الذي كان يباري الآخرين بالصور النافرة والغائرة . أما في الاندلس فأخبار التماثيل في القصور متوفرة ولعل أهمها أسود قصر الحمراء وتماثيل الزهراء .

وأهم ما وقع عليه الباحثون من آثار التصوير في العصور المتأخرة ، عدد كبير من المخطوطات العربية المزينة بالصور وأقدمها لا يرجع إلى ما قبل القرن الثالث عشر . مثل (كليلة ودمنة) و (مقامات الحريري) و (الاغاني) . وفي المكتبة الاهلية بباريس نسخة من المقامات ترجع إلى منتصف القرن السابع الهجري (١٣ م) فيها زهاء مائة صورة . وقد ظهر هذا الولع بتصوير الكتب في العراق خاصة وفي الشام ومصر أيضاً ، ثم تجلي هذا الفن وازدهر في فارس . ولعل ابرز اسماء الرسامين الذين زينوا الكتب هو محمود الواسطي .

مدارس الرسم والتصوير :

هذا ويجمل الفنانون خصائص الرسم والتصوير في العصور الاسلامية بعد بلوغ المسلمين درجة القمة الحضارية الفكرية والادارية في العصر العباسي ، بالمدارس التصويرية الآتية :

آ ـ مدرسة بغداد او مدرسة التصوير السلجوقية : القرن (٧ هـ/١٣م) وتتمثل فيما خلفه لنا رسامو هذه الفترة من صور داخل المخطوطات واكثرها ترجمات للقصص مثل كليلة ودمنة ، أو ترجمات لمؤلفات يونانية في علوم الطب والنبات والحيوان والطبيعة ، أو كتب أدبية كمقامات الحريري ، او مؤلفات اسلامية كعجائب المخلوقات للقزويني .

واقدم المخطوطات التي ترجع إلى هذه المدرسة كتاب في البيطرة كتب في بغداد سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٩م محفوظ اليوم بدار الكتب المصرية بالقاهرة وهو ترجمة لكتاب خواص العقاقير لديوسكوريدس . وتوجـــد مخطوطة اخرى لنفس الكتاب محفوظة في متحف طوب كوبو سراي في استانبول كتب سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤ م . وفي النسختين صور اطباء يحضرون دواء او جراحين يقومون بعمليات جراحية .

واقدم نسخة لمقامات الحريري ، التي تذكر مغامرات الحارث بن همام وابي زيد السروجي محفوظة في المكتبة الوطنيـة بباريس وقـد كتبت سنة ٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م ويظهر فيها التأثير السوري . وفي نفس هذه المكتبة نسخة اخرى كتبت ورسمت صورها سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧ م بريشة محمود الواسطي اشهر فناني هذه الفترة ، وفي صور هذه النسخة نشاهد مسلمي القرن الثامن عشر الميلادي في العراق وبقيـة الاقطار الاسلامية في مختلف نشاطـات

شكل ــ ٥٦ ــ
صفحة من صفحات نسخة من مقامات الحريري تمثل رجلين جلسا للشراب ، وهي من رسم فنان سوري ١٢٣٧ م ويلاحظ فيها اثر المدرسة العراقية . وقد ظهرت في سوريـة ومصـر عـدة نسـخ مصـورة للمقامات في عهد المماليك

شكل — ٥٧ —

نموذج من الرسوم الايضاحية من مخطوطات التاريخ الاسلامي وهي بريشة « رشيد الدين » عام ١٣٠٦م وتمثل معركة حربية ، ويلاحظ من ملامح الوجوه أن جيشاً عربياً بملابسه وأسلحته وهيأته يحاصر قلعةمغولية. والنص الاصلي ، التي كانت الصورة ايضاحا له ، يذكر عشرة آلاف فارس اجتمعوا تحت راية الامير نصر بن ناصر الدين وغيره وزعيم العرب وحاصروا المردة في قلعة ارك . سنة ٣٩٣ هـ .

شكل — ٥٨ —

صورة تزين نسخة من مخطوطة كتاب « مقامات الحريري » محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس ويشاهد فيها بائع وشاري في الاعلى ورجال ونساء في الأسفل ، وتظهر ملابس الرجال والنساء بوضوح وهي نموذج من الرسوم الايضاحية التي كثرت في المخطوطات العربية وتعطينا فكرة واضحة عن ملابس القوم في العصر الذي رسمت فيه .

الحياة : في المسجد ، في الحقل ، في الصحراء ، في الحانة ، في المكتبة في الافراح والاعياد والاحزان ...

وتمتاز هذه المدرسة بأنها عربية اكثر منها ايرانية ، وتلوح على الاشخاص مسحة راقية ، وتغطي وجوههم لحى سود فوقها انوف قني . مع مهارة في التعبير عن حالة الجماعات والافراد . ودقة في رسم دقائق زركشة الملابس وانواع الازهار والرياحين التي كان يكثر منها الناس في حدائقهم ومنازلهم .

واشهر رسامي هذه الفترة الواسطي الذي ذكرناه ، والذي تعتبر رسومه في مقامات الحريري صورة صادقة للحياة الاجتماعية في عصره . وعبد الله بن الفضل ، واشهر ما عثرنا عليه من رسومه ، نسخة من كتاب خواص العقاقير رسمه سنة ٦١٩ هـ / ١٢٢٢ م محفوظة في المكتبة الوطنية في باريس كانت تحوي ثلاثين صورة ، ولكن اكثرها اليوم موزع في عدد من متاحف العالم كاللوفر في باريس والمتروبوليتان في نيويورك .

شكل ـ ٥٩ ـ

من اكثر رسوم الرسام رشيد الدين تعبيرا ، هذه اللوحة التي تمثل سفيرا مسلما مع مرافقه في بلاط ملك الحبشة ويلاحظ في هذه اللوحة ، التي تزين احدى صفحات كتاب « التاريخ العام » المنسوخ في تبريز عام ١٣٠٦ م ، اثر الفن الصيني، وبروز ميزات مدرسة ما بين النهرين الفنية معا.

ب ــ المدرسة الايرانية المغولية (القرن ٨ هـ/ ١٣-١٤ م) : ويظهر في هذه المدرسة اثر الواقعية في المناظر الطبيعية الصينية . واقدم مخطوطة من هذا العصر نسخة ايرانية من كتاب منافع الحيوان لابن بختيشوع محفوظة في مكتبة مورجان بنيويورك . واشهر الرسوم ما وجد في كتاب « جوامع التاريخ » للوزير المؤرخ رشيد الدين . وبين ايدينا اربع مخطوطات منه : إحداهـا كتبت ورسمت سنة ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٧ م ومحفوظة في مكتبة جامعة ادنبرة وثانيتها مؤرخة سنة ٧١٤ هـ/ ١٣١٤ م ومحفوظة في مكتبة الجمعية الملكية الآسيوية بلندن . والنسختان الاخريتان محفوظتان في مكتبة طوب كوبو سراي في استانبول . وتمتـــاز جميع الصور باستطالة رسم اجسام الرجال الذين تبدو على سحنهم مسحة انسان .

ويلاحظ على صور هذه المدرسة اضافـة إلى الاثر الصيني في الرسم والتكوين وتضمينها صور الحيوانات الخرافية الصينية ، مزيج في غطـاء الرأس ، فللمحاربين انواع كثيرة من الخوذات ، وللنساء قلنسوات مختلفة بعضها مزين بريش طويل ، وللرجال ضروب شتى من القلنسوات والعمائم ؛ تساعد هذه الرسوم على معرفـة انواع الملابس والمودات في القرن الذي رسمت فيه .

حـ ــ مدرسة التصوير التيمورية في إيران (هراة) القرن ٩ هـ/ ١٥ م كان تيمورلنك قد اتخذ سمرقند عاصمة له وجمع فيها اشهر الفنانين واصحاب الصناعات الدقيقة ، ولكن عمله لم يقض على تبريز وبغداد كمركزين فنيين في العالم الاسلامي ... ولم يصلنا شيء يذكر من انتاج سمرقند في الرسم ، وإنما الذي وصلنا من انتاج مدينة « هراة » بخراسان التي جمع فيها ابن تيمور وخليفته ويدعى شاه رخ الفنانين وخاصة النساخ والرسامين لتزويد مكتبته بالمستنسخات ، وكان ممن رسم له الكتب المصورة « خليــل »

الذي اعتبر واحداً من عجائب عصره . وقد اسس ابن شاه رخ ويدعى ميرزا مكتبة ومعهداً لفنون الكتابة ، عمل فيه اربعون فناناً بين مصور ومذهّب وخطاط ومجلد ، ومن المصورين : امير شاهي وغياث الدين . وأكثر انتاجهم كان في تصوير الشاهنامة وكتب الشعر العاطفي والتصوفي لمشاهير الشعراء الايرانيين أمثال نظامي وسعدي .

وصور هذه المدرسة مليئة بمناظر الزهور والحدائق ، وجمال فصل الربيع ، والأشجار الطبيعية ، وأشكال الطبيعة من جبال وتلال . . . كلها بألوان ساطعة لا يكسر من حدتها تدرج ما .

يضاف إلى هذا بعض الصور العلمية لمخطوطة كتاب مجموعات النجوم لعبد الرحمن الصوفي المحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس رسمت عام ٨٤١ هـ/ ١٤٣٧ م . وفيها كثير من الصور الآدمية والطيور والحيوانات التي توضح أسماء النجوم والمجموعات الفلكية .

د ــ مدرسة بهزاد : وتنتسب إلى كمال الدين بهزاد الذي لقب بمعجزة العصر والذي نشأ في هراة ، ولكنه أدخل على الرسم والتصوير كثيراً من التطوير . ويعتبر بهزاد من أوائل المصورين المسلمين الذين وضعوا تواقيعهم على آثارهم الفنية ، وقد تبيّن لنا أن كثيراً مما وصلتنا من صوره ، لم يكن النسخة الأصلية ، وإنما صور منقولة عنها ، احتفظ النساخون بالتوقيع الأصلي .

وامتاز بهزاد بمقدرته على مزج الألوان والتعبير عن الحالات النفسية المختلفة ، ويقول أحد الكتاب في وصف رسم هذا الفنان : « انك لتحس أمام آثاره الفنية أن بين يديك صوراً ارستقراطية بهدوئها وبحسن الذوق وإبداع التركيب فيها ، وبدقة الزخرفة وانسجامها ، مما يشهد ان بهزاد كان

شكل ـ ٦٠ ـ

صفحة من كتاب مجموعات النجوم لعبد الرحمن الصوفي ، وهو مخطوطة محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس رسمت عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م وفيها بعض مجموعات النجوم ، رسمت على شكل اناسي وحيوانات وشرحت شرحا فلكيا علميا .

المصور الكامل الذي انتهى على يديه تطور التصوير الايراني في عهد المدرستين : الايرانية المغولية ، ثم التيمورية فبلغ التقدم منتهاه » .

هـ – مدرسة بخارى : ازدهرت في بخارى (القرن ١٠ هـ / ١٦ م) مدرسة فنية متأثرة بالمدرسة التيمورية وبهزاد وتلاميذه . وكثرت فيها المناظر الغرامية . ويتميز غطاء الرأس في هذه المدرسة بأنه يكون من قلنسوة مرتفعة ومضلعة ، وتحيط العمامة بجزئها الأسفل . ومن الصور الشهيرة لهذه المدرسة منظر سلطان سوري يناقش درويشاً في حديقته ، استخدمت فيها ألوان زاهية تشبه ألوان المينا ، وفيها لون أحمر قرمزي ساطع يعد من مميزات مدرسة بخارى .

و – المدرسة الصفوية : رعت الدولة الصفوية الفنون ، كما رعت العلوم والآداب ، وتبارى الرسامون في تصوير نسخ شاهنامة الفردوسي التي عني بها جميع فناني المدارس التي ذكرناها ، ولكن ظهر الميل في هذه الفترة إلى تصوير الدراويش والأمراء في ثيابهم الأنيقة واصبح ذلك من الموضوعات المفضلة ، وظهر نوع جديد من العمائم الكبيرة ذات الريش والأزهار .

ز – المدرسة التركية : أكثر رسامي هذا العهد ، غير أتراك ، فكانوا أخلاطاً من أمم شتى ، فصورة السلطان محمد الفاتح المعروضة في المتحف الوطني بلندن ، من رسم المصور الايطالي جنتلي بلليني عام ١٤٨٠ م ورسامو مخطوطة تاريخ سلاطين آل عثمان ومخطوطة سليمان نامة إيرانيون ، وأن ظهر التأثير التركي بشكل الملابس التركية المختلفة في العصور الأولى ، وامتازت رسوم هذه المدرسة باللون الأخضر الزاهي المائل إلى الاصفرار .

ح – المدرسة المغولية الهندية : يعد تصوير المتصوفين والنساك والهنود وهم يحادثون الأمراء والأشراف من أكثر الموضوعات التي طرقها رجال الفن في الهند في العصر المغولي ، كما بلغ تصوير الأشخاص القمة في هذه المنطقة .

الفنون الجميلة
الكتابة والخط

الفصل السابع

الكتابة والخط

يجمع الباحثون أن الكتابة نشأت وتطورت في أرض الوطن العربي القديم ، وأن مراحل إيجاد الأبجدية تم على الأرض العربية القديمة ، سواء ابجدية سيناء ، او أبجدية جبيل أو أبجدية رأس شمرا ، وهي أتمها وتعتبر ام الأبجديات العالمية . وإذا ما تجاوزنا الكتابات القديمة كالهيروغليفية وتطورها والمسمارية ، فاننا عثرنا على عدد من الكتابات العربية القديمة ، وإذا كان الخط الآرامي يعد جدّ الخطوط العربية ، إذ تفرع عنه الخط النبطي الذي يعد أقرب ما يكون للخط العربي عند أول عهد اتصال حروفه العربية بعضها ببعض ، فان عدداً من الخطوط الأخرى استعملت في جزيرة العرب مثله وهي :

الخط المسند الصفوي نسبة إلى جبل الصفا(في جبل الدروز السوري حالياً) .

الخط الثمودي نسبة إلى ثمود (مدائن صالح) .

الخط اللحياني نسبة إلى بني لحيان .

الخط الحميري والخط السبئي نسبة إلى حمير وسبأ .

الخط الحيري نسبة إلى الحيرة والانبار ، وهو الخط الذي انتقل إلى عرب الحجاز في الجاهلية ، وكان بغير نقط[1] .

(١) يحدد تطور الخط العربي د.محمد الطاهر احمد مكي بالشجرة التالية :

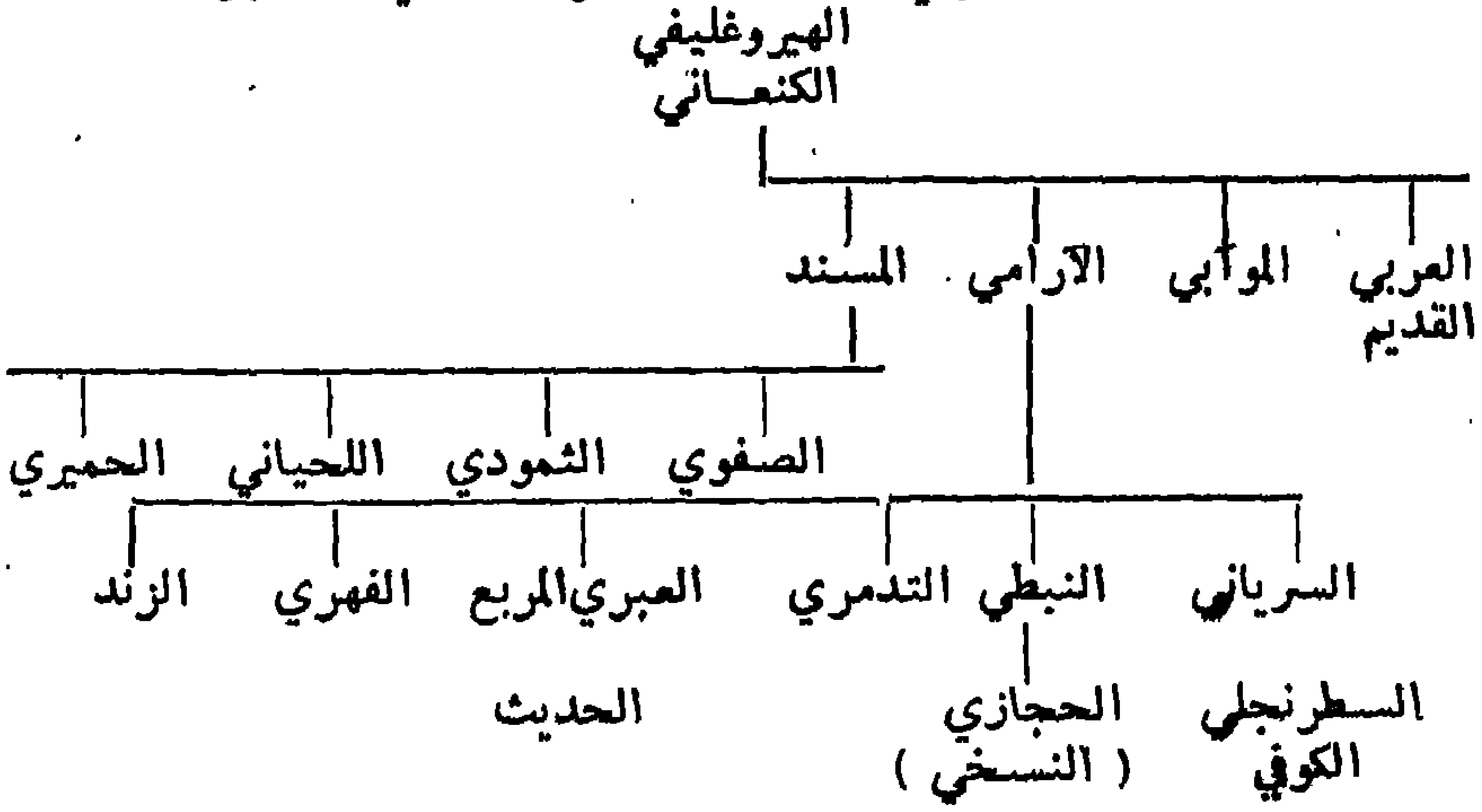

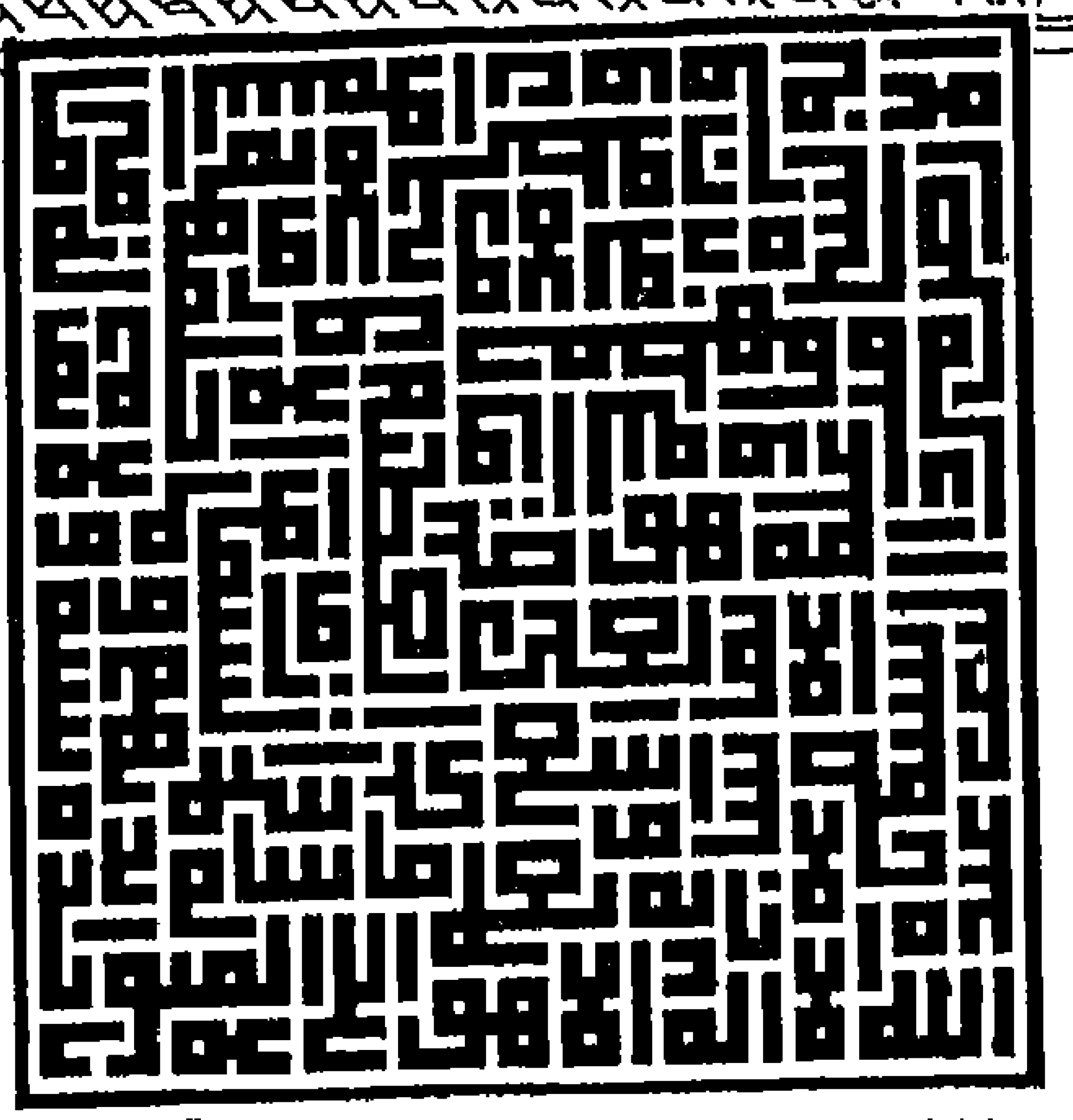

« آية الكرسي » باسلوب بديع ، فيه وضوح الكلمة، وجمال التنسيق ووحدة الزخرفة ..

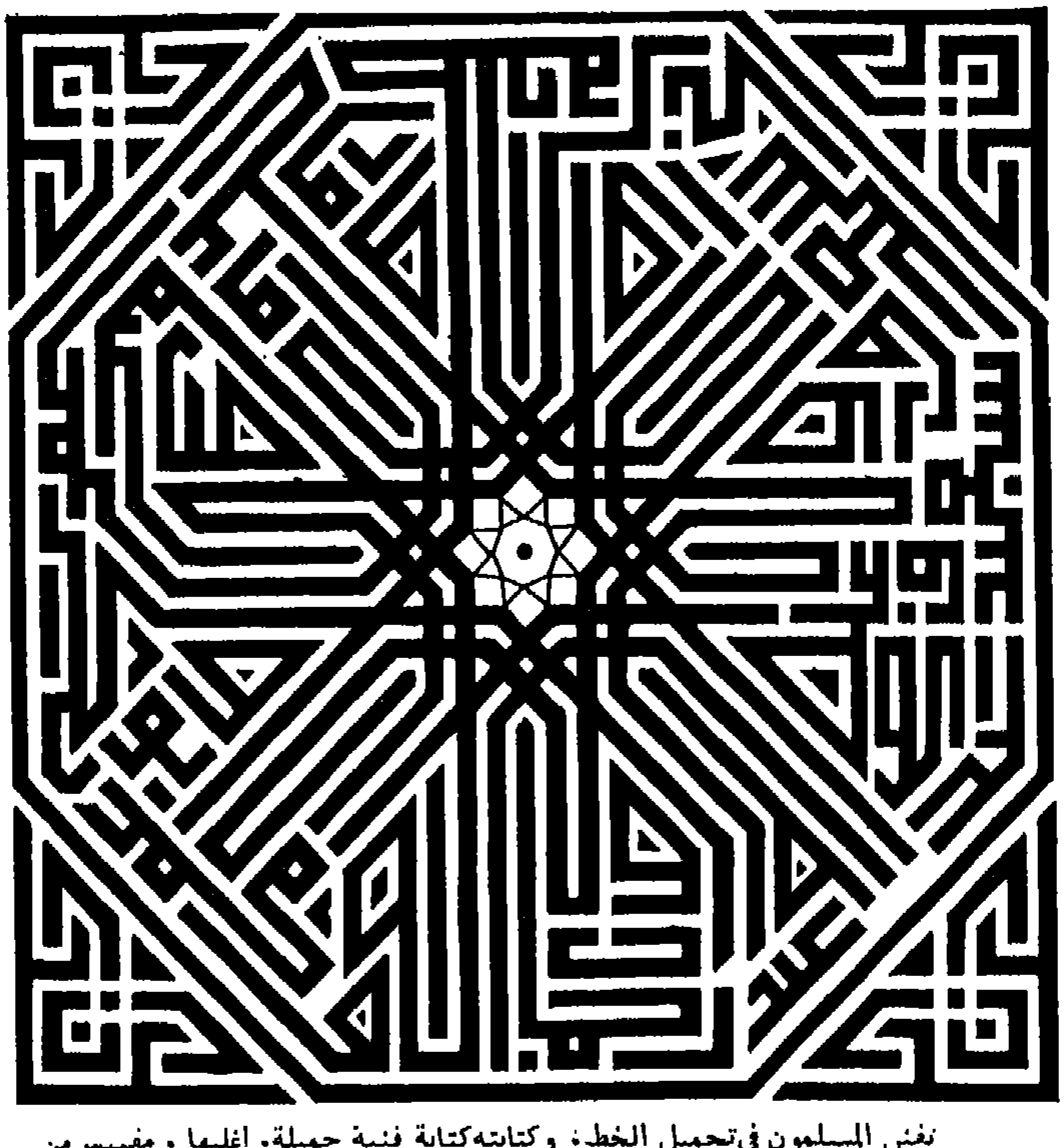

تفنن المسلمون في تجميل الخط، وكتابته كتابة فنية جميلة. اغلبها . مقتبس من آي الذكر الحكيم او الادعية ، او ما يمت الى الصحابة بصلة ، وقد ذهبت البسملة بالجزء الاكبر من اهتمام الخطاطين المسلمين ، بما ترى ، نماذج منها في تضاعيف هذا الكتاب . وقد ملأت الكتابات الجميلة دنياهم ، وازدانت بها مساجدهم وقصورهم ، ومختلف عمرانهم ، وكتبهم ، وأثاثهم ..

وهذه قطعة تزيينية جمعت اسماء الصحابة العشرة المبشرين بالجنة . فيها التناسق والتكامل ، ورغم اختلاف الاسماء وعدم تكرارها ، كما هو الحال في الكثير من القطع الاخرى .

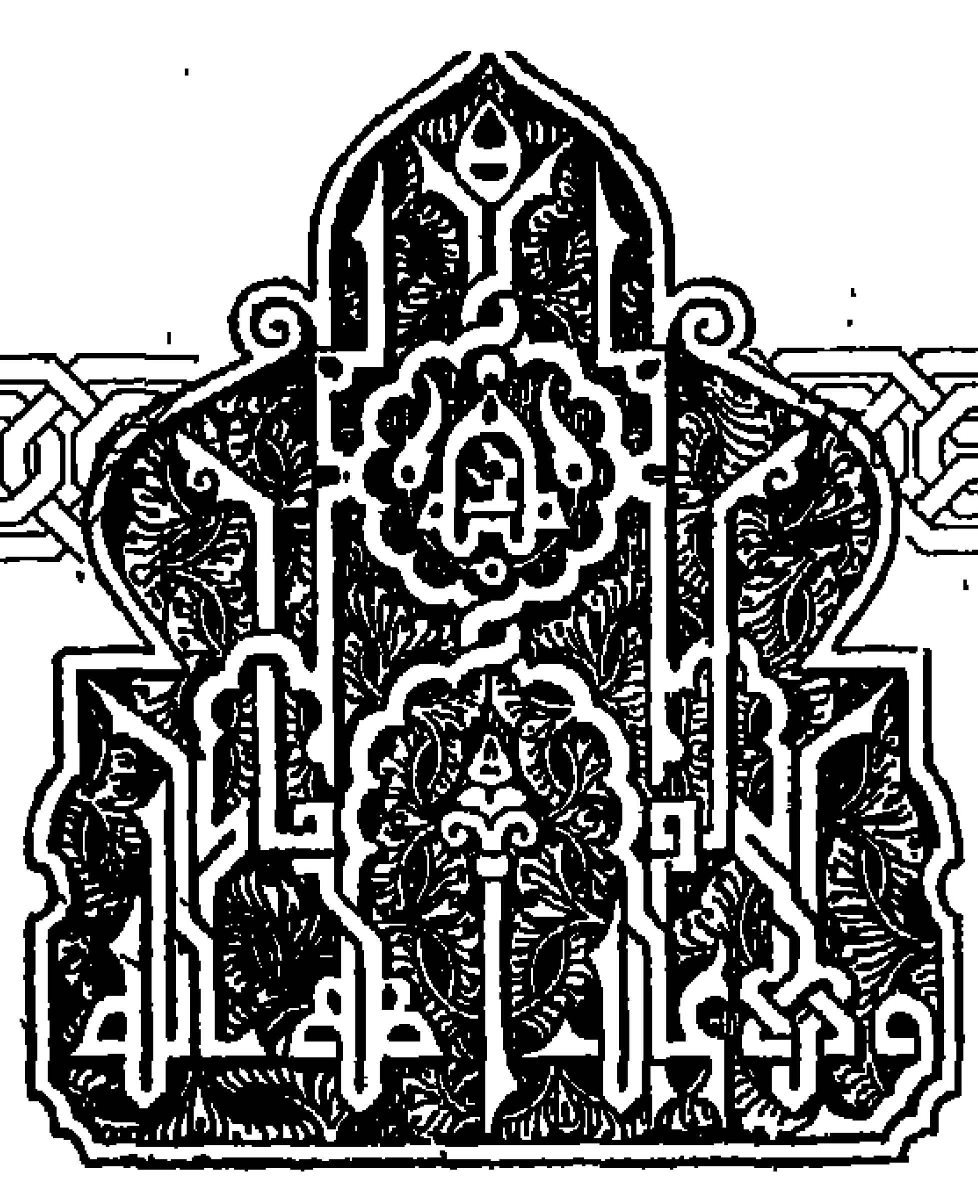

« ولا غالب الا الله » جملة تفنن مسلمو الاندلس بكتابتها ونقشها في جميع أعمالهم الفنية المعمارية خاصة . وهذا الشكل يمثل كتابة كوفية أندلسية على هيئة أقواس ، وضعت في مداخل المسجد . والزخرفة التي تتخللها قد ملئت بخطوط وريقات رسمت على طريقة « تسهيم » بخطوط كالسهام مما جعل الزخرفة تمتاز بحسن التوزيع والتناظر والتحوير عن الطبيعة ، فأكسبها طابعا هندسيا نباتيا (عن مصور الخط العربي لناجي زين الدين) ..

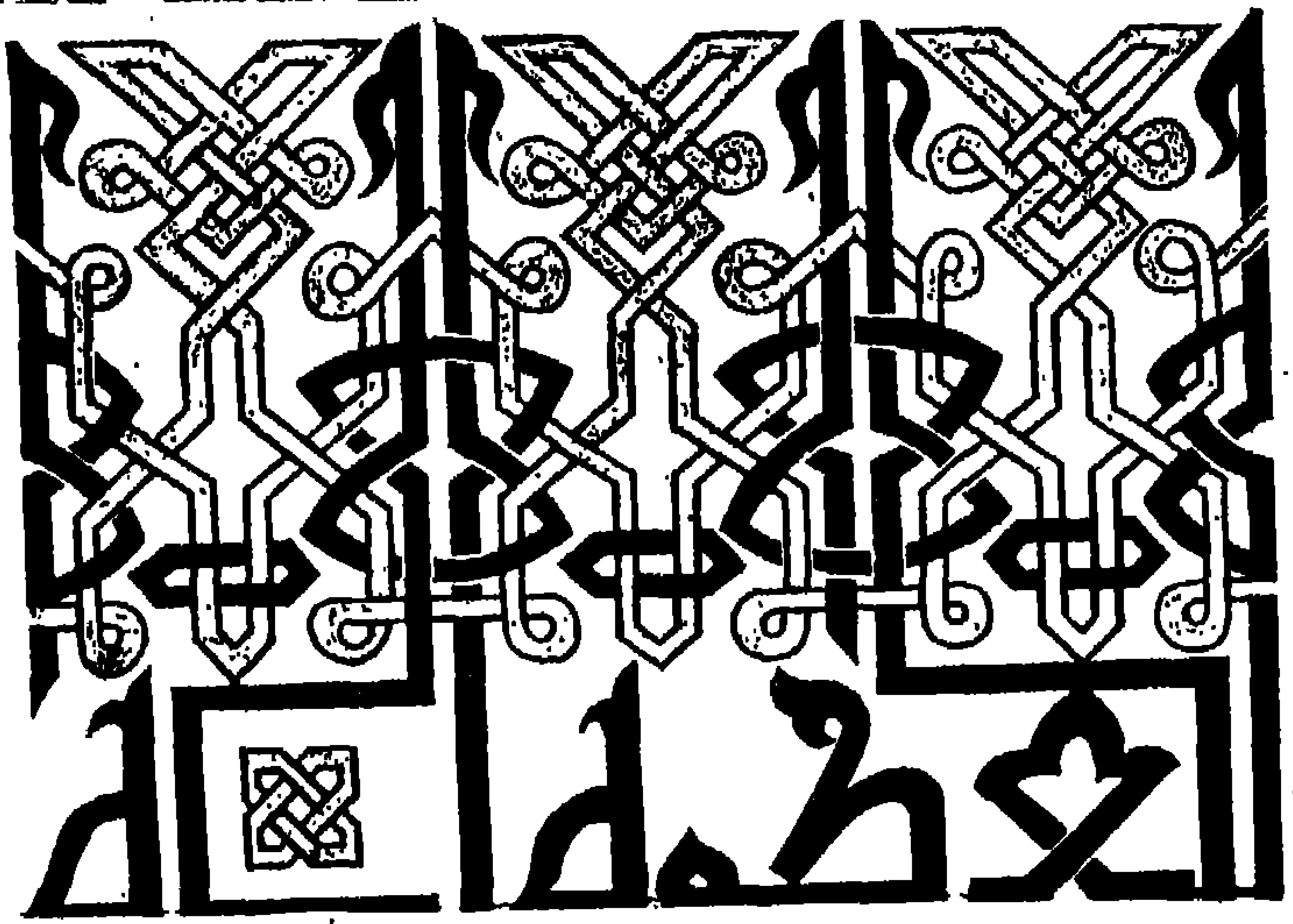

اتخذ الفنان من جملة « العظمة لله » موضوعا زخرفيا متتابعا جمع بين الكتابة الدينية والرسوم الهندسية

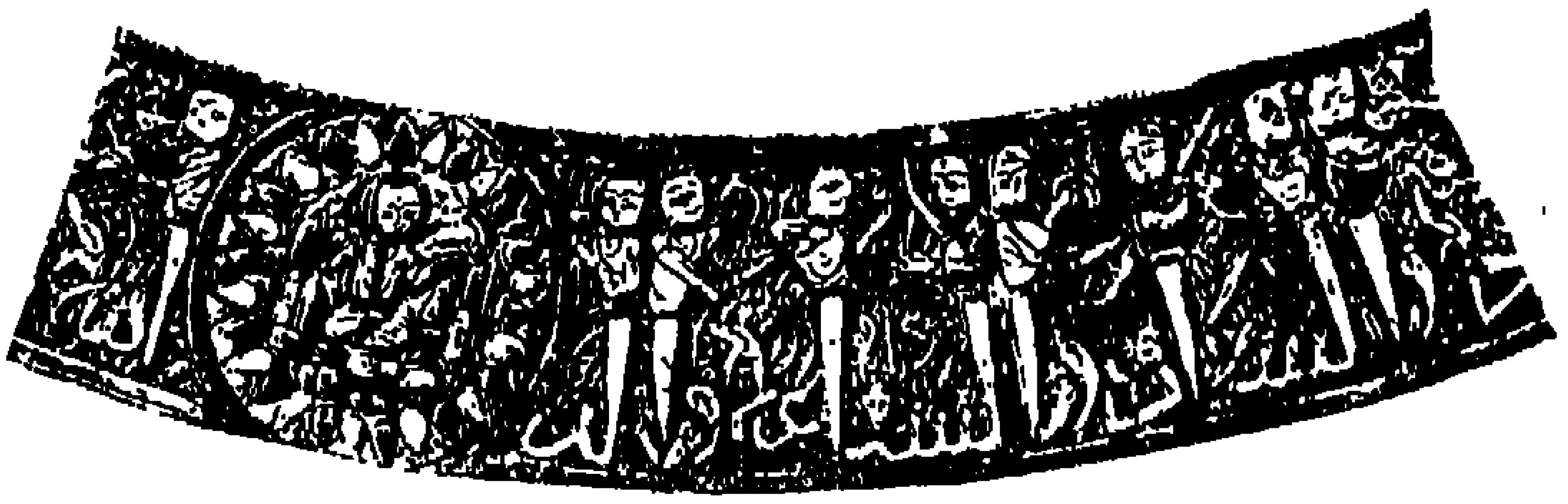

اتخذ الفنان المسلم من الاحرف العربية ، والكتابة العربية مواضيع زخرفية بشرية وحيوانية ، فجعل رؤوس الاحرف على شكل وجوه كما في زخارف ونقوش انـاء معدني زين بكتابات عربيـة من صنع هراة في القرن الحادي عشر الميلادي

يذكر القلقشندي « إن أول من وضع الخط والحروف الهجائية العربية ستة نفر من طسم من العرب البائدة كانوا نزولاً عند عدنان بن أدد فكانت أسماؤهم : أبجد ، هوز ، حطي ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، فوضعوا الخط على أسمائهم ، فلما وجدوا في الالفاظ حروفاً ليست في أسمائهم ألحقوهـا بها وسموهـا الروادف وهي ثخذ ، ضظغ . والواقع أن هذه الروادف ليس لها نظائر في أبجدية اللغات التي تطورت عنها الكتابة العربية وأخذت عنها .

وتروي كتب الادب أن ترتيب الابجدية العربية الهجائي حدث في عهد عبد الملك بن مروان ، على يد نصر بن عاصم ، ويحي بن يعمر ، وهو ترتيب مبني على تقارب أشكال الحروف ، بينما اعتمد مؤلفو المعاجم الأوائل على ترتيب بالنسبة لمخارج الحروف من الحلق أو الفم وكانت على هذا النحو : حروف المدّ (الألف والواو والياء) ثم الهمزة فالعين فالغين فالحاء ثم ت ، ك ، ج ، ش ، ي ، ض ، ل ، ن ، ط د ت ، س ، ز ، ظ ، ذ ، ث ، ف ، ب ، م .

وقد تطور الخط العربي بعد الاسلام فصار إلى ما صار اليه من إتقان وزخرفة فبعد أن كان الخط الحيري الانباري قسمين : الخط المقور ويسمى

النسخي والخط المبسوط ويسمى باليابس . وقد كتب كتاب الوحي للنبي عليه السلام بالخط المقور النسخي ، وبه كتب زيد بن ثابت صحف القرآن الكريم ، وكان تجويد هذا الخط يقسم إلى مكي ومدني ، ثم بدأ الخط في الكوفة فظهر الخط الكوفي ، ومازال المسلمون يجودون الخط ويعنون به ، ويرقون به حتي أصبح له سبعة أنواع رئيسية هي : الثلث ، النسخ ، الرقعة ، الديواني أو الهمايوني ، الفارسي ، الأجازة او التوقيع ، والكوفي ، ويتفرع كل خط منها إلى فروع متعددة ونحن لا يعنينا هنا الخط ككتابة لها معاني بقدر ما يعنينا تجويد رسم الحروف باشكالهـا المختلفة .

ونحن لانقصد بالخط الكتابة بقدرمانقصد تجويد رسم الحروف بأشكال مختلفة وهو فن إسلامي خالص ، وجد به المسلمون منفذاً للتعبير عن رغبتهم في إبداع الجمال وتذوقه حين كان التعبير عن ذلك بالتصوير وتمثيل الكائنات الحية أمراً مكروهاً من المتدينين .

وبدأ تجويد الخط في الكوفة ثم في الشام ولكن فن الخط إنما ازدهر في القرن الثاني الهجري فلم يأت القرن الثالث حتى أصبح أشرف فن يرغب فيه ، إذ كان من أغراضه أن يخلد كلام الله في الصحف . وقد جاء في القرآن الكريم تأييد لتلك المكانة قوله تعالى « : ن . والقلم وما يسطرون » وفي أول آية أنزلت « إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . ولهذا السبب احتل الخطاطون مكانة أعلى بكثير مما كان للمصورين ، حتى كان الأمراء والكبار في الدولة يسعون لنيل الحظوة الدينية بكتابة القرآن .

وقد ظهرت مع تفنن الكتاب ، وضرورات الحاجة وتغير الزمن أنواع مختلفة من الخط بقي لنا منها : الثلث والكوفي بأنواعه والنسخي (كأحرف الطباعة) والرقعي (كخط الكتابة) والديواني بأنواعه

(وقد كانت تكتب به المراسيم السلطانية) والفارسي أو التعليق . ولكل نوع من هذه الأنواع قواعده واساوبه ونسبه وآدابه وقد بلغت الغاية في الدقة والأحكام .

وتحفظ لنا كتب الأدب والتاريخ أسماء عدد من الخطاطين ممن أغدقت عليهم النعوت الطيبة بخلاف أصحاب هندسة البناء والمصورين وصناع الأواني المعدنية الذين أسدل التاريخ حجابه على ذكرهم .

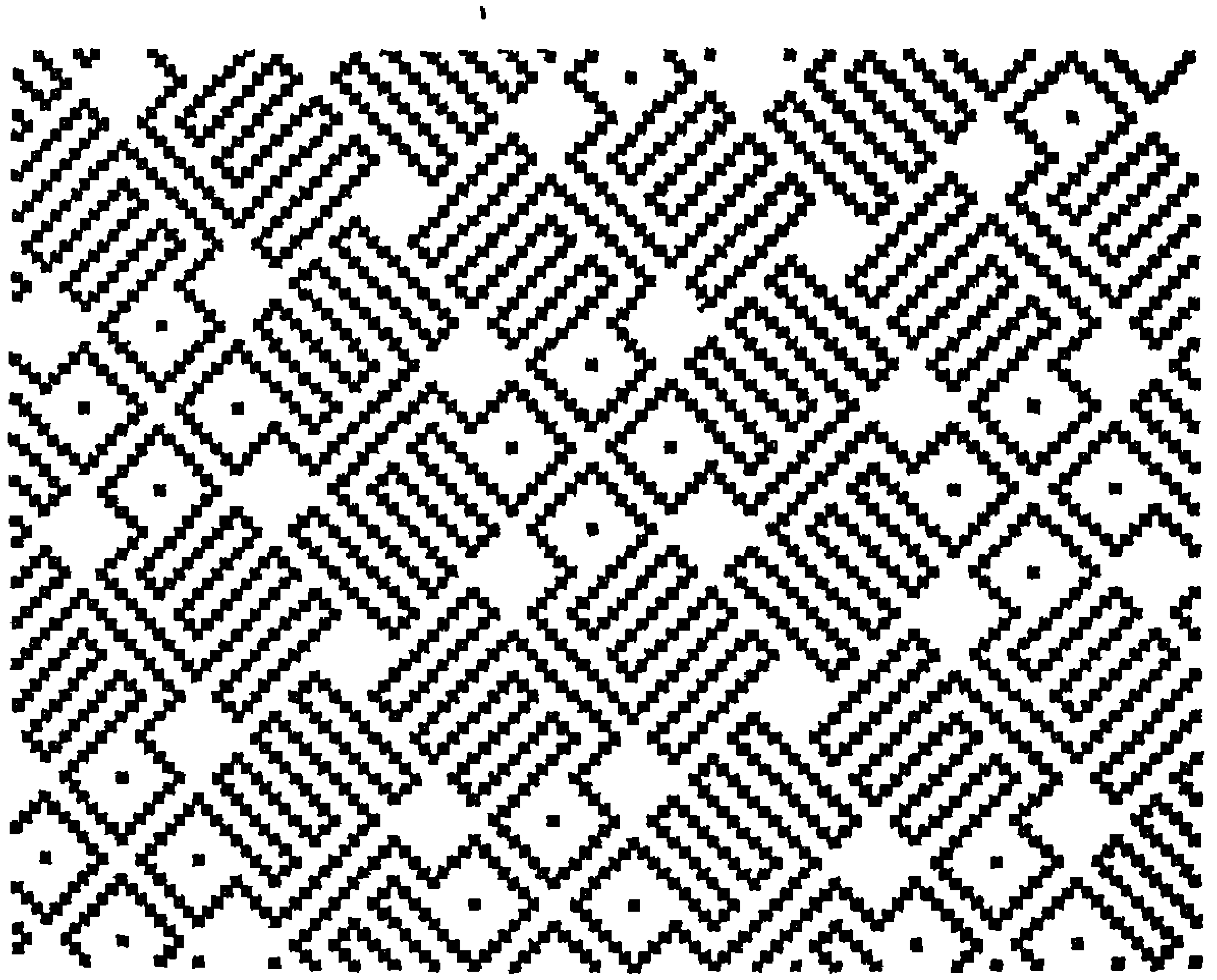

التجميعة الرباعية البارزة على الاسطوانة العليا لجامع عادلة خاتون الكبير.

شكل — ٦٥ —

من دراسة زخارف المآذن (المنارات) في العراق وايران وتركستان المبنية من الآجر ، يتبين انها كانت تخضع لقواعد فنية ممتازة ، وكانت تعتمد الكتابات بشكل تجميع ثلاثي حيث تتكرر الكلمة ثلاثا ، أو تجميع رباعي وهو الاكثر شيوعا حيث تتكرر الكلمة أربع مرات بأربع اتجاهات ، ومنارة جامع عادلة خاتون الكبير في بغداد ، نموذج للتجمع الرباعي ، حيث يشاهد بالشكل لفظ الجلالة يتكرر بالآجر الملون البارز ويعطي شكل المنارة الزخرفة الخاصة بها

(٣) (٢) (١)

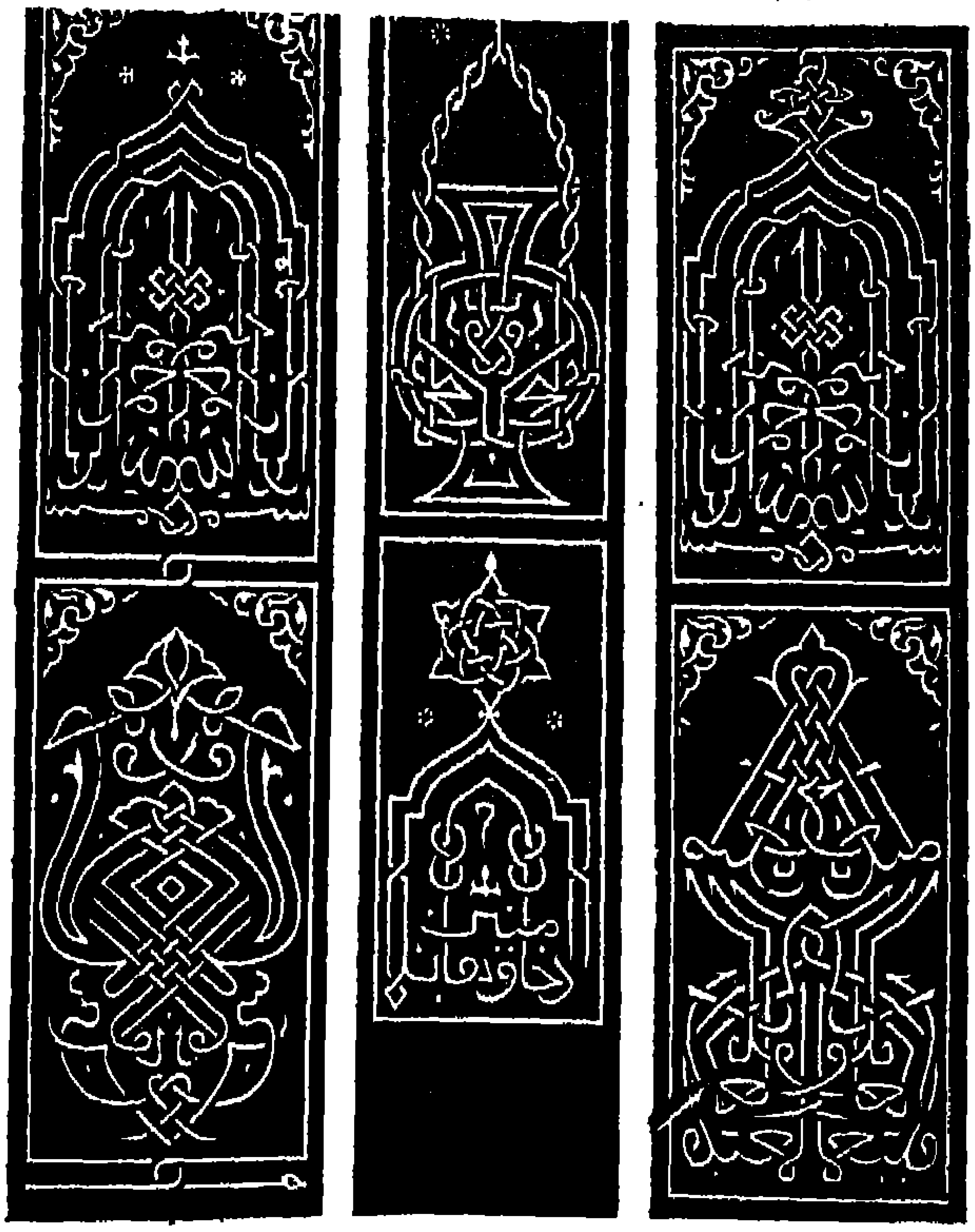

(٦) (٥) (٤)

كتابات مزدوجة متعاكسة على هيئة زخارف عربية اسلامية من القرن العاشر الهجري. نصوصها هي : ١- بسملة ، ٢- يا مفتح الابواب ، ٣- بسملة ، ٤- لمثل هذا فليعمل العاملون ، ٥- ادخلوها بسلام آمنين ، ٦- كل شيء هالك الا وجهه

ومن الخطاطين القدامى قطبة المحرر ، من أواخر العهد الأموي وتلاه رجلان من أهل الشام تنسب إليها هندسة الحروف العربية : أحدهما الضحاك الذي عاش حتى عهد السفاح ، والثاني إسحق بن حماد وقد أدرك خلافة المهدي . وتفنن الاثنان فيما ابتكر قطبة من أقلام . ويقال إن جهدهما قد انتهى بالأقلام العربية إلى أن صارت اثني عشر قلماً منوعاً .

ومن واضعي أسس فن الخط : « الأحول المحرر » من صنائع البرامكة الذي ابتكر عدداً من الخطوط ؛ و « الريحاني » الذي زها في عصر المأمون وتوفي سنة ٨٣٤م بعد أن ابتكر اسلوب الخط المعروف باسمه . والشائع أن جودة الخط قد انتهت على رأس المائة الثالثة إلى الوزير أبي علي محمد بن مقلة ، الوزير العباسي المشهور الذي ضبط هندسة الخطوط ونسبها ، وابتكر أخوه عبد الله « الخط النسخي » . وقد أمر الخليفة بقطع يد ابن مقلة عقاباً له ذات يوم فلم يمنعه عن تجويد الخط بيسراه بل كان يشد القلم على ساعده الأيمن ويكتب به أيضاً .

ومن الخطاطين في العراق أبو الحسن علي بن البواب (المتوفى سنة ١٠٢٢ أو سنة ١٠٣٢ م) نسبة لأبيه الذي كان يلازم باب الخليفة في بغداد وهو واضع أسلوب الخط المعروف بالمحقق . وآخر من برع من أصحاب القلم لدى العباسيين ياقوت المستعصمي خطاط آخر خلفاء بني العباس واليه ينسب الخط الياقوتي . وقد وصلنا عدة آثار منه .

وقد ظهرت عناية الشام بالخط منذ أواخر القرن الخامس الهجري فظهرت فيها أشكال جديدة من الخطوط أهمها خط النسخ ، وهو ابتكار سوري ، وخط (الطومار) ومشتقاته . وهجرت خطوط الكوفة في كتابة المصاحف وحلت محلها الخطوط اللينة كالخط النسخي الأتابكي الذي ساد في العصر الأيوبي والمملوكي .

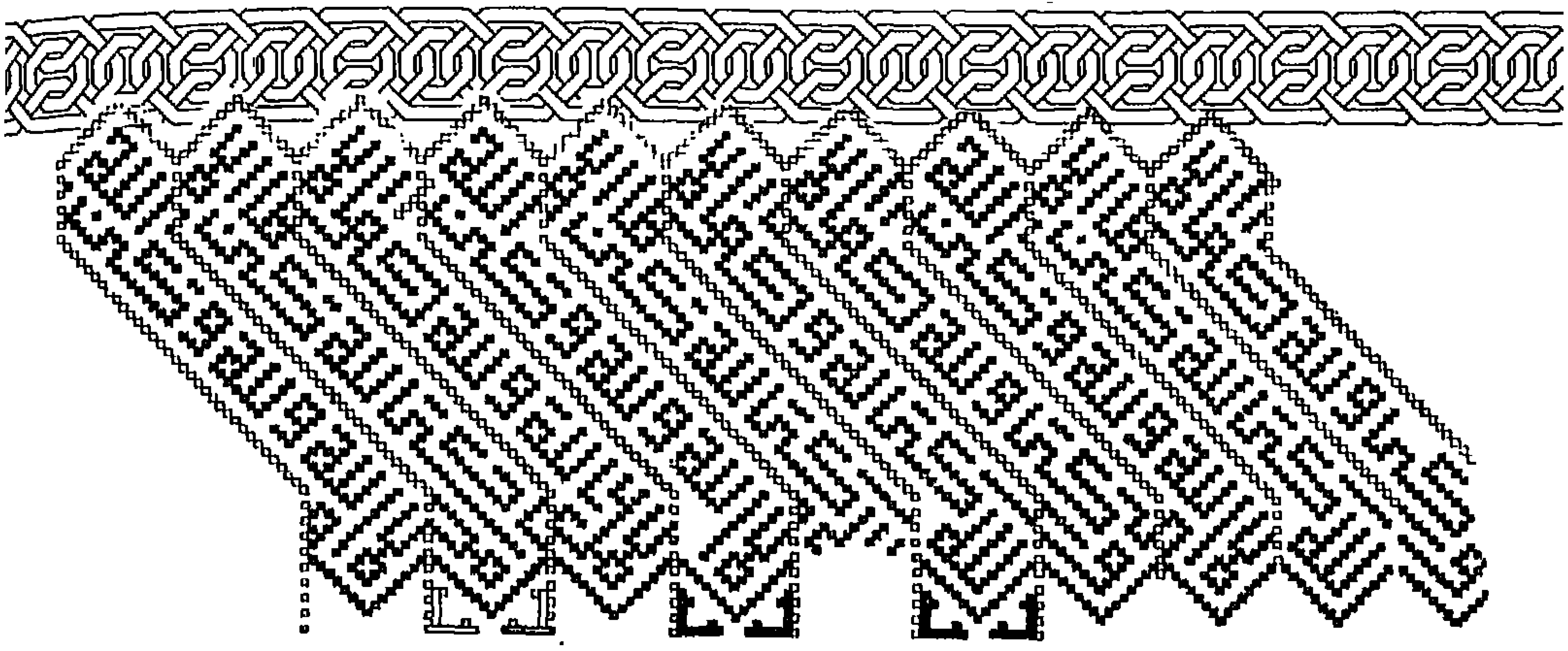

شكل — ٦٧ —

خضعت زخارف المنائر (المآذن) المبنية من الآجر في العراق وايران ، كما خضعت نصوصها من حيث الشكل والنهج الى قواعد معينة جعل منها طرازا ثابتا على مستوى فني رفيع . ففيها تكرار لكلمة أو جملة، وفيها تجميع ثلاثي أو رباعي لها ، وبها تكرار تناظر . وهـذا الشكل يمثل النصوص الواردة على منارة جامع الحيدر خانـة في العراق (مقتبسة من كتاب البعد الواحد لشاكر حسن آل سعيد)

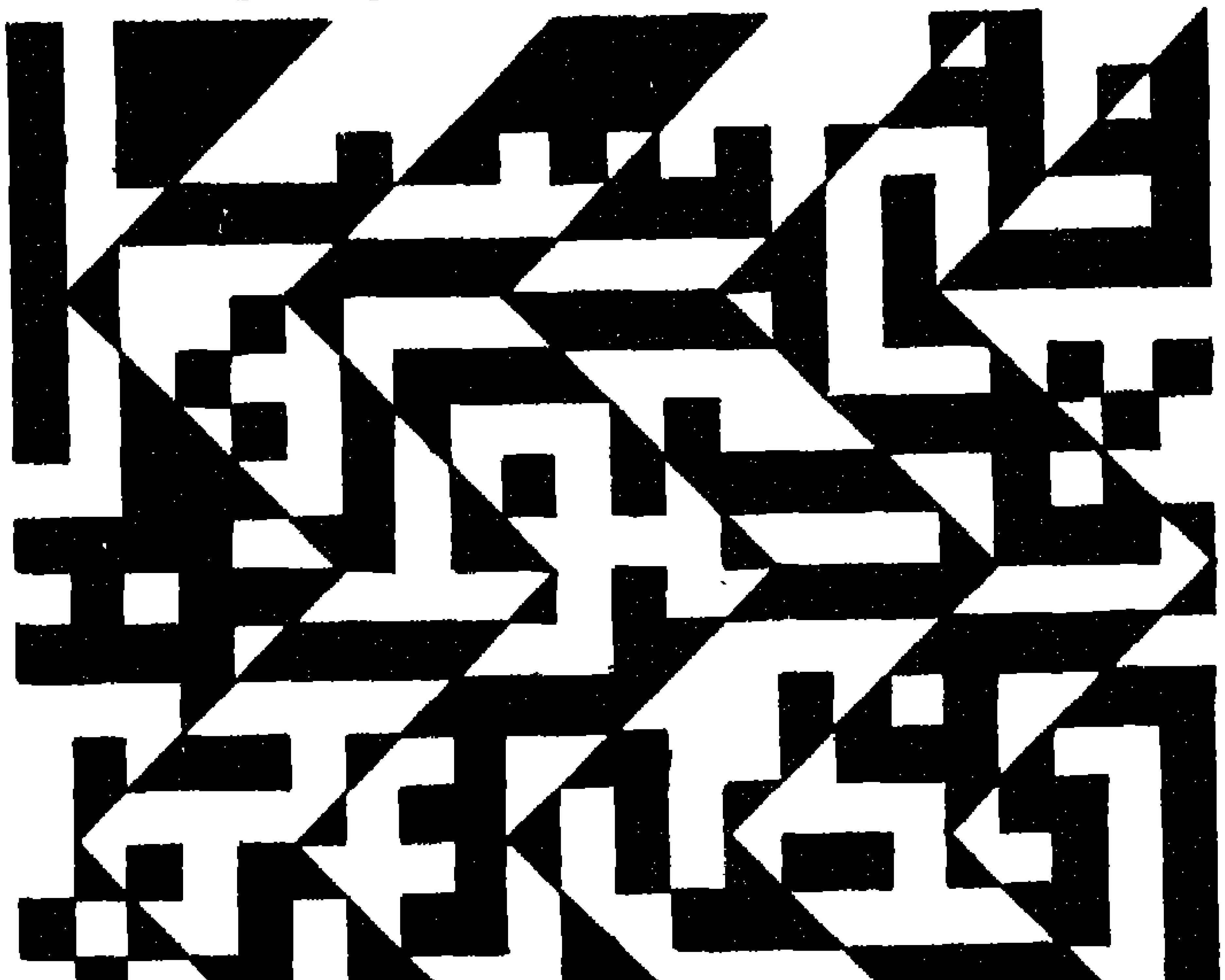

شكل — ٦٨ —

رسم تجريدي حديث من عمل طلاب فرع الخط بمدرسة الفنون الجميلة في الدار البيضاء — المغرب وهو مستوحى من الخط العربي الكوفي ، وقـد عرضت هذه اللوحة تحت شعار « في سبيل تطوير الخط العربي »

وهكذا نلاحظ أثر الخط العربي في الزخرفة الكلاسيكية الاسلامية وقابليته للزخرفة التجريدية

شكل — ٦٩ —

نموذج من الخط الكوفي النيسابورى ، وهو من الخطوط النادرة . وتنص هذه الصفحة قوله تعالى : « والله يعلم ماتسرون ومـــاتعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون » .

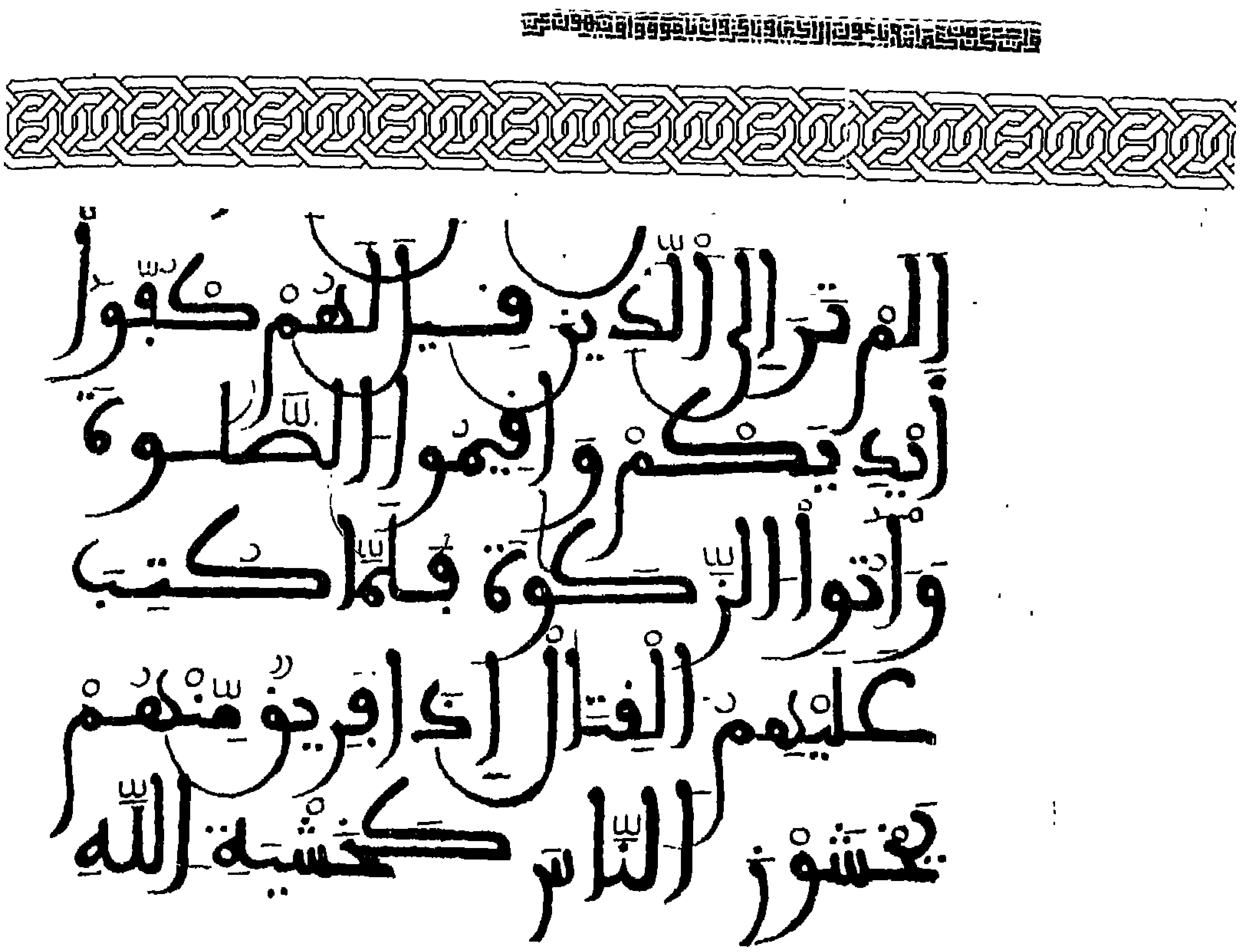

شكل ــ ٧٠ ــ

صفحة من مخطوطة مصحف نادر ، مكتوب بالخط الاندلسي

وفيها الآيات ٧٥ ــ ٧٧ من سورة النساء

أما في مصر ، فقد برز منذ العصر الطولوني الخطاط (طبطب) الذي جاء على رأس المدرسة المجودة للخط حتى نافست مصر دولة العباسيين في ذلك ، وفتحت مدارس لتعليم الخط ظلت عامرة حتى العهد المملوكي ، ومن أشهر رجالها ابن أبي رقيبة وشمس الدين الزفتاوي .

وأما تطور الخط في المغرب والأندلس فقد اتبع طريقاً خاصاً يظهر في الكتابات الأثرية وفي أسلوب الخط الباقي هناك كما تطور هذا الفن في إيران إلى أن وصل إلى خط (التعليق) الفارسي المعروف بأنواعه .

شكل – ٧١ –

سورة الفاتحة في مخطوطة مصحف كتب بالخطين الكوفي والنسخي بيد زين العابدين الشريف الصفوي (بدىء بكتابة هذا المصحف في عـام ١٣٢٣ في عهد مظفر شاه قاجار في ايران)

الفصل الثامن

الزخرفة والنقش التزييني

الزخرفة والنقش التزييني

لا يكاد يخلو أثر من الآثار الاسلامية من زخرفة أو نقش تزييني . فقد كانت من لوازم العمل الفني الاسلامي . لأن الفنانين المسلمين كانوا يكرهون الفراغ ويرغبون في تغطية السطوح والمساحات بالزخارف .

وقد اقتبس المسلمون عناصر زخرفتهم من الكتابة العربية أو من الخطوط الهندسية أو من عناصر نباتية وحيوانية .

فأما الكتابة فلم يكن المسلمون أول من زخرف بها على المباني والتحف الفنية ، ولكن ليس ثمة من فن استخدم الخط في الزخرفة بقدر ما استخدمه الفن الاسلامي بسبب اهتمام الناس به من جهة وقابليته للتطور الزخرفي من جهة أخرى . ولعل البدء في زخرفة الخط بدأت في مصر في نهاية القرن الثاني الهجري ولكنها ازدادت شيوعاً منذ القرن الرابع وبلغت ذروة الروعة في القرنين الخامس والسادس . واعتمدت الزخرفة خاصة على الخط الكوفي بسبب خطوطه المستقيمة ؛ فكان لزخرفته أشكال منها : « المورق » و « المشجر » وهناك « المضفر » الذي يربط الفنان ما بين كلماته لتأليف إطار أو شكل هندسي معقد . « والكوفي المربع » وهو هندسي الشكل قائم الزوايا .

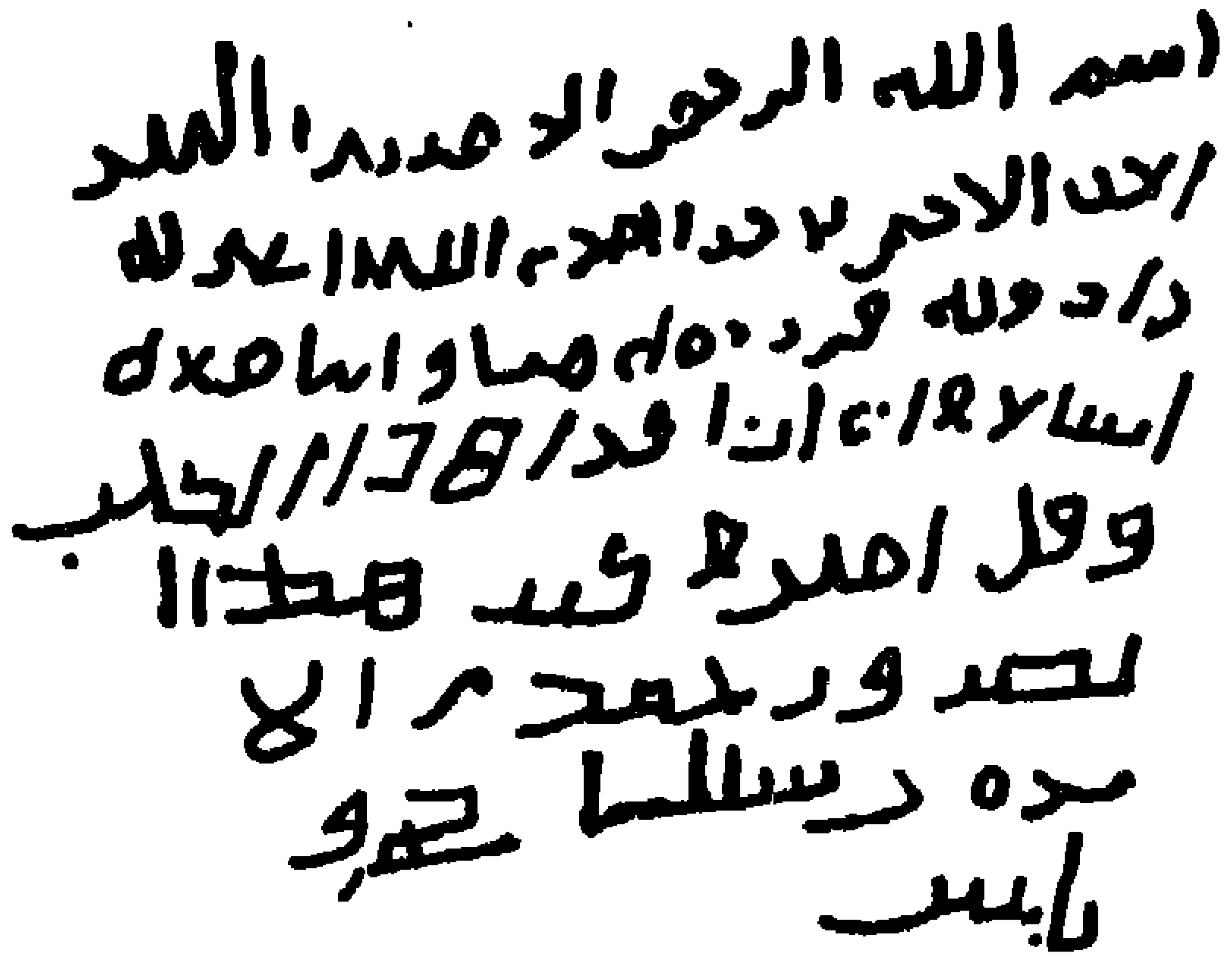

شكل ـ ٧٢ ـ
اقدم اثر اسلامي يمثل نقشاً على قبر عبد الرحمن ابن خير الهجري (٦٥٢ م) موجود في متحف الفن العـربي في القــاهرة

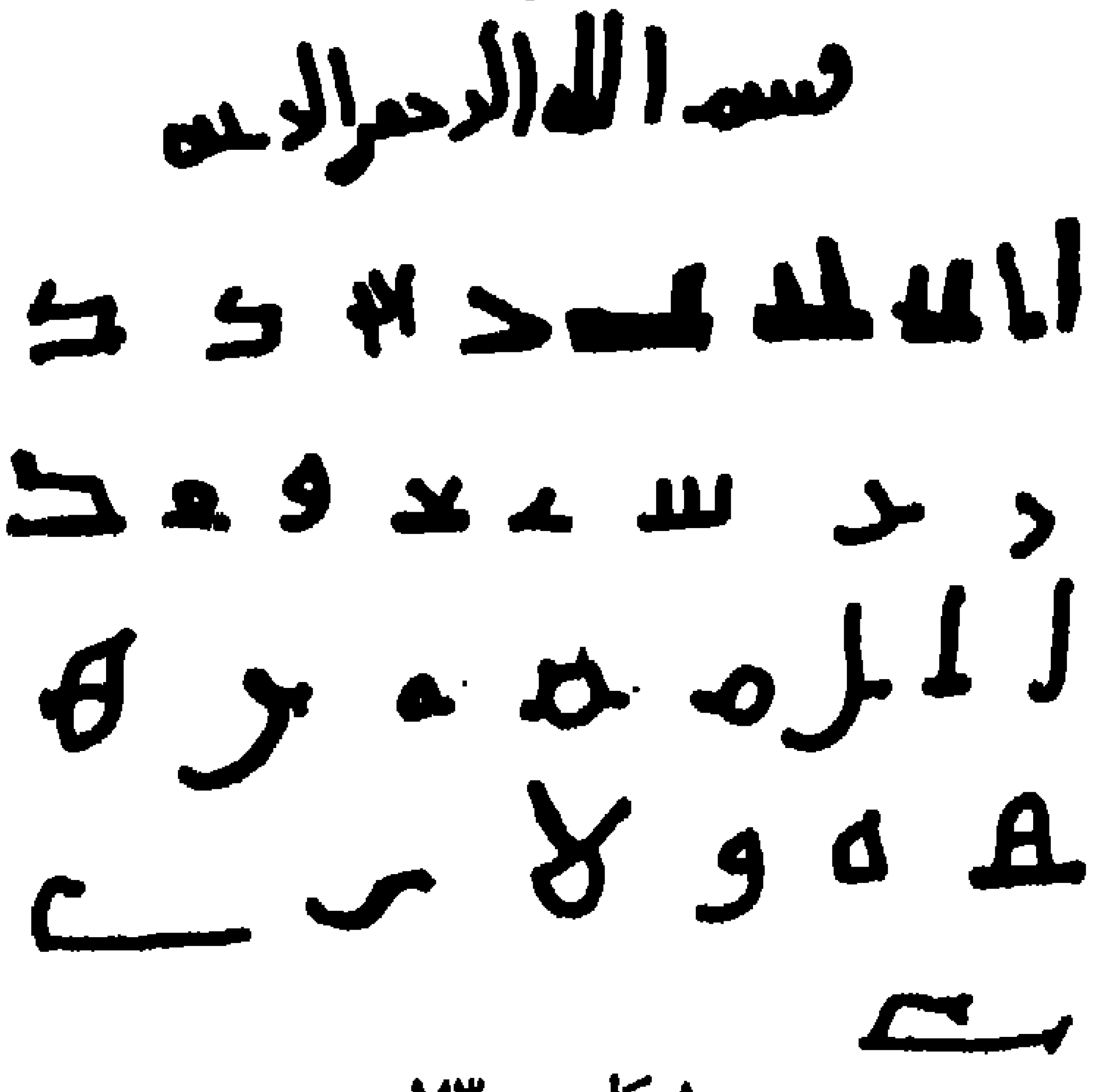

شكل ـ ٧٣ ـ
اقدم ابجدية عربية مقتبســة من نقش قبر عبد الرحمن المرسوم أعلاه

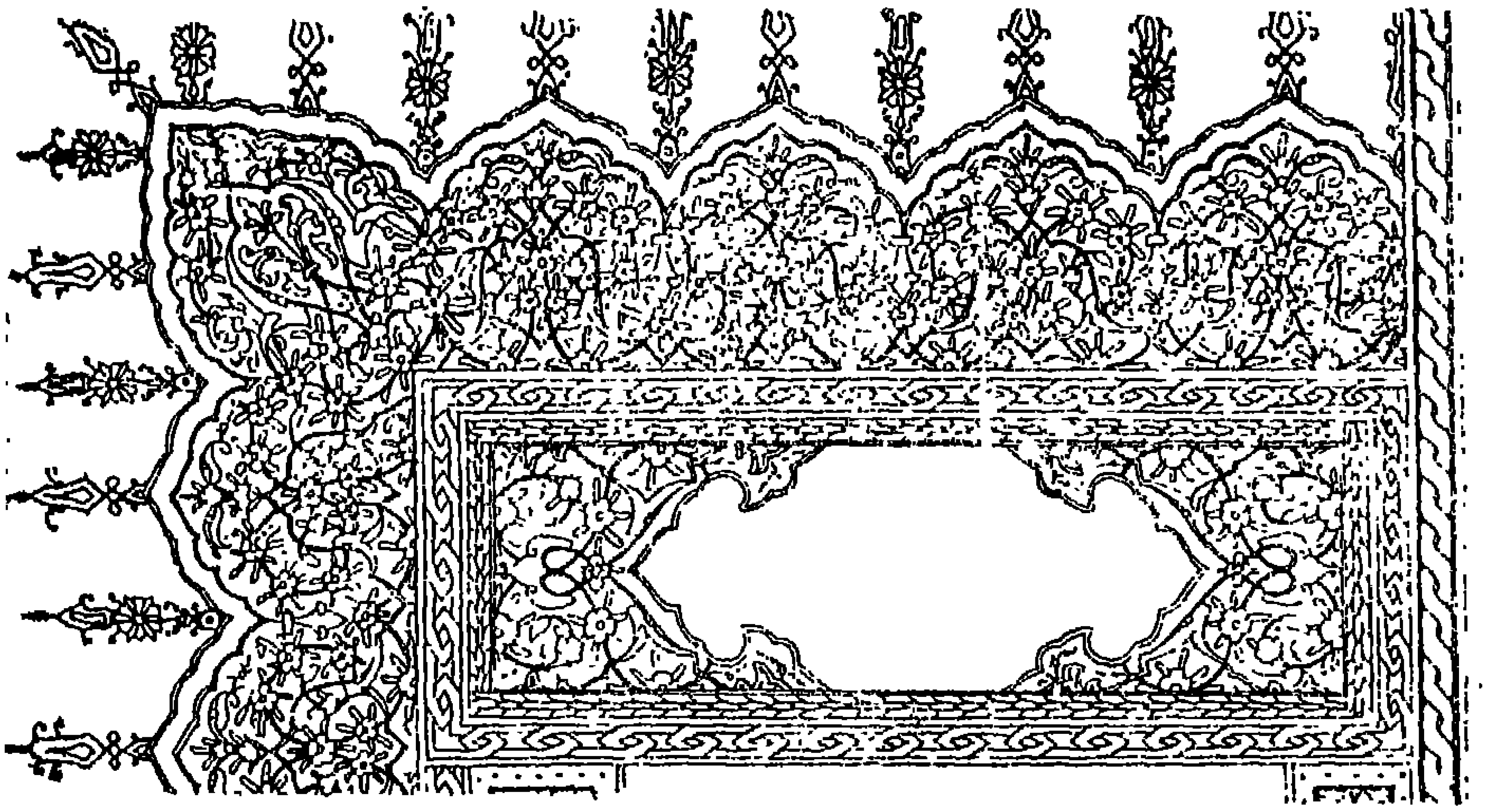

زخرفة حاشية الصفحة الاولى من مصحف مكتوب بخط الخطاط الحافظ عثمان . وتمثل نموذجا من أسلوب زخرفة المصاحف في العهد العثماني .

زخرفة المصاحف

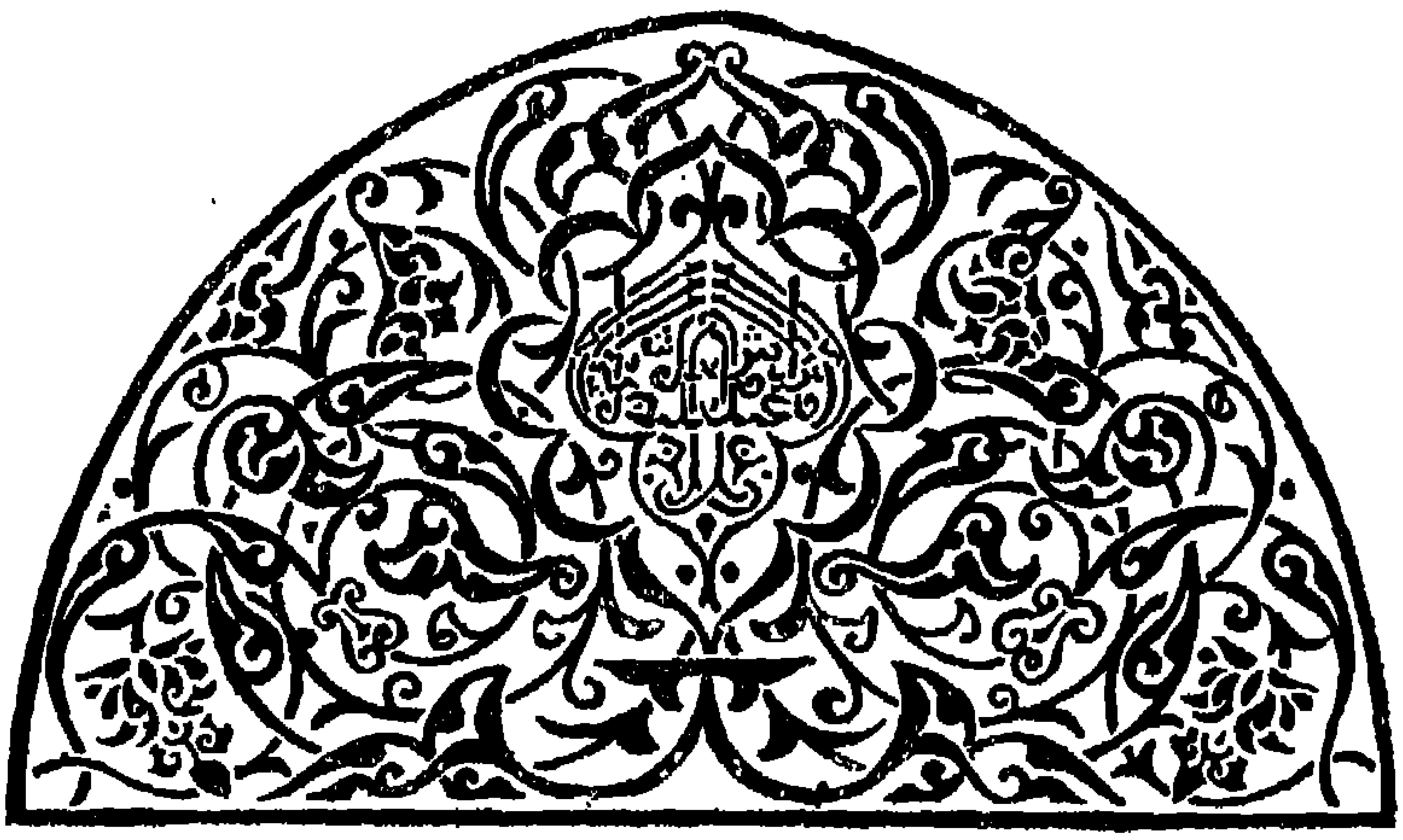

زخرفة عربية اسلامية، تجمع بين الأرقشة والكتابة الدينية التزيينية

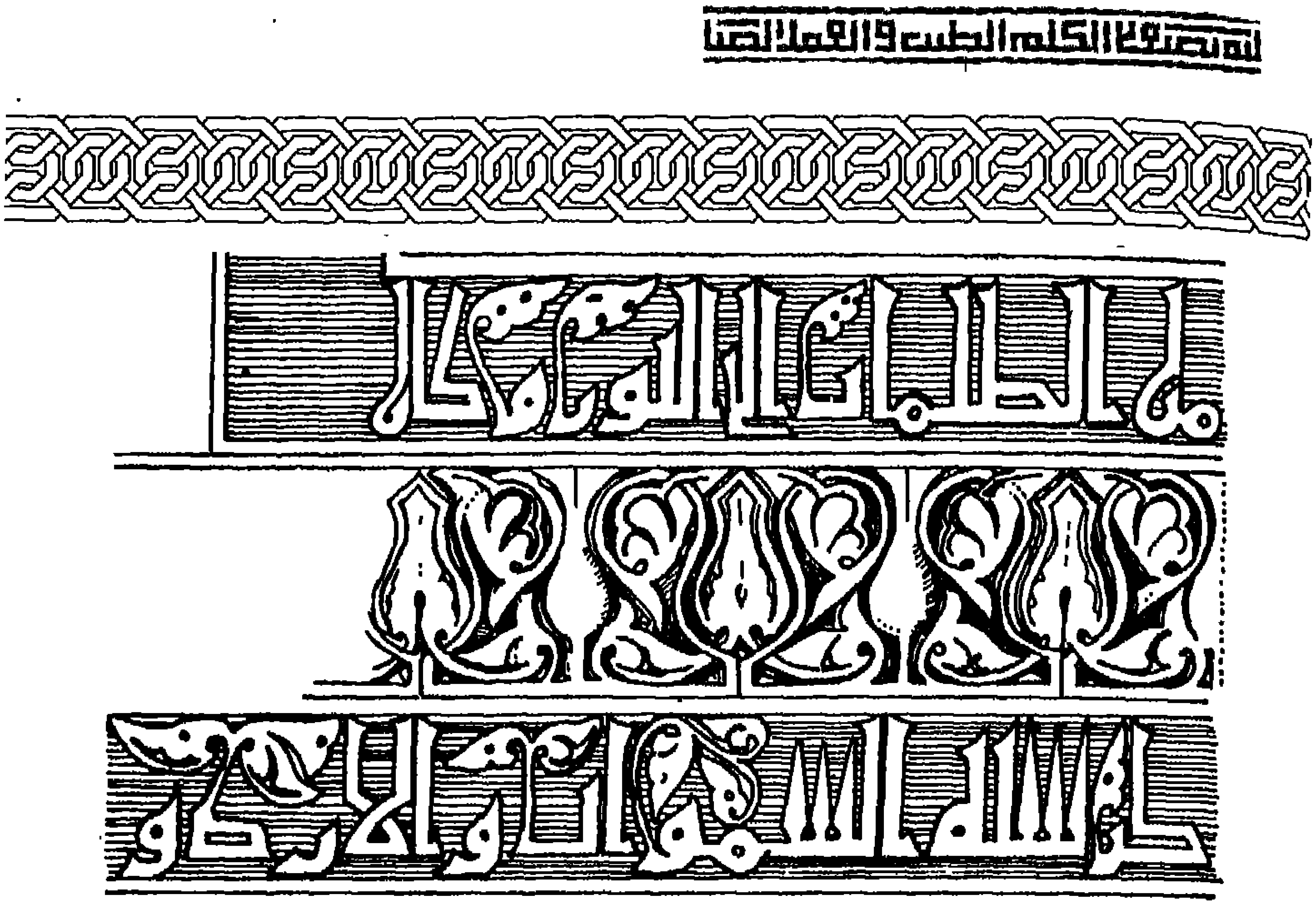

شكل — ٧٦ —

زخارف عربية وكتابة دينية على جدران الازهر

وأما الزخارف الهندسية : فقد أضحت في الفن الاسلامي ، دون باقي الفنون العالمية ، عنصراً رئيسياً فيه . ويهمنا منها بصورة خاصة تلك التراكيب الهندسية ذات الاشكال النجمية المتعددة الأضلاع التي ذاعت في المباني وفي التحف الخشبية والنحاسية وزخارف السقوف . وقد دلت الدراسات المختلفة لهذه الزخارف الهندسية المعقدة التي خلفتها العصور الاسلامية أن براعة المسلمين فيها لم يكن أساسها الشعور الفني والموهبة الطبيعية فحسب ولكنها تدل على علم وافر بالهندسة العملية . وقد ظهر الاهتمام بالزخرفة الهندسية في فنون الشام ومصر خاصة ولا تزال لها سيطرتها في المباني الحديثة التي تبنى في الشام .

أما العنصر النباتي في الزخرفة الاسلامية فقد تأثر كثيراً بانصراف المسلمين عن استيحاء الطبيعة وتقليدها فاستخدم الجذع والورقة لصنع زخارف

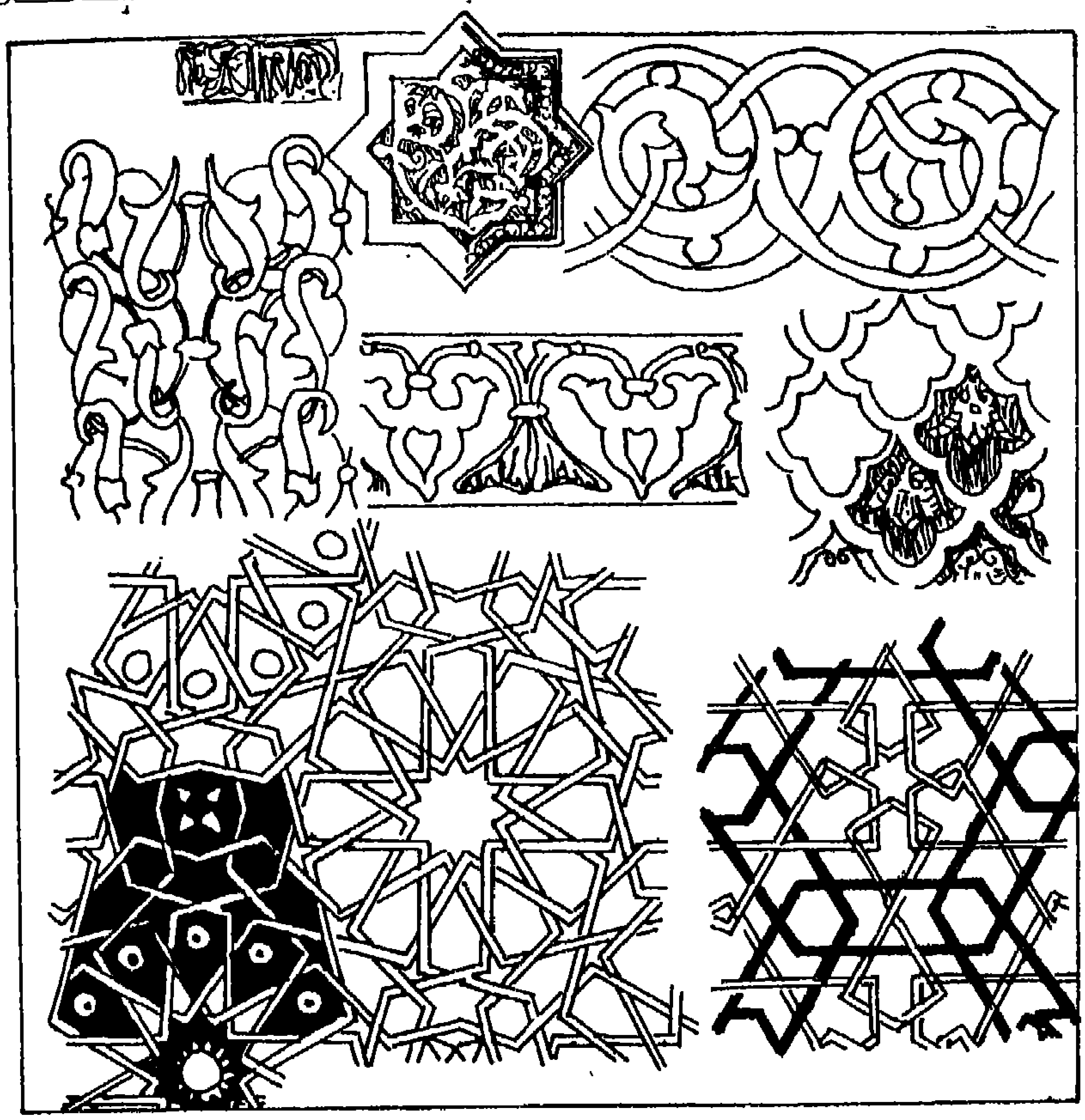

شكل — ٧٧ —

نماذج من الزخارف العربية التي تعرف بالأرابسك او الأرقشة

وتبدو عليها مسحة هندسية تميت العنصر الحي فيها، وتدل على سيادة مبدأ التجريد والرمز في الفنون الاسلامية تمتاز بما فيها من تكرار وتقابل وتناظر. وأكثر الزخارف النباتية الشائعة هي المعروفة باسم : الرقش العربي «الآرابسك» وهي تتكون من فروع نباتية وجذوع منحنية ومتشابكة ومتتابعة وفيها رسوم محورة عن الطبيعية ترمز إلى الوريقات والزهور، وقد بدأ ظهورها في القرن الثالث الهجري ونراها في الزخارف الجصية التي كانت تغطي الجدران في سامراء وفي آثار العهد الطولوني بمصر . وقد تطورت هذه

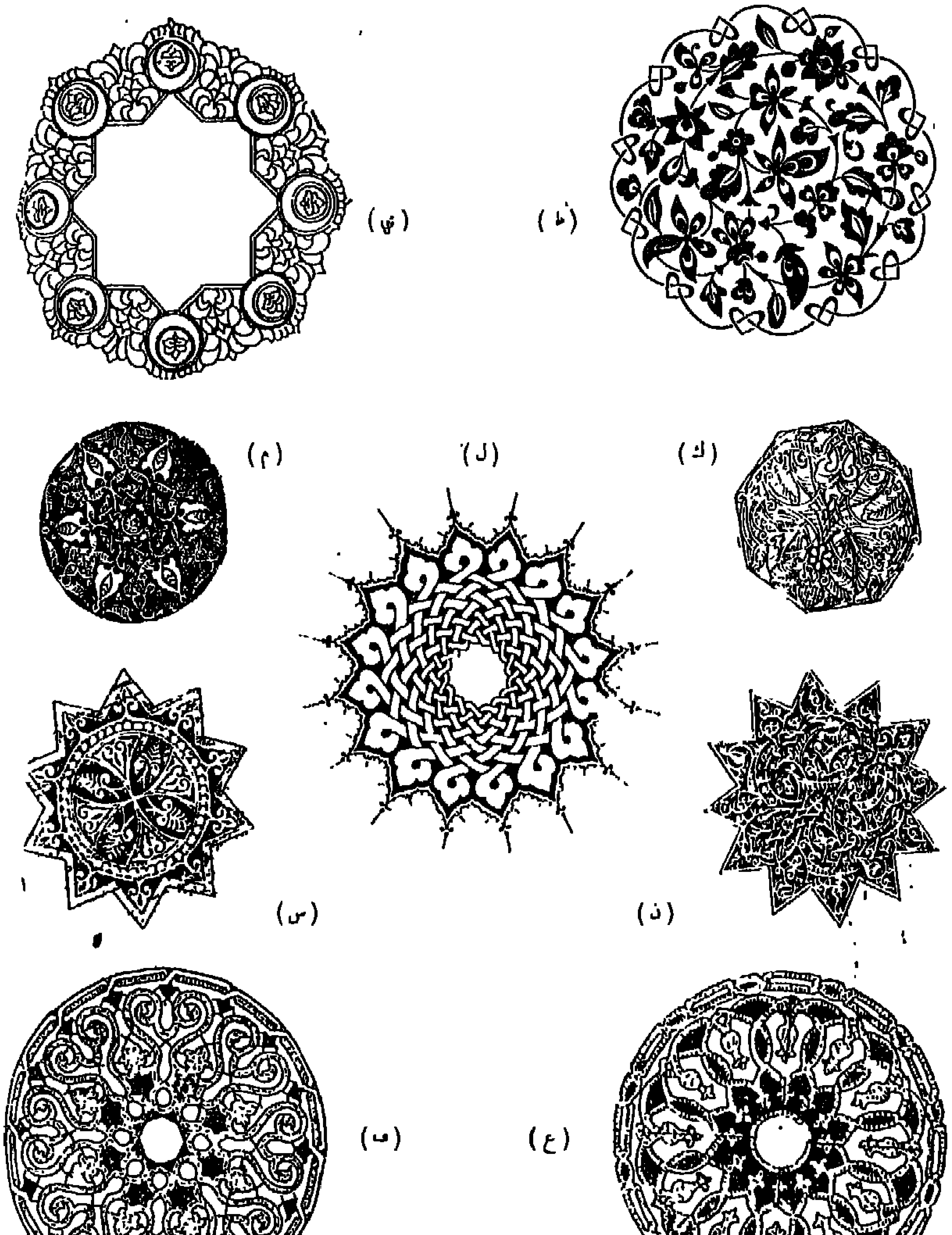

شكل ـ ٧٨ ـ

مجموعة زخارف عربية ـ اسلامية ، على هيئة أوسمة ونجوم ودوائـر ذات مراكز متعددة ، ومتناظرات ، ومتماثلات من أشكال مختلفة تمـلأ مساحاتها توريقات نباتية وأشكال هندسية ، كثيرة الانتشـار في مخلفات المسلمين الفنية في الابنية والمخطوطات والمصاحف

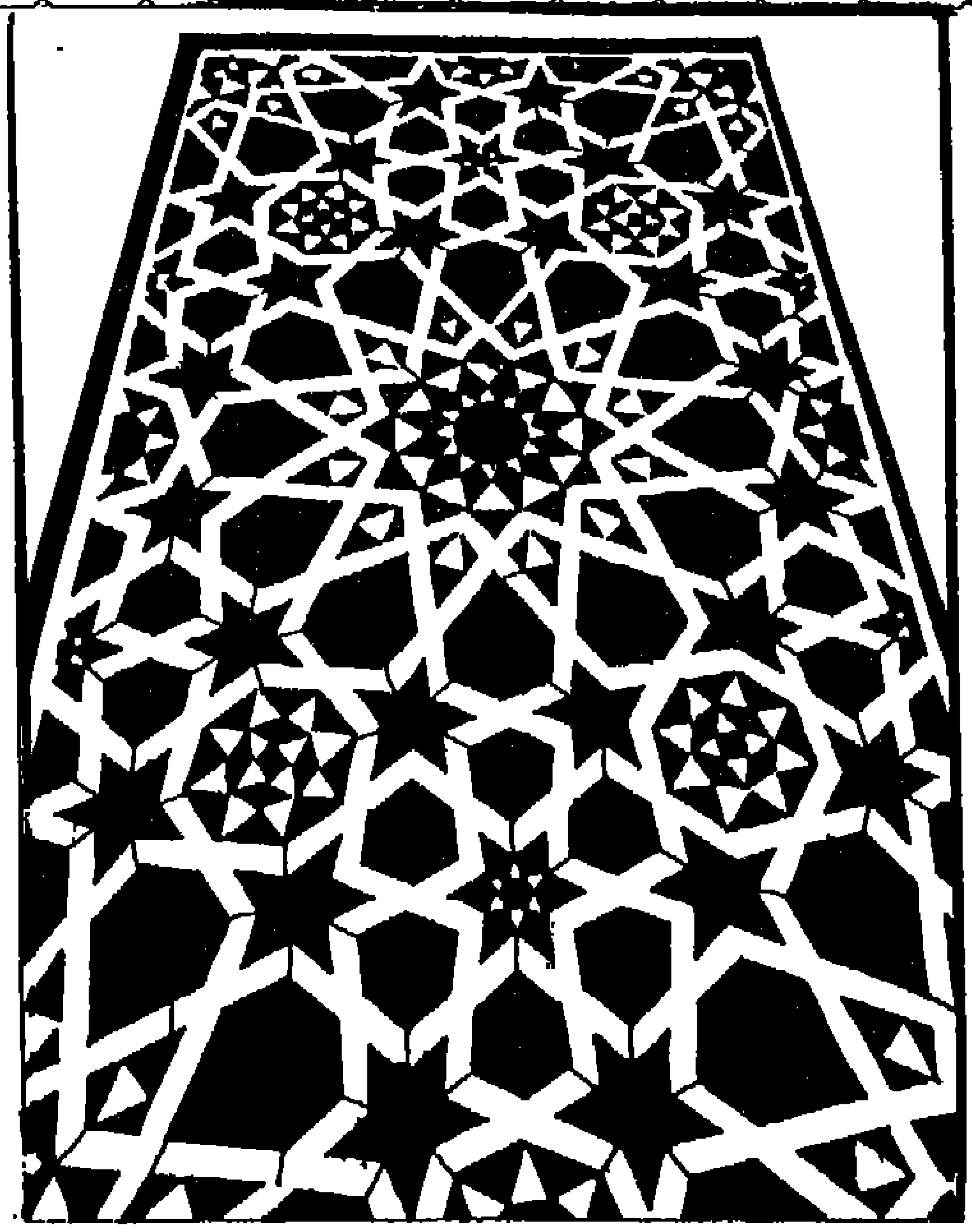

شكل — ٧٩ —

نقش وتزيينات من الرخام الملون . هذه القطعة في المهدية — تونس — .

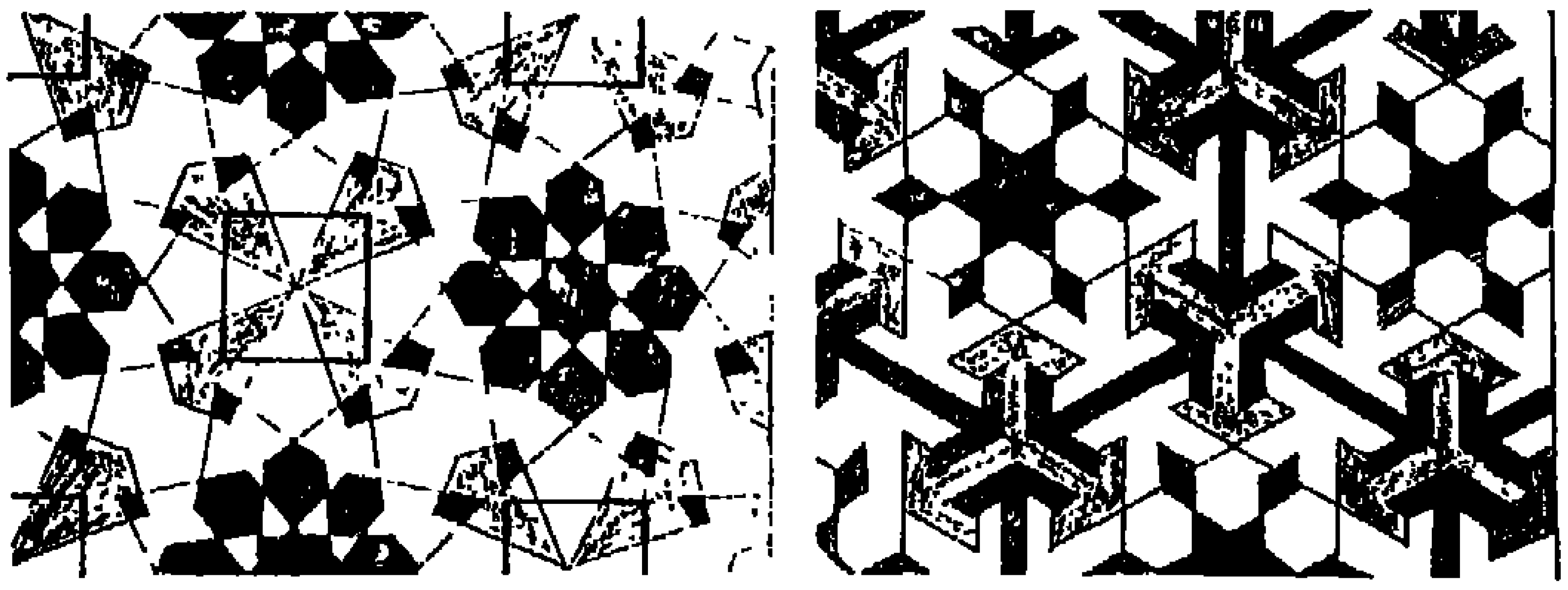

شكل — ٨٠ —

هذه التزيينات الرخامية موجودة في قصر الحمراء بغرناطة من صنع عرب الاندلس ، وهي نموذج من فن الارقشة العربية الذي كثر انتشاره في العالم الاسلامي في المساجد والقصور والاضرحة والحمامات .

لكن هاتين القطعتين استرعتا نظر احد العلماء الفنانين الالمان في الوقت الحاضر ، اذ قارنهما بما حصل عليه من مراقبة ودراسة «بلورات» الزجاج الصخري (الكريستال) وبلورات الالماس ، فوجد تشابها كبيرا بينهما . فتساءل : هل كانت بلورات الالماس هي التي أوحت للفنان العربي بهذه الاشكال الجميلة المتناسقة ؟

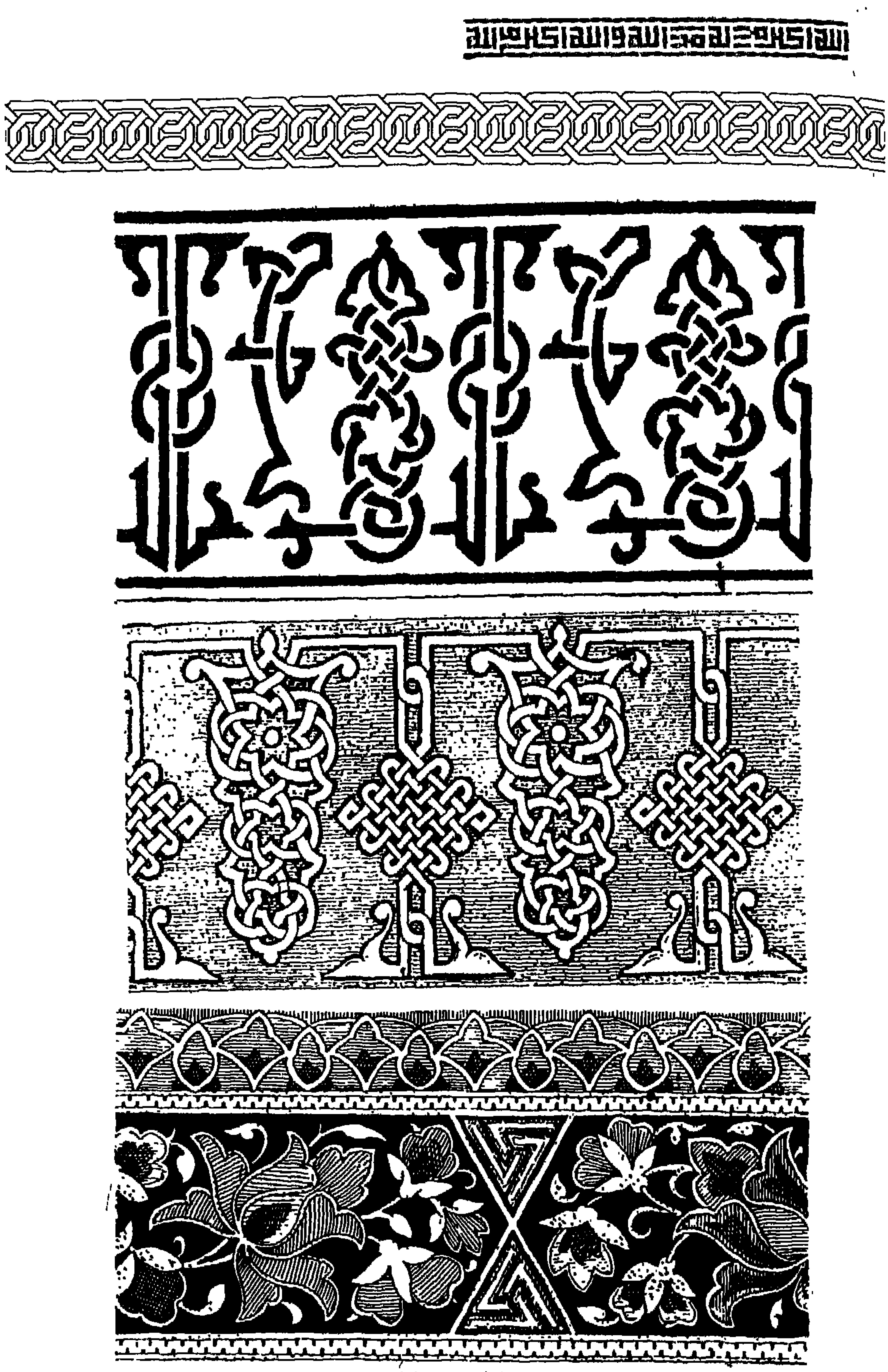

شكل – ٨١ –

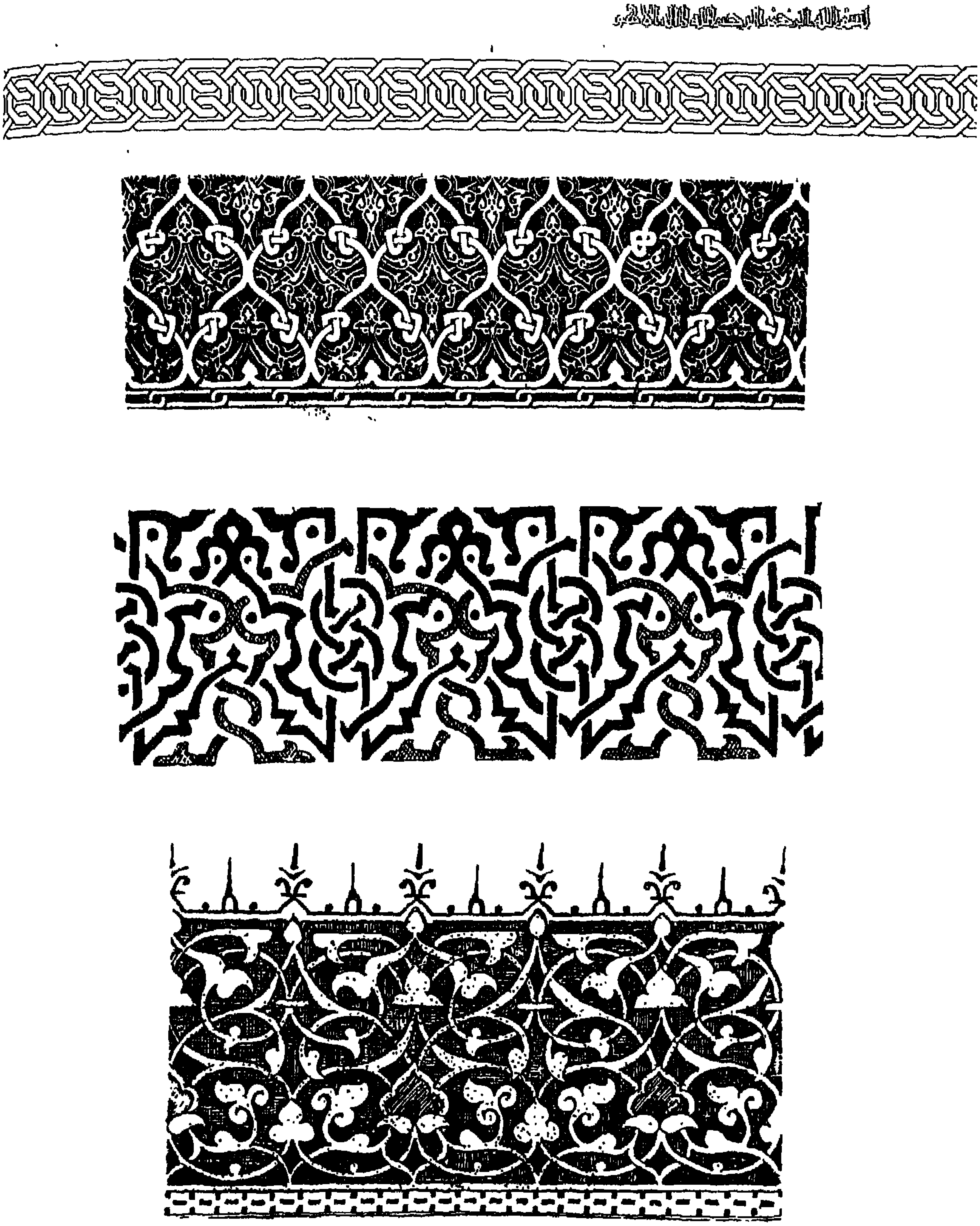

شكل — ٨٢ —

مجموعةمواضيع زخرفيةعربية اسلاميةتعتبر نماذج جميلة من تفنن الزخرفة العربية الاسلامية وتعدد أشكالها

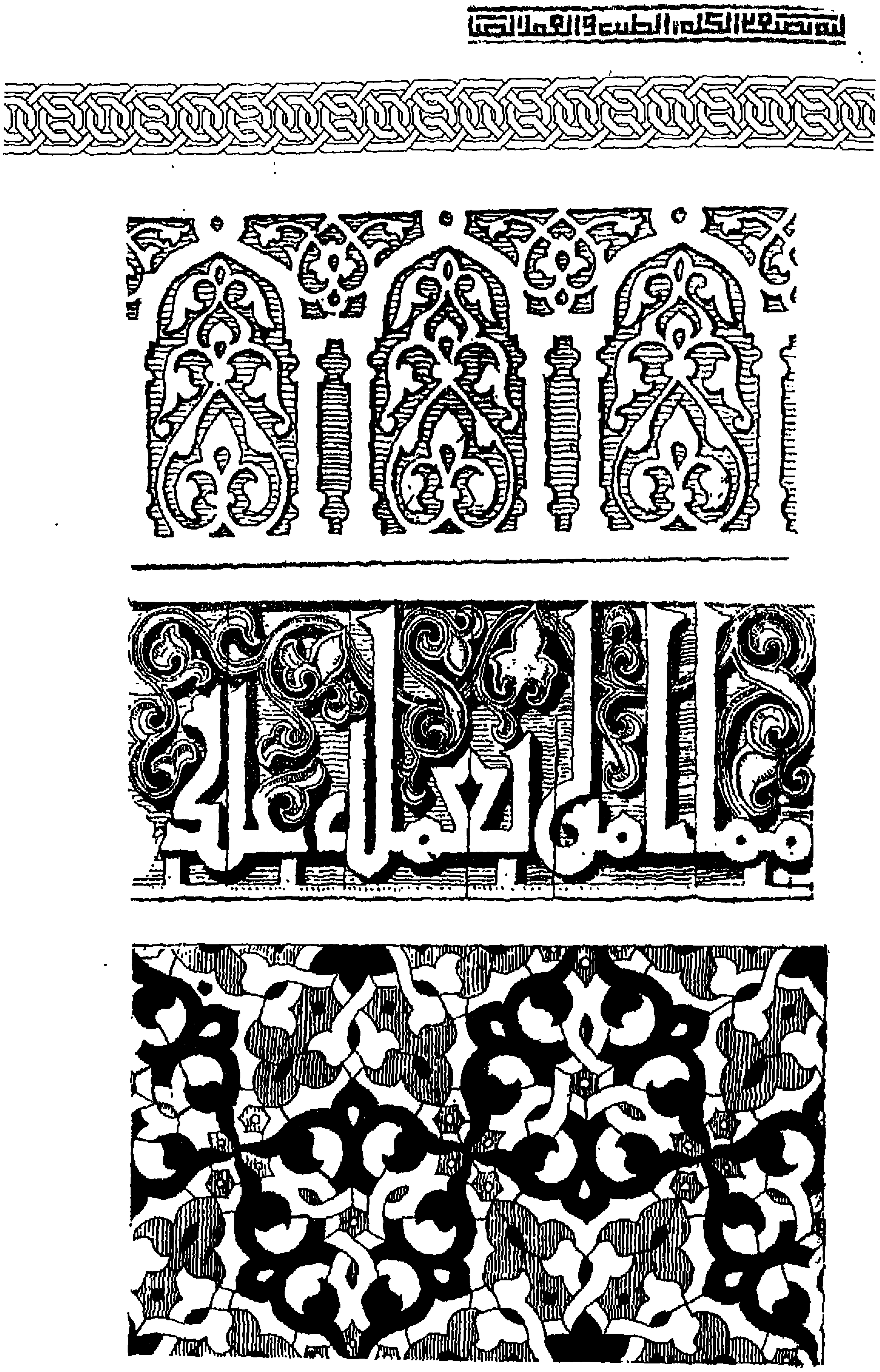

شكل — ٨٣ —
مجموعة أولى من المواضيع الزخرفية العربية الاسلامية

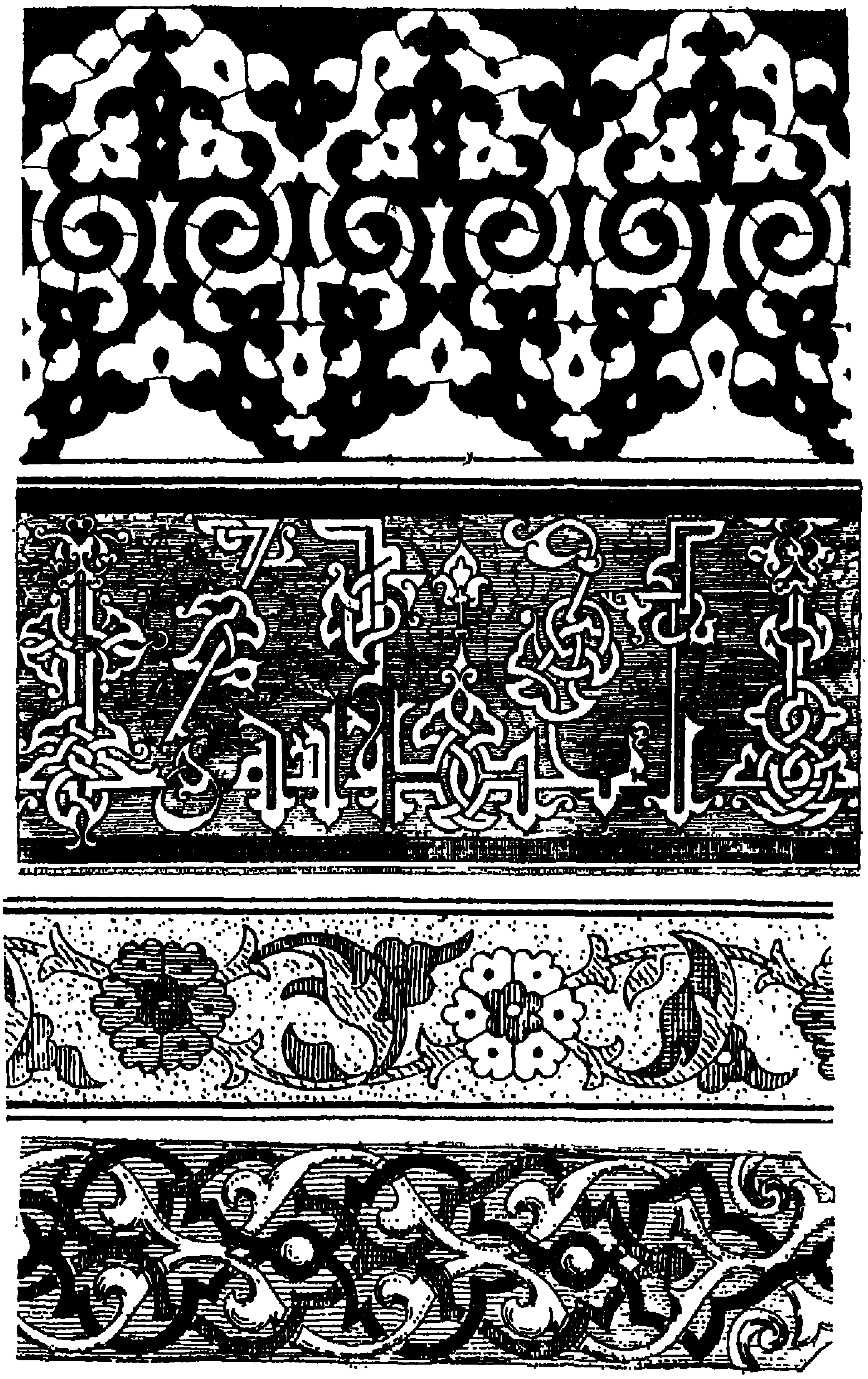

شكل — ٨٤ —

مجموعة ثالثة من المواضيع الزخرفية العربية الاسلامية

الزخارف في العصر الفاطمي حتى نسبت اليه وبلغت بعد ذلك غاية تقدمها منذ القرن السابع الهجري « ١٣ » م

على أن الزخرفة النباتية اتجهت في إيران بالعكس إلى صدق تقليد الطبيعة منذ القرن السابع وذلك بتأثير الفن الصيني كما يظهر على القاشاني خاصة . .

وانتقلت صنعة الارقشة الى المغرب والاندلس ، وكانت في النقش والتخريم في الجص المبسوط الطري ، تصنع منه اشكال هندسية ، ونباتية وحيوانية بارزة وغائرة ، ملونة وغير ملونة ، وادخل عليه في هذه المنطقة من العالم الاسلامي صور عش نحل او صور قلبين متآلفين ويسمى قلوب العشاق ، وزخرف خطي كوفي او نسخي يكون في الغالب بردة المديح للبوصيري او لفظة « العافية » في شمال افريقيا بمعنى السلامة والهناء والأمن او «ولا غالب الا الله » في الاندلس . وآثار الاندلس الباقية وخاصة في قصر الحمراء بغرناطة وقصر بني عباد باشبيلية ، هي اروع أمثلة لجمال ورقي هذا الفن العربي الاصيل .

وأما الرسم الحيواني أخيراً فالشرق الأدنى يعرف الزخرفة به منذ العصور القديمة . ولم يشذ المسلمون عن ذلك فاستخدموا رسوم الأسد والفهد والفيل والغزال والأرنب والطيور الصغيرة وغير ذلك من حيوانات الصيد خاصة . وقد اقتبسوا بعضها عن الصين . لكننا يمكن ان نرجع معظم رسوم الحيوان في الزخارف الاسلامية إلى الفن الساساني بما كان فيه من اتباع التماثيل والتوازن والتقابل وفي رسم الحيوانات متقابلة أو متدابرة او بينها شجرة الحياة، وفي رسمها متتابعة على شكل شريط زخرفي

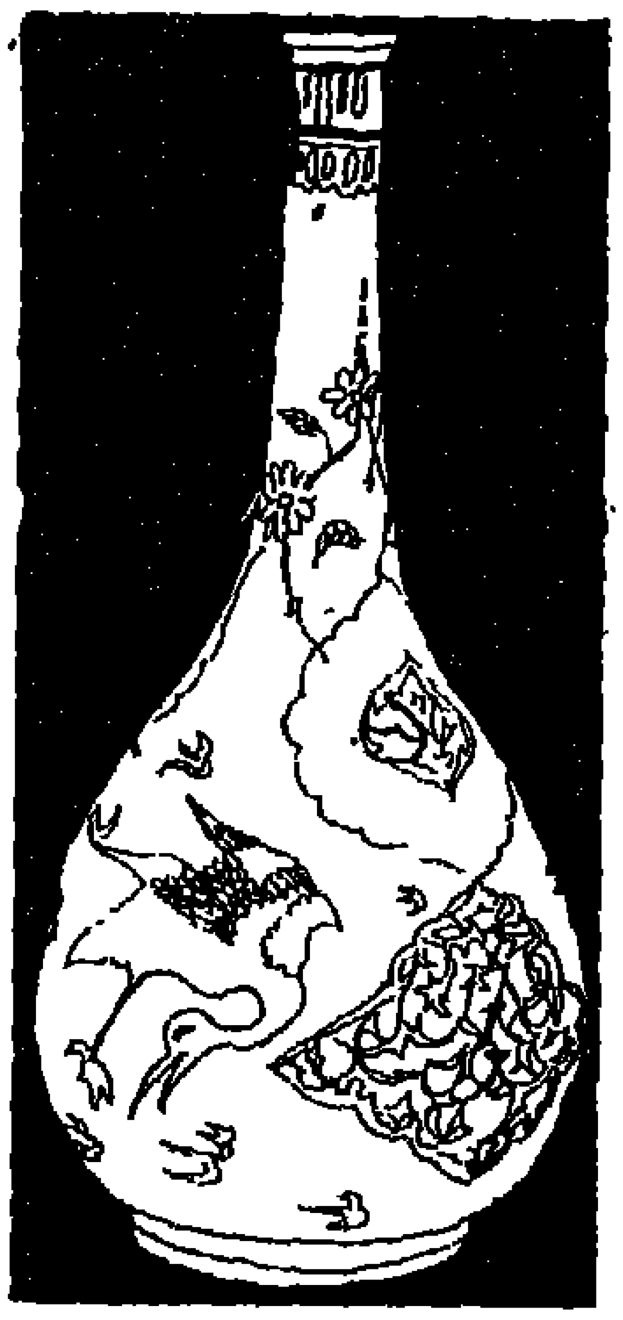

شكل — ٨٥ —
اناء من العصر الصفوي
(القرن ١٦ — ١٧)

شكل — ٨٦ —
قدر من صنع مدينة الرصافة
في سورية من القرن الثالث عشر الميلاد

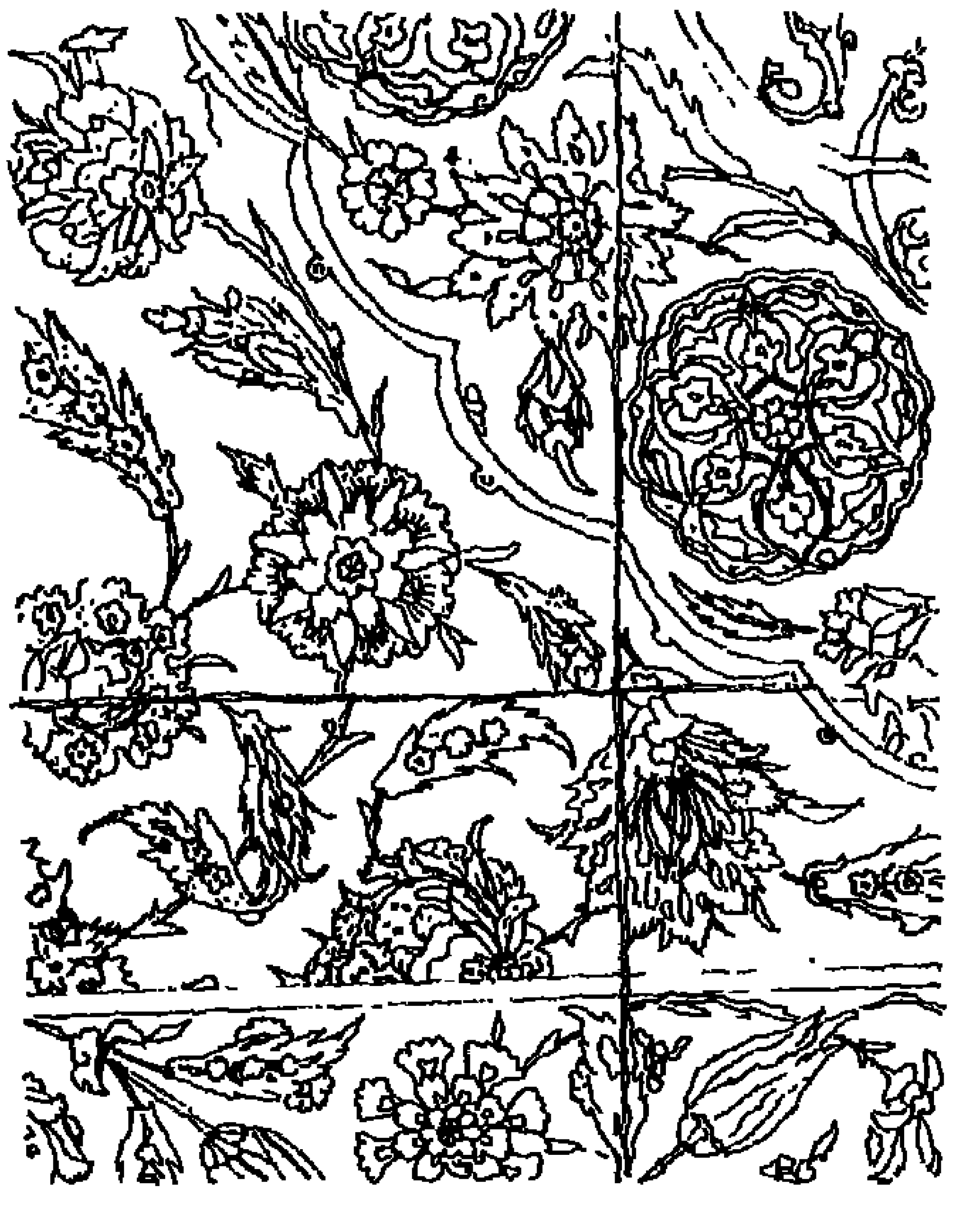

شكل — ٨٧ —
قطعة من قاشاني في مسجد رستم باشا في استانبول ١٥٥٠ م
من هندسة سنان باشا

ولم تكن رسوم الحيوانات بالطبع مقصودة لذاتها ولهذا لم يهتم الفنانون المسلمون لمطابقتها للواقع . وقد صنعوا على مثال الطير أواني متعددة حوروا فيها . كما حوروا في النبات ، الشكل الطبيعي إلى شكل زخرفي رمزي .

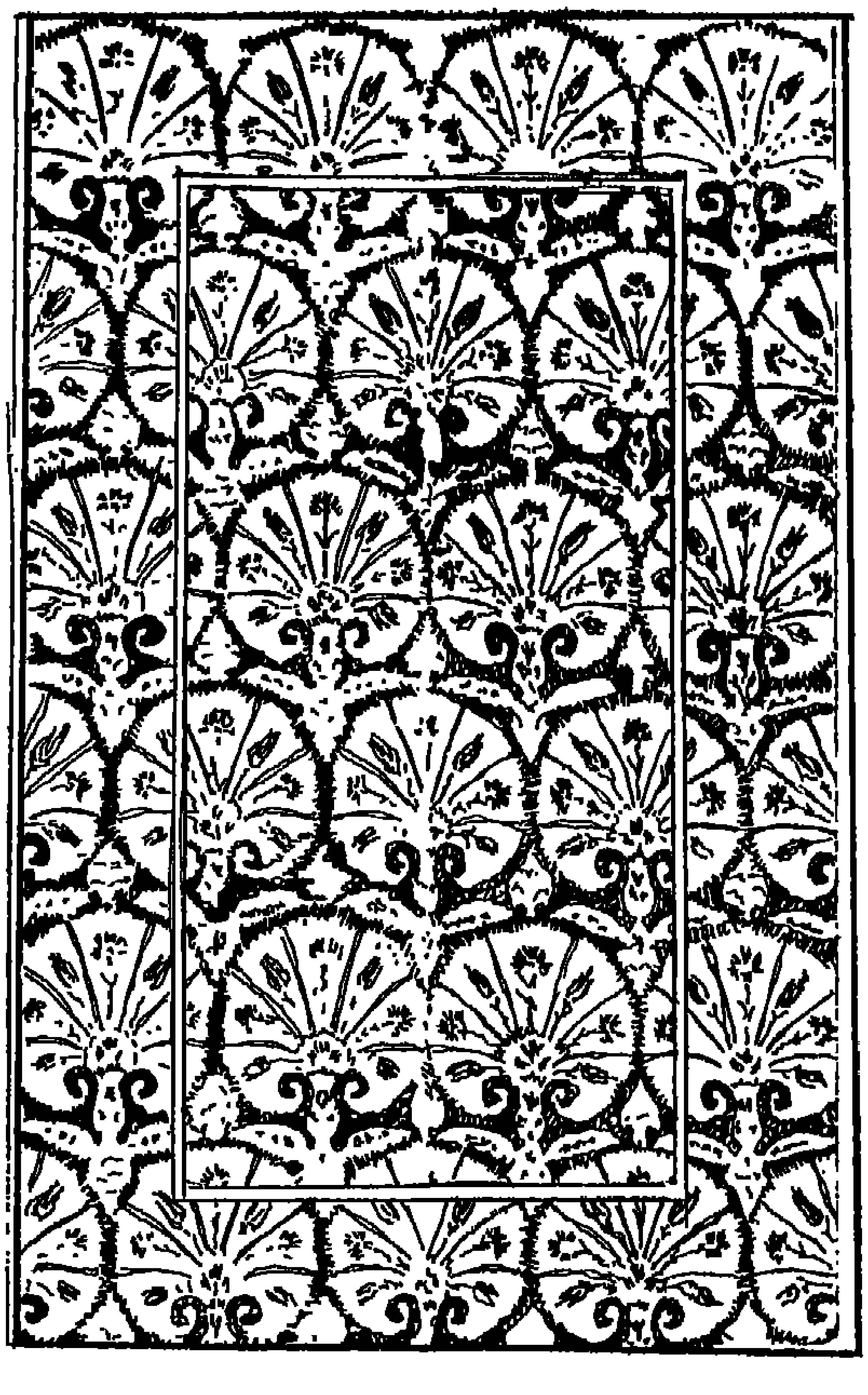

شكل — ٨٨ —

قطعة من قماش حريري « البروكار » المصنوعة في مدينة بورصة في آسيا الصغرى في القرن السادس عشر الميلادي يلاحظ بها نعومة الحياكة وطابعها المميز . وكان اكثر انتاج هذه الصناعة ، والرفيع منها خاصة ، يستعمل في ملابس سلاطين آل عثمان وكبار الامراء والحاشية .

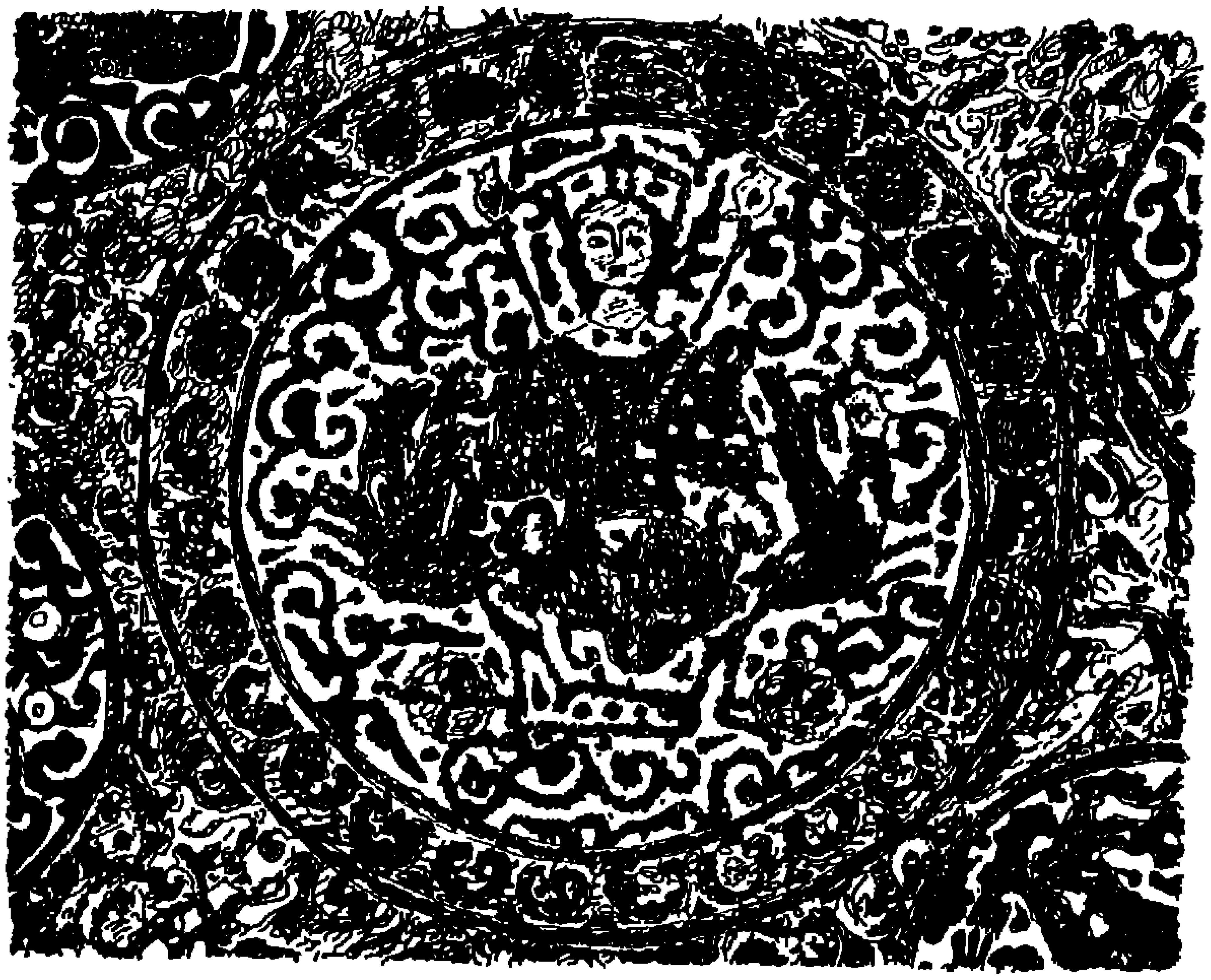

شكل — ٨٩ —

نقوش بارزة وغائرة في طبق برونزي عليه ميناء وعليه اسم امير الموصل سليمان بن داود ١١١٤ — ١١٤٤ م ، والطبق من صناعة الموصل ويلاحظ عليه أثر الفن البيزنطي

شكل — ٩٠ —

نموذج من التزيينات الاسلامية في محراب الجامع الكبير في القيروان

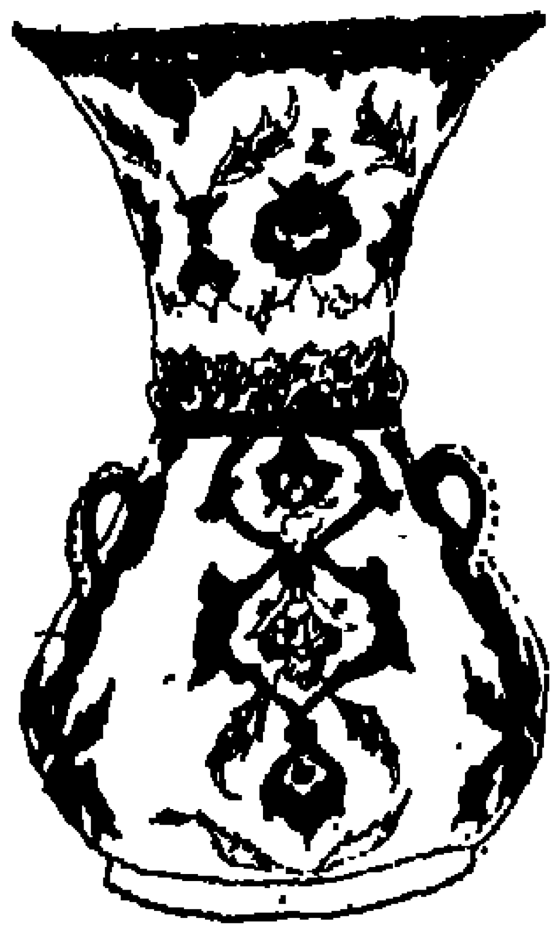

شكل – ٩١ –

مشكاة تركية من صنع آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن السادس عشر

شكل – ٩٢ –

مجموعة من رسوم الحيوانات التي كثر استعمالها كزخارف على الخزف الاسلامي ، وهي مقتبسة مما في ايدينا من خزف اسلامي

انــاء اسلامي عليه رسم فارسي

شكل ـ ٩٤ ـ

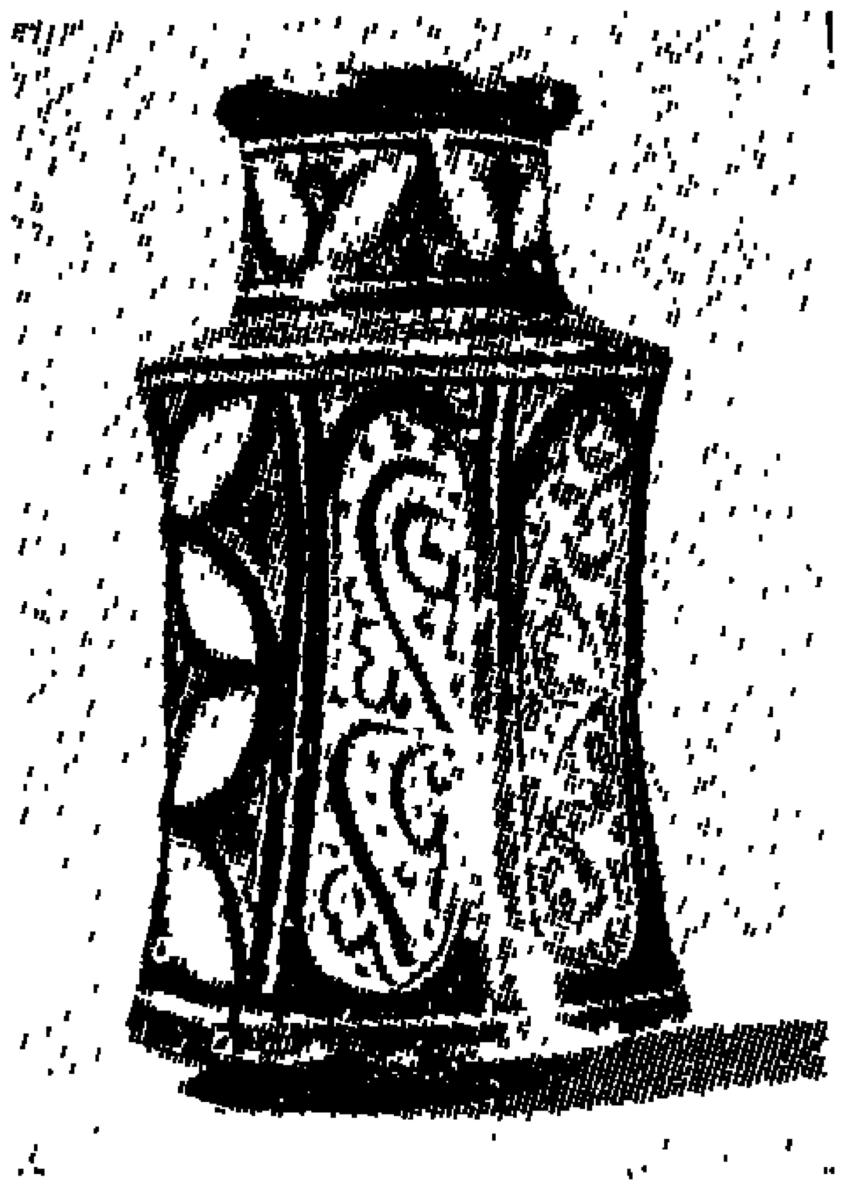

اناء من الخزف من صناعة دمشق محفوظة في متحف برلين ـ دالم ومصنوع في القرن الرابع عشر الميلادي وهو اناء خاص بالصيدليات . وقد بزغ هذا الاطار الفني للمرة الاولى في الاندلس ثم انتشر في بقية البلاد الاسلامية ومن بعد ذلك انتقلت صناعته الى الغرب

شكل ـ ٩٥ ـ

تزيينات ذات بريق معدني ، على كأس من الخزف مصنوعة في الاندلس في عهد بني نصر (القرن الرابع عشر الميلادي) وكانت الاندلس والجزر البحرية التابعة لها ، مركز فن البريق المعدني في العصور الوسطى ، انتقل منها الى بلدان اوروبا الغربية وخاصة المانيا وايطاليا .
وهذه الكأس محفوظة بمدينة بايون

بسم الله الرحمن الرحيم الله لا اله الا هو

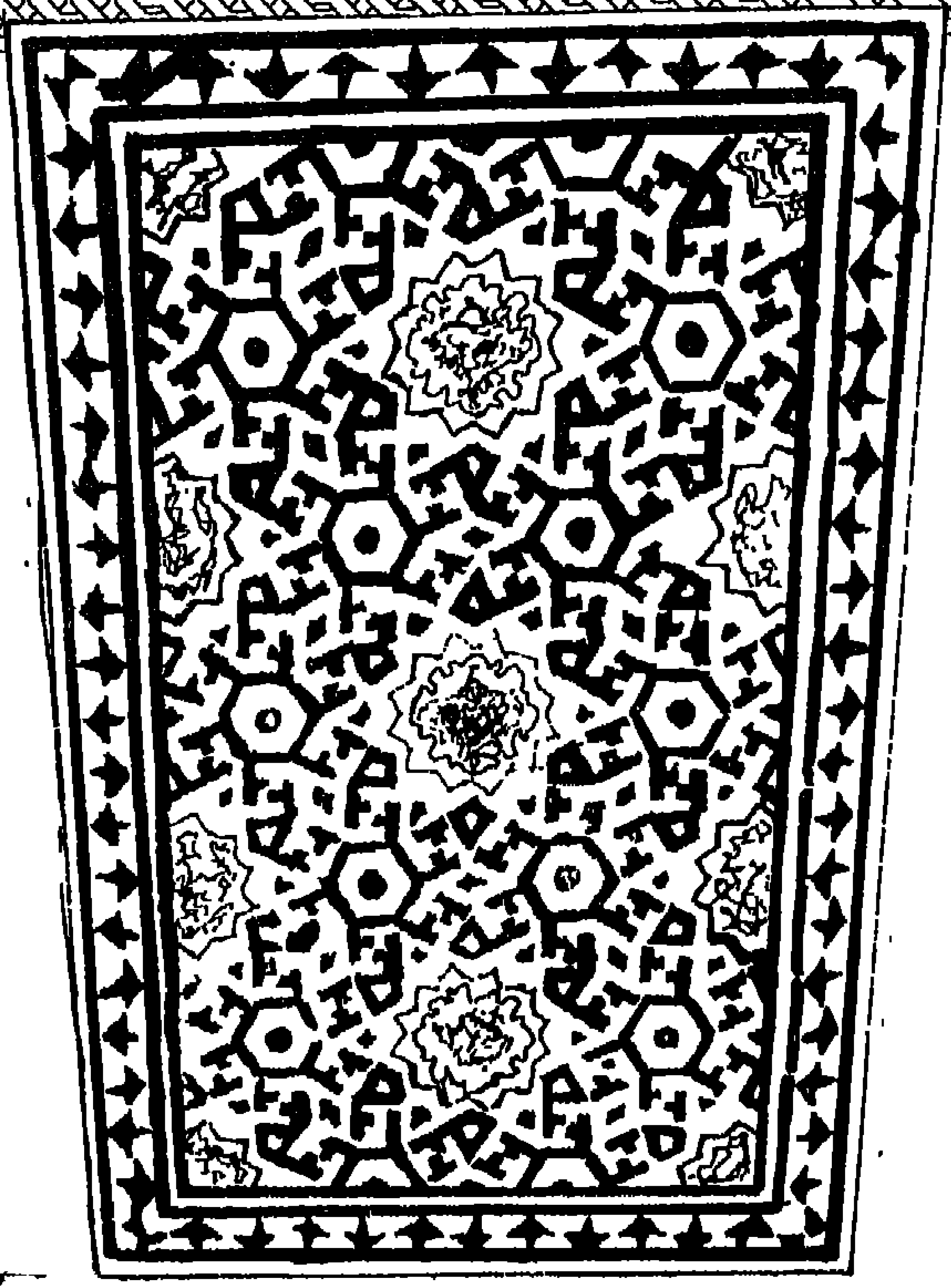

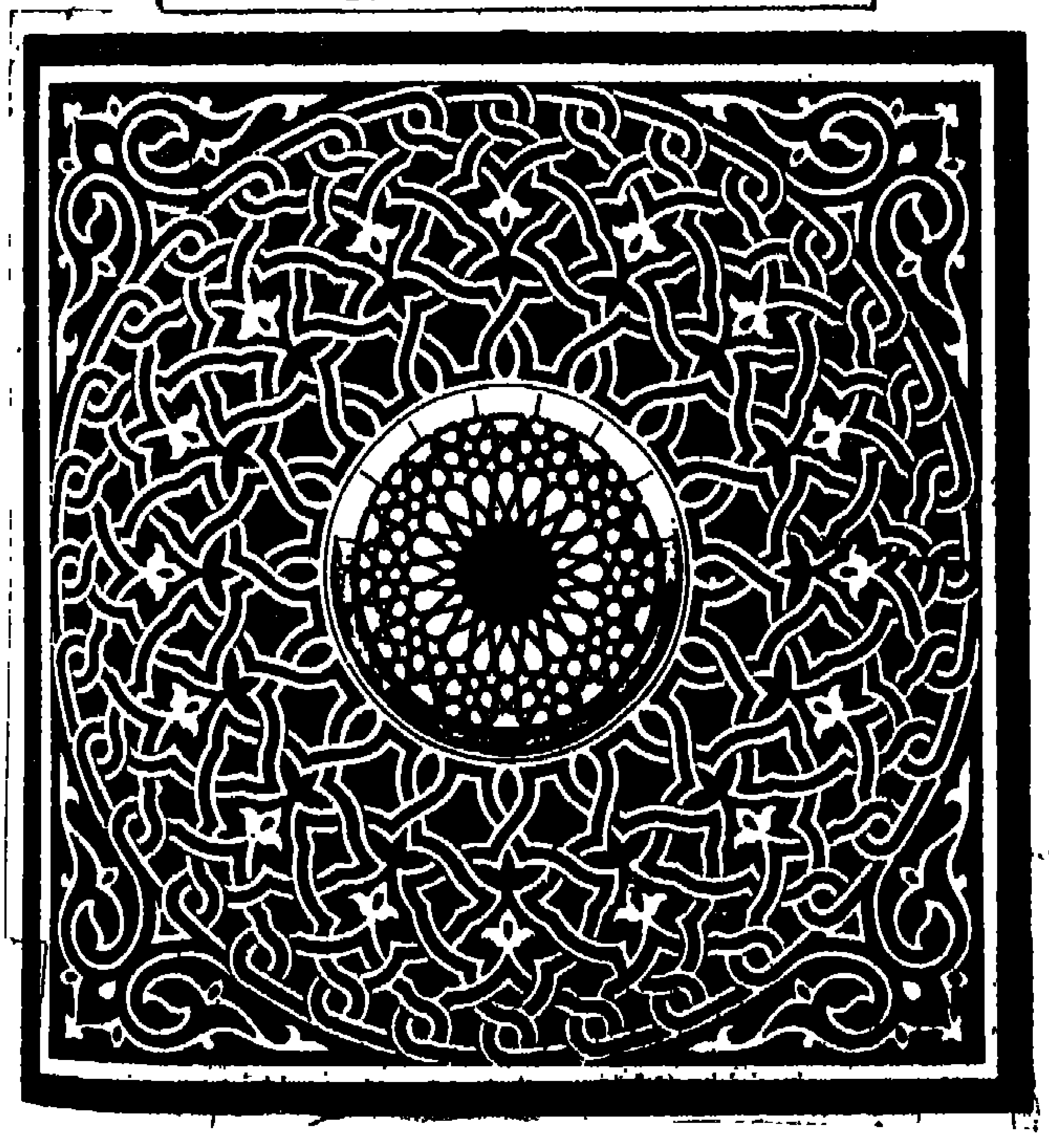

الفصل التاسع

الفنون التطبيقية

الخزف : مجموعة الخزف هي أكبر ما وصلنا من تحف الفن الاسلامي فهي كثيرة العدد جداً ، متنوعة المواضيع . نجدها في كل بلد إسلامي . كما تتشابه أساليبها الفنية بكل مكان . ويبدو من تطور الفنون الخزفية أن منبع الابتكار فيها كان في فارس والعراق وهي استمرار وتطوير لصناعة الآجر المزجج الذي استخدمه بكثرة العرب القدماء في بلاد ما بين النهرين

يقول الخبراء ان في خزف شمالي افريقيا المسلمة ، البهجة والتلوين الجميل ، ويختلف طراز الخزف المغربي عن الطراز الفني الذي كان سائدا في مصر وسورية والعراق وفارس . ويتجه في أكثريته لابراز الفولكلور المحلي اكثر من العناية بالفن الجمالي .. وهذا الطبق المصنوع في مدينة الرباط ، أحد الامثلة الواقعية عن هذا الرأي من صناعة الخزف المغربي وتزيينه .

الشكل – ٩٩ –

رسوم اسلامية على طبق من الفخار من صنع مدينة نيسابور من القرن العاشر الميلادي ، والطبق محفوظ في متحف المتروبوليتان في نيويورك ، ويمثل الرسم فارسا خارجا الى الصيد ومعه البازي ، وكلب الصيد وبعض الحيوانات التي قد يصطادها ، وقد أشهر سيفه علامة على الفروسية والاستعداد للنزال اذا داهمه خطب ما .

ومنها كانت تنتقل الأساليب بسرعة غريبة إلى غرب « مملكة الاسلام » .

وقد استعمل المسلمون الخزف في صناعة البلاطات الزخرفية الجميلة لكسوة الجدران في البيوت والمساجد والمدارس وغيرها من المباني . كما استعملوه في عمل الأواني من أكواب وصحون وسلطانيات وأباريق ودوارق وقدور وأزيار وشماعد ومسارج ومباخر وزهريات وتماثيل صغيرة ولعب ، وأنواع اخرى من التحف الفنية .

وقد بدأ صنع الخزف الاسلامي أول الأمر كتتمة لصناعة الخزف الساساني والبيزنطي ، ثم استقل باسلوب اسلامي خالص وتنوعت أساليب الزخرفة بالرسم تحت الطلاء الزجاجي الشفاف بالألوان ، أو بالبريق المعدني ، أو بالتذهيب فوق طلاء زجاجي شفاف أو غير شفاف ،

وبالنحت والحز والتخريم ، وبالصب فوق القالب ، والمينا ، كما تعددت أنواع العناصر الزخرفية ، من زخارف عربية ، وهندسية ونباتية ، سواء الطبيعي منها كالأشجار والثمار والزهور أو المقتبس والمعدل بشكل فني زخرفي تزييني ، ورسوم مبان ومراكب تمخر مياه البحر ، وصور حيوانات وطيور وأسماك ، وأشخاص في مناظر الحياة اليومية من رقص وموسيقى ومجالس شراب ، أو مناظر صيد ، أو مبارزة ، أو حفلات سمر .
وكان رسم المخلوقات ذات الروح من انسان وحيوان كثير الانتشار منذ بدء صناعة الخزف الاسلامي ، لأنه للمتعة والزينة والاستعمال وليس للعبادة ...

واختص الفن الاسلامي ، سواء في الخزف ، أو في غيره ، دون سائر الفنون العالمية بالكتابة العربية الزخرفية ، وهنا في الخزف استخدم الخزافون المسلمون الكتابة بالخط الكوفي بمختلف أشكاله أو النسخي كوسيلة للربط بين العناصر الزخرفية الأخرى ، أو لملء شريط زخرفي بكلمات ذات صيغة دعائية لصاحب التحفة ، أو حكمة عربية ، أو آية من القرآن الكريم أو حديث من أحاديث الرسول عليه السلام .

وجميع مخلفات العصور الاسلامية من الخزف تدل على أنها تنتمي إلى وحدة فنية تجمع بينها ، رغم ما فيها من تنوع في الأساليب الزخرفية التي ازدهرت في شتى بلاد العالم الاسلامي ، فلكل بلد اسلوب زخرفي خاص به ، يميزه عن غيره ، ولكن ضمن وحدة الزخرفة الاسلامية كاطار عام يختلف عن الاساليب الاخرى الصينية أو الهندية أو الاوروبية مثلاً .

ومما يثير اعجاب ودهشة الناقدين الفنيين لصناعة الخزف الاسلامي ، الاتقان الزائد في استغلال تأثير النور والظل ، ونجاح الخزافين المسلمين

في ذلك نجاحاً بزّ جميع زملائهم من خارج العالم الاسلامي .

— وكما يقول د . محمد مصطفى مدير متحف الفن الاسلامي بالقاهرة — نجد في الخزف الاسلامي الألوان دافئة ، مريحة للنظر ، ونجد الزخارف البارزة المنحوتة أو المصبوبة في القالب ، يختلف عليها النور والظل ، ويكسبانها رونقاً ، ويعطيانها نوعاً من الحياة . ويتخلل النور الزخارف المخرمة في جدران الأواني ، والمكسوة بطلاء زجاجي شفاف ، يبعث الحياة فيما يوجد داخل الاناء ، كما تلمع الزخارف المدهونة بالبريق المعدني وتبهر الأبصار ، بينما تظهر الصور المرسومة باللون الأسود تحت طلاء زجاجي شفاف فيروزي اللون وكأنها أشباح في ليلة مقمرة .

وكان الخزافون المسلمون هم أول من اخترع البريق المعدني في زخرفة الخزف . ويعتقد أن ابتكاره تم في العراق ، ولكنه نضج واصبح لونه ذهبياً منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) . وانتشر استعماله في مصر والعراق وايران ثم في الشام والأندلس . وكانت الزخارف ترسم فوق الطلاء الزجاجي بأكاسيد بعض المعادن ، أو تحجز على أرضية مدهونة بهذه الاكاسيد ، تثبت في أفران خاصة ، فيظهر لها لمعان معدني واضح ، يختلف بين اللون الذهبي والأحمر النحاسي والبني والزيتوني .

وكان الفنانون من الخزافين ينتقلون في البلدان الاسلامية ويصنعون بنفس أساليبهم ، عدداً من التحف ، في البلدان التي يحلوا فيها ، لذلك نجد اوان خزفية متشابهة في أشكالها وفي أساليبها الزخرفية ، مصنوعة في مصر او العراق أو ايران في نفس العصر ، مع اختلاف بتاريخ الصناعة متقارب .

ومن المراكز التي اشتهرت بصنع الخزف « قاشان » واليها تنسب صناعة تربيعات (بلاط) القاشاني ذي البريق الملون ويسمى بالمغرب الزليج

ومنه اقتبس نموذج اسمه AZULEJOS واشتهرت في سوريا (الرقة) في العهد السلجوقي كما عرفت مصر بالصناعة الخزفية الراقية زمن الفاطميين والايوبيين والمماليك . وأما في المغرب والاندلس فــذاعت شهرة ملقة

الشكل — ١٠٠ —

اناء زجاجي مموّه بالميناء من صناعة سورية في عصر المماليك
(النصف الاول من القرن ١٤ م)

وغرناطة ومنطقة بلنسية[1] . وأما في العهد العثماني فاشتهرت (بروسة) في آسيا الصغرى ودمشق بالبلاط القاشاني .

وفي كتاب الفه عام ١٣٠١ م أبو القاسم القاشاني أحد افراد اسرة عريقة في صناعة الخزف ، وصف لصناعة الخزف الاسلامي ، فيقول :

يتكون الخزف الابيض الرقيق الصلب ، من عجينة من الطفل الأبيض ، يضاف إليها مسحوق حبيبات الكوارتز والبوتاس ثم تحرق الآنيـــة بعد تغطيتها بطلاء قلوي مصنوع بحبيبات الكوارتز والبوتاس أيضاً . ويكون الرسم تحت الطلاء القلوي . وهذا يدل على أن صناعة الخزف الاسلامي تأثر بصناعة « الصيني » ولكن ادخل عليها الذوق العربي والتأثيرات الاسلامية فغدت زخارفها كتابات كوفية أو تفريعات نباتية أو رسوم حيوانات وطيور تمرح بين أوراق النبات وفروعها . فكان اللون الغالب في الخزف الاسلامي ، والمصنوع في فارس خاصة ، الأزرق الزهري أو الأزرق الفيروزي أو البني أو الأخضر أو الأصفر أو الارجواني .

وهناك نوع من الخزف ظهر منذ القرن الثاني عشر الميلادي سمي بخزف « لقبي » عبارة عن أواني حددت رسومها بالحزوز حتى لا يسيح طلاؤها ..

---

(١) ويروى أن صناعة الزليج قـــد انتقلت الى شـــمالي افريقيـــا والمغرب على يد اسماعيل الطلاء من القيروان الذي ذهب الى بغداد في أوائل القرن الثالث الهجري ليتعلم النحو ، ولكنه عمل في دكـــان غضـــار (صانع الفضار والخزف المطلي) وتعلم صناعة القاشاني واشترى ١٢٠ بلاطة نموذجية الزخرف ورجع الى القيروان فكسا حلق المحراب الجامع الكبير بها عام ٢٥٠ هـ ، وصنع بنفسه الكمية اللازمة لاتمام واجهة المحراب فكان ذلك نقطة الانطلاق لصناعة الزليج في مغرب العالم الاسلامي وجنوبي أوربا .

الزجاجيات : يعرف الشرق العربي صناعة الزجاج منذ أيام العرب لقدماء وقد استمرت أساليب هذه الصناعة سائدة ، كما كانت في القرن الأول للهجرة ، واشتهرت دمشق وحلب وانطاكية وصور وعكا والخليل بانواع الزجاج الشامي الذي كان يضرب المثل برقته ونقائه وزخارفة . وارتقت المصنوعات الزجاجيـــة في العصر الفاطمي رقياً كبيراً ترك بين أيدينا تحفاً فنية لا تعد ، منها كؤوس وقماقم وصحون وأباريق ، ولعل أشهر المنتجات الفاطمية وأعظمها قيمة من الناحيـة الفنية الزجاج المذهب والمزين بزخارف تبدو كالبريق المعدني . هذا عدا البلور الذي أقبل عليه كبار القوم لصلابته بالنسبة للزجاج العـادي ولطف منظره ، ومعظم الآثار البلورية الاسلامية موجود الآن في الكنائس الغربية .

وبلغت صناعة التحف الزجاجية أوج عزها أخيراً في الشام ومصر فيما بين القرنين السادس والتاسع الهجريين (١٢ — ١٥ م) برعاية سلاطين العهد

الشكل — ١٠١ —
نماذج من القاشاني الملونة بالابيض والازرق من صناعة دمشق
(أوائل القرن ١٥ م)

الشكل — ١٠٢ —
احــد نقوش قطعة نسيج صنع في غرناطة وتمثل شاعرين أندلسيين يتساجلان في جلســة شراب

الأيوبي والمملوكي . وكان فخر هذه الصناعة تزيين التحف بالزخارف الذهبية المموهة بالمينا . وبرزت في هذا مدينة (الرقة) . وأبدع ما وصلت اليه صنع المشكاوات ومنها أمثلة كثيرة موزعة بين المتاحف والمساجد الكبرى .

أما إيران فقد سايرت صناعة الزجاج فيه التطور الذي جرى في الشام ومصر حتى كان عهد تيمورلنك الذي جمع في سمرقند نخبــة من أمهر رجال هذه الصناعة السوريين برز بهم اسم المدينة ثم تلتها شيراز في القرن (١٧ — ١٨ م) .

ومن المؤسف أن التحف الزجاجية الاندلسية نادرة جداً رغم ازدهار صناعتها في المرية وغرناطة بسبب ما أصابها من الاتلاف في عصور محاكم التفتيش .

المنسوجات : كان إنتاج الأقمشة الجميلة من أهم ميزات الفنون الاسلامية . اشتهرت بذلك الشام ومصر وإيران . وبالرغم من أن بعض المنسوجات ما يزال يحتفظ باسم (دمشق) (كالدامسكو) والموصل (الموصلين) فان دور الطراز العامة والمنسوجات الأثرية الباقية تنسب خاصة لمصر ولايران

فالنسيج القديم في مصر تابع في القرون الاسلامية الأولى تطوره من أساليبه القبطية القديمة في الزخرفة بالرسوم الآدمية والحيوانية والطيور. وقد عظم اهتمام الخلفاء الفاطميين بصناعة النسيج ، وكانت وظيفة صاحب الطراز لا يتولاها إلا أحد كبار المقربين . واشتهرت مدينة تنيس بأنواع من النسيج المقصب الملون وبنوع من القماش يعرف (بالبوقلمون) . وقد عرف الصناع طبع الرسوم على القماش بالقوالب الخشبية ، وقد اضمحل نسيج الكتان بمصر في عهد الأيوبيين والمماليك وزادت العناية بنسيج الحرير وتطويره وزخرفته .

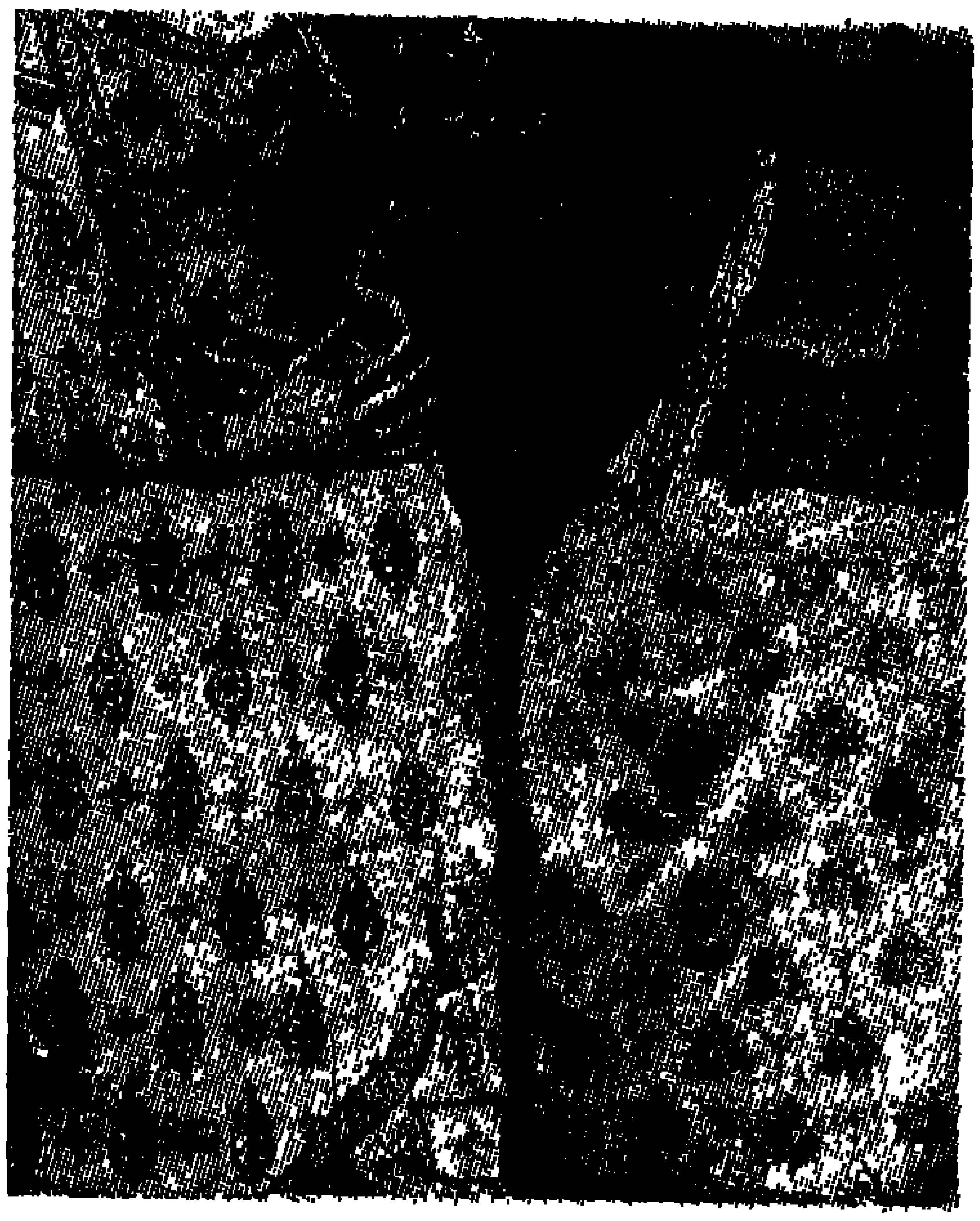

جزء من لوحة فنية للرسام الايطالي اليفريتو بوتسي يصور تتويج مريم البتول (النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي) ويظهر فيها أثر فن الارقشة العربية (الارابيسكا)

أما إيران فشهرتها بالنسيج جعلتها تدفع بعض جزيتها من المنسوجات النفيسة ، وكان من أهم مراكز النسيج نيسابور وأصفهان والري ومرو حتى

قاشان ، على ان زخارفها وأساليبها بقيت أول الأمر ساسانية حتى كان العهد السلجوقي الذي جاء إيران بنهضة عامة في النسيج تأثرت بالأساليب الصينية من جهة ، وبالتقدم الزخرفي الذي ظهر في الجزيرة إذ ذاك بشمال العراق (كالموصل) . واستمرت شهرة إيران بالنسيج الرائع قائمة في العصر المغولي والتيموري وأخيراً في العهد الصفوي الذي بلغ القمة .

السجاد : بالرغم مما ثبت في بعض الآثار والأخبار من وجود صناعة السجاد في الأقاليم الاسلامية كمصر وأرمينيا منذ القرن الثاني الهجري فإن إيران تذهب لوحدها بكل اهتمام الباحثين في هذه الصناعة الفنية الرائعة .

وترجع أقدم السجاجيد الايرانية المعروفة إلى العصر السلجوقي لكن صناعتها لم تبلغ الأوج إلا فيما بين القرنين (١٠ – ١٢) الهجريين (١٦ – ١٨ م) وكانت أهم مراكز السجاد ولا تزال أصفهان وقاشان وتبريز وشيراز وهمدان . وبالرغم من صعوبة دراسة كل مدينة منها على حدة ، فيمكن أن نلاحظ بشكل عام أن السجاجيد ذات الصرة الزخرفية في الوسط هي من صنع شمالي إيران (تبريز قاشان) . أما ذات الرسوم الحيوانية والعناصر الآدمية فلم تشتهر هناك حتى القرن العاشر الهجري . أما الزهور والأشجار وأغصان النبات ، والزخارف من نوع الآرابسك فقد أصبحت تسيطر على جميع أنواع السجاد في بقية البلاد الفارسية . وكان يدخل في بعضها أحياناً كتابات مختلفة . وقد انحطت هذه الصناعة في إيران بعد القرن الثاني عشر .

وبقي السجاد في المغرب والأندلس محلياً حتى القرن الثاني الهجري حين وصلته جيوش خراسانية حاملة معها السجاد العجمي فانتشر استعماله فيها . والسجاد المغربي قبل ذلك كان صعب البرر ، قصير الشعر ، ليس به إلا الزخرف الهندسي ذو الخط المستقيم . كما كان معروفاً السجاد

البيزنطي عالي الوبر كثير الزخرف .. وتولد من السجـــاد المحلي لشمال أفريقيا والسجاد العجمي الجديد ، سجاد قيرواني نسبة إلى مدينة قيروان ، حيث دخله عنصر الحرير واسلاك الذهب والفضة (الزركشة) والتزيين بالجواهر ولا يزال بقايا هذه الصنعة في تونس . ومن أشهر السجاد القيرواني ،

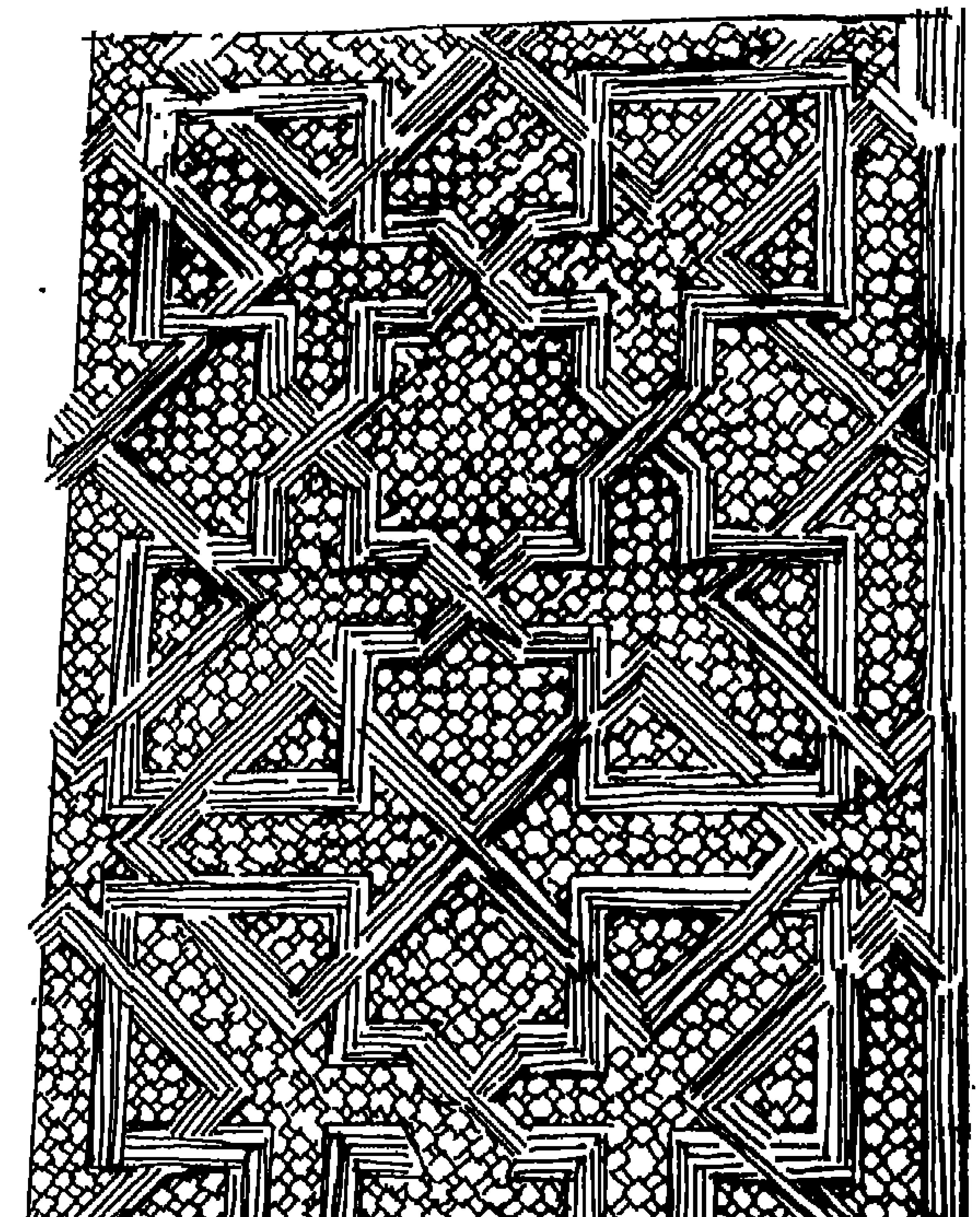

نموذج من صناعة الابواب الخشبية بحشوات من الخشب ترتب باشكال هندسية بديعة . أحد أبواب مدرسة العطارين في فاس ــ المغرب

سجادة حملها معه أحد أمراء الفاطميين حين انتقل من المهدية إلى القاهرة ، وعليها خريطة تونس مصورة .

الحفر : حفر المسلمون الأشكال الفنية في الخشب والعظم والعاج ، كما حفروها في المعدن والحجر والجص .

فأما في الخشب فقد وصلنا من العصرين الأموي والعباسي عدة أمثلة منها حشوات في المسجد الأقصى بالقدس . وباب أموي ، في الغالب ، مملوء بالزخارف الهندسية والنباتية ، ومنبر جامع عقبة في القيروان ، المتميز بالاتقان . ويبدو أن الحفر الخشبي تقدم في مصر في العهد الطولوني ولكنه بلغ أوجه في العصر الفاطمي إذ دقت الزخرفة وظهر التفريغ الدقيق .

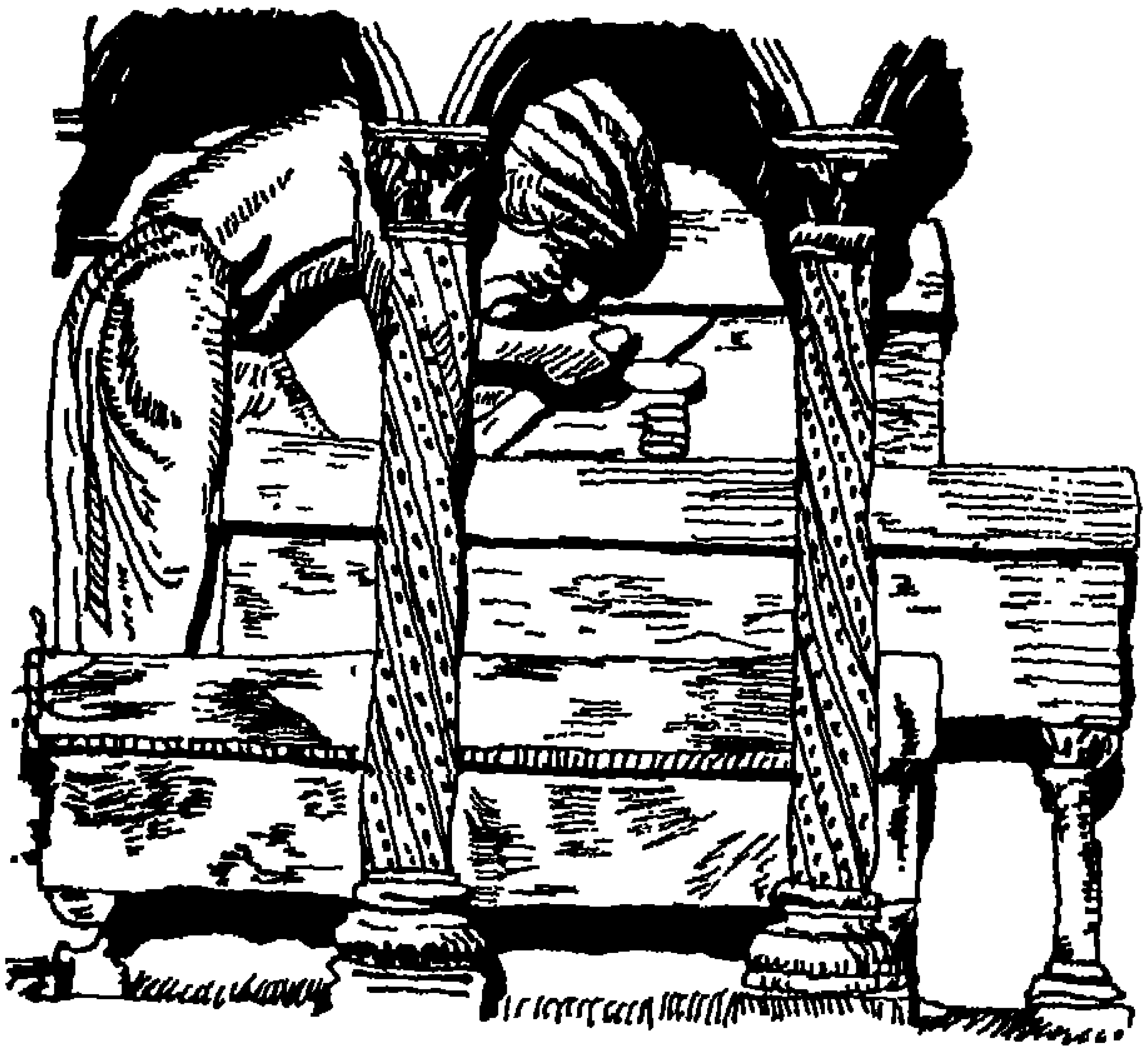

الشكل ـ ١٠٥ ـ

صورة عربية اندلسية تمثل نجارا عربيا يقوم بحفر ونقش الخشب

(القرن ١٢ م)

شكل — ١٠٦ —

نموذج من الحفر على الخشب في الجامع الكبير في قرطبة

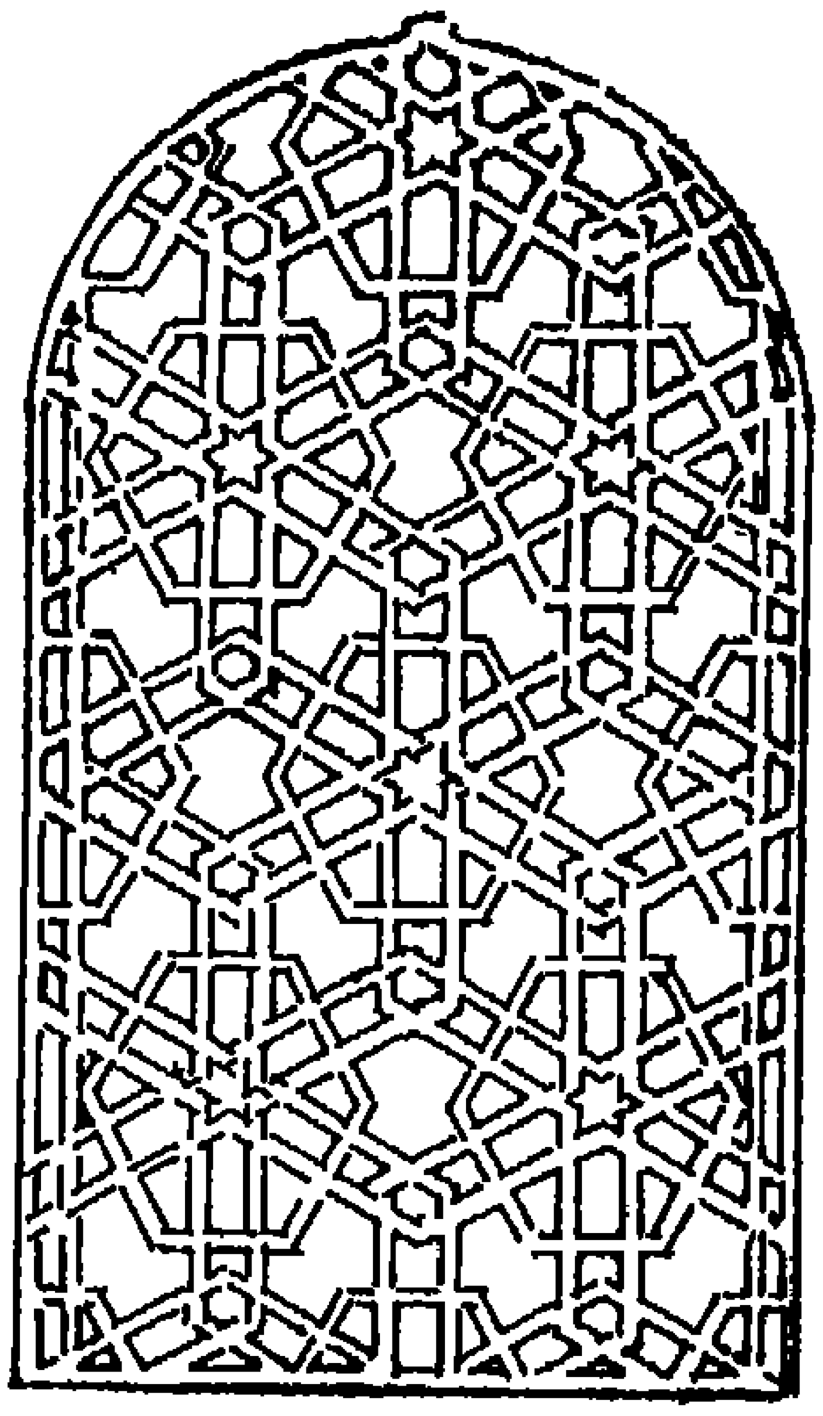

شكل — ١٠٧ —

تزيينات هندسية لنافذة احد مساجد القاهرة — ١٣٤٠م — وهي مثال للزخرفة العربية الاسلامية الهندسية التي كثرت في النوافذ والابواب ، من الخشب ، وفي الجدران من الرخام

ومن أمثلة ذلك تابوت قبر سكينة (في دمشق) . وظلت هذه الصناعة محتفظة بأساليبها وانتشارها في العهد الأيوبي والمملوكي وقد تركت لنا عدداً كبيراً من المحاريب والنوافذ والحواجز والمنابر والتوابيت . (كتابوت صلاح الدين بدمشق) وقد تأثر الحفر في العهد السلجوقي في إيران وآسيا الصغرى بأساليب الشام ومصر وترك لنــا تحفاً محدودة كما تأثرها حفارو الأندلس . غير أن العصر المغولي والتيموري أدخل على الزخارف الخشبية عناصر جديدة أكثر حياة وشبهاً بالطبيعة من الزخرفة الفاطمية .

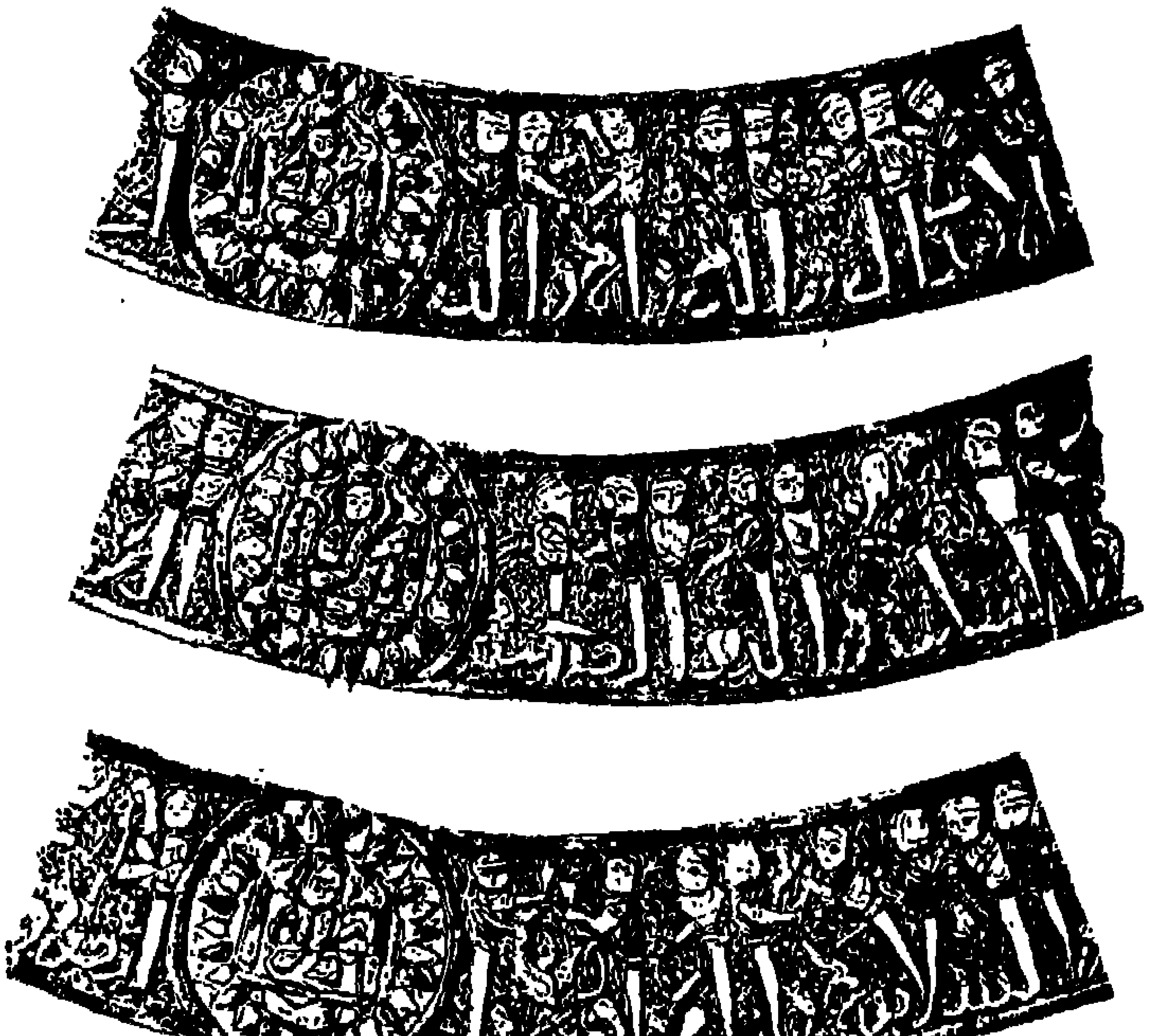

شكل ــ ١٠٨ ــ

نقوش بارزة لاناء نحاسي ضخم مرصع بالفضة ، من صنع مدينة هراة في القرن الحادي عشر الميلادي . وهو نموذج لفن التكفيت والنقش والزخرفة على المعدن في العصور الاسلامية ويمتاز هذا النقش بالطراز الزخرفي الذي يحول رؤوس الاحرف الهجائية الى رؤوس بشرية وحيوانية . وهي طريقة استعملها المزخرفون الغربيون في كتبهم وفي الاحرف الهجائية الاجنبية .

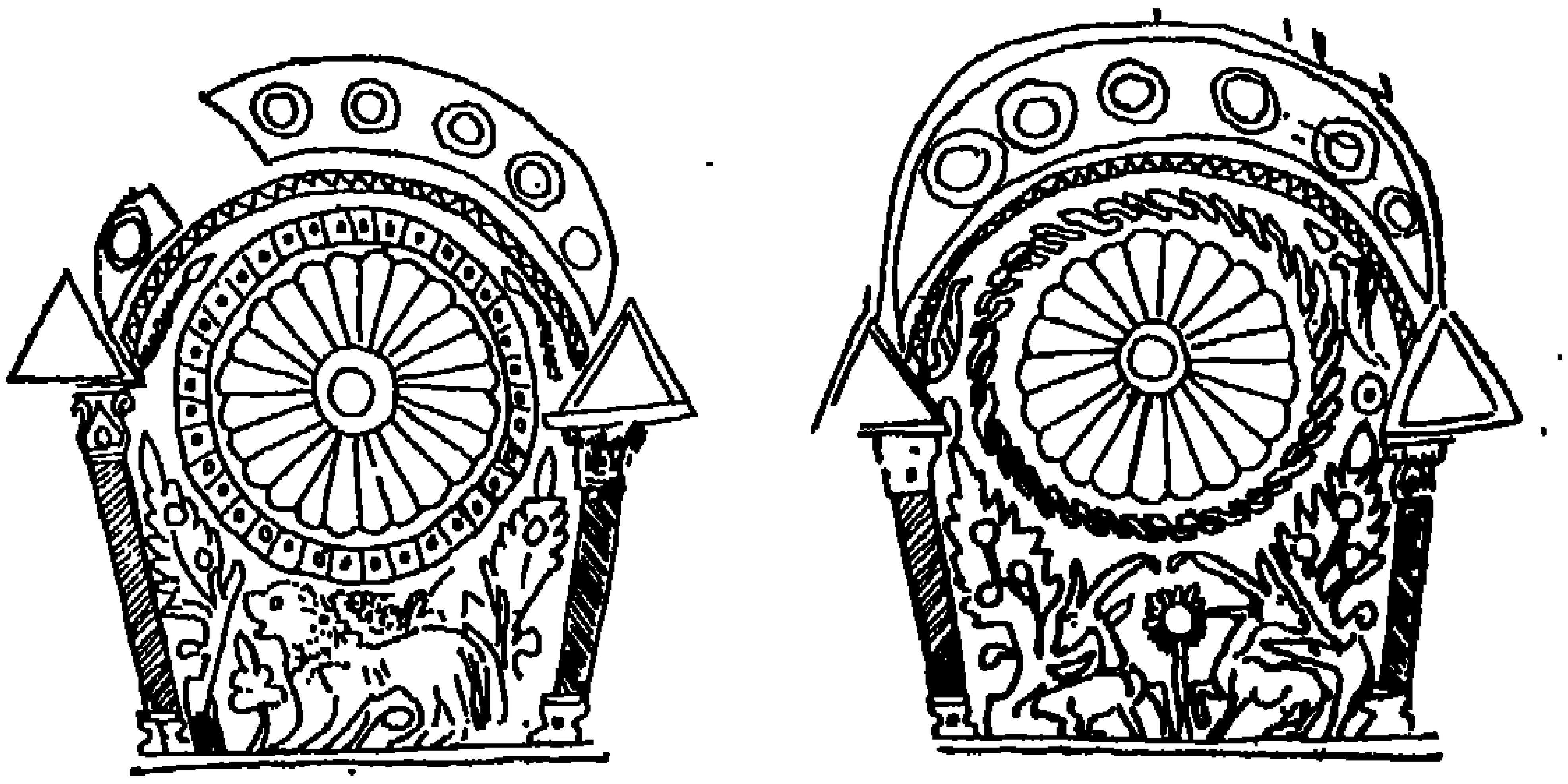

رسم جانبين من الزخارف المحفورة على الابريق المنسوب الى مروان الثاني في دار الآثار العربية بالقاهرة

شكل — ١٠٩ —

بعض الزخارف المحفورة على ابريق معدني يعتقد انه كان للخليفة الاموي مروان الثاني . والابريق محفوظ في دار الآثار العربية بالقاهــرة .

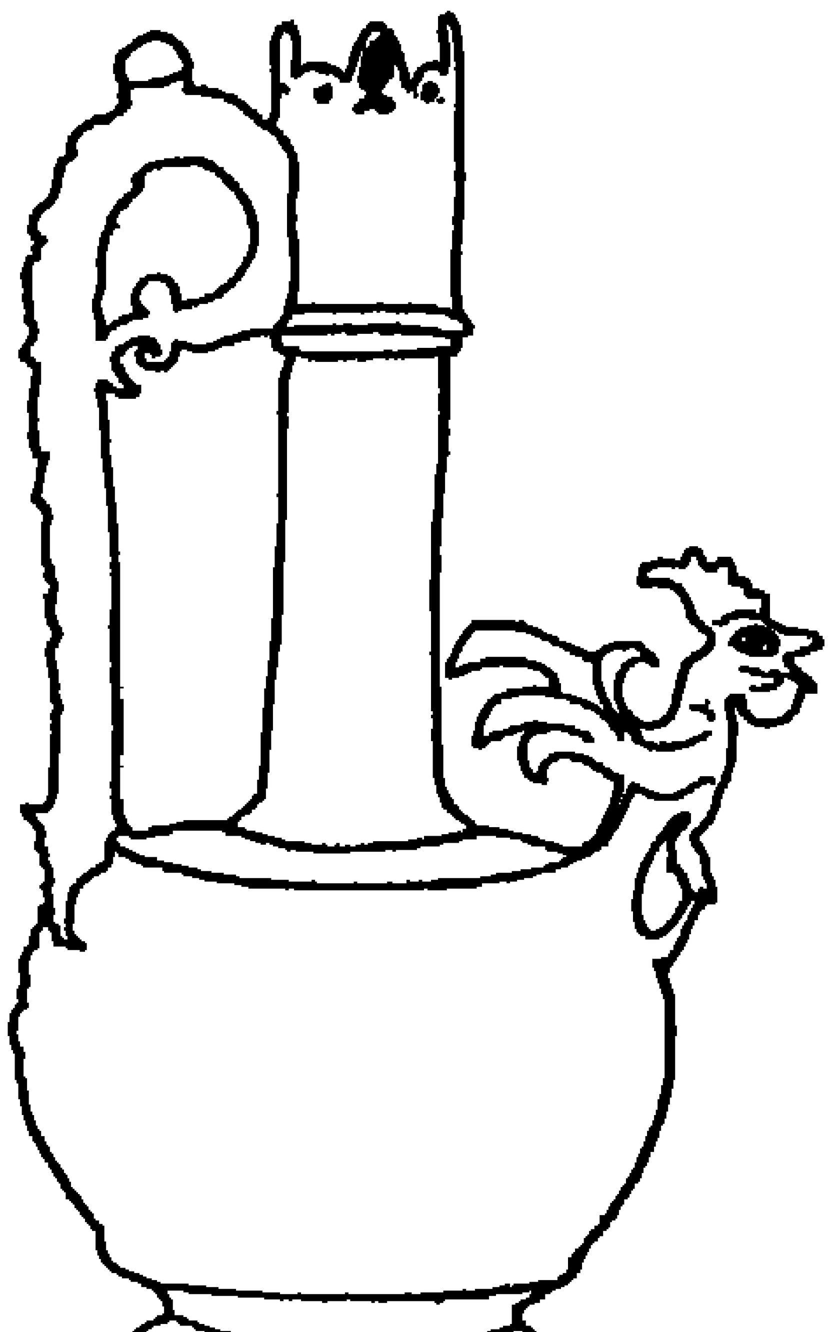

شكل — ١١٠ —

ابريق مصنوع من البرونز ، في العصر الاموي القرن الثامن الميلادي من عمل فنانين فرس

واما حفر العظم والعاج : فمعظمها كان على شكل علب أو حشوات لبعض الاعمال الفنية الأخرى . وقد بقي هذا الفن في أسر الذين كانوا يعملون به قبل الاسلام . وأمثلة التحف العاجيـة التي وصلتنـا من صدر الاسلام لا تدل على أيد مبتدئه بالحفر. وقد وصلتنا تحف عاجية كثيرة من العصر الفاطمي ، لكن لم يصلنا من العصر الأيوبي والمملوكي إلا القليل ، ومعظم أعمال العاج في هذين العصرين كان في التطعيم .ولكن الأندلس هي التي تركت لنا أكبر عدد من التحف العاجيه الموزعة بين المتاحف .

وأما في المعدن : فقد كانت التحف الاسلامية الأولى منـــه استمراراً لتقاليد الفن الساساني وأساليبه لحد كبير . وقد استعمل الفنانون المسلمون في أعمالهم البرونز خاصة وصنعوا منه الاباريق والمباخر وآنيـة الماء على أشكال الحيوان خاصة . أما الأواني الفضية من صدر الاسلام فمعظمهـا صحون عليها مناظر صيد ورسوم مألوفـــة في الفن الساساني وأباريق من نفس النوع .

وقد ازدهرت صناعة التحف المعدنية في العهد الفاطمي وامتلأت بها قصور الخلفاء ومعظمها تماثيل للحيوانات : كالطير والأسد والظبي والأرنب ، عدا الشماعد والصواني والثريات . وكان بعضها يطعم بالمينا مع الزخارف ، وعدا قطع الحلي التي تفنن الفاطميون في صياغتها ما بين أساور وخواتم وأقراط وأطواق .

وكان العهد السلجوقي في إيران مجال نهضة في صياغة الفنون المعدنية من البرونز والفضة والذهب . وبعضهـا كان يملأ بالزخارف البارزة ، كما نرى في المرايا السلجوقية وفي الصواني والشماعد الباقية والأباريق . على أن أهم الأساليب الفنية التي ازدهرت على يد الصناع السلجوقيين بايران والجزيرة هو نقش البرونز والنحاس الأصفر بزخارف عميقة تملأ بالفضة والذهب والنحاس

شكل – ١١١ –

تزيينات في منارة (مأذنة) الكتبية في مراكش

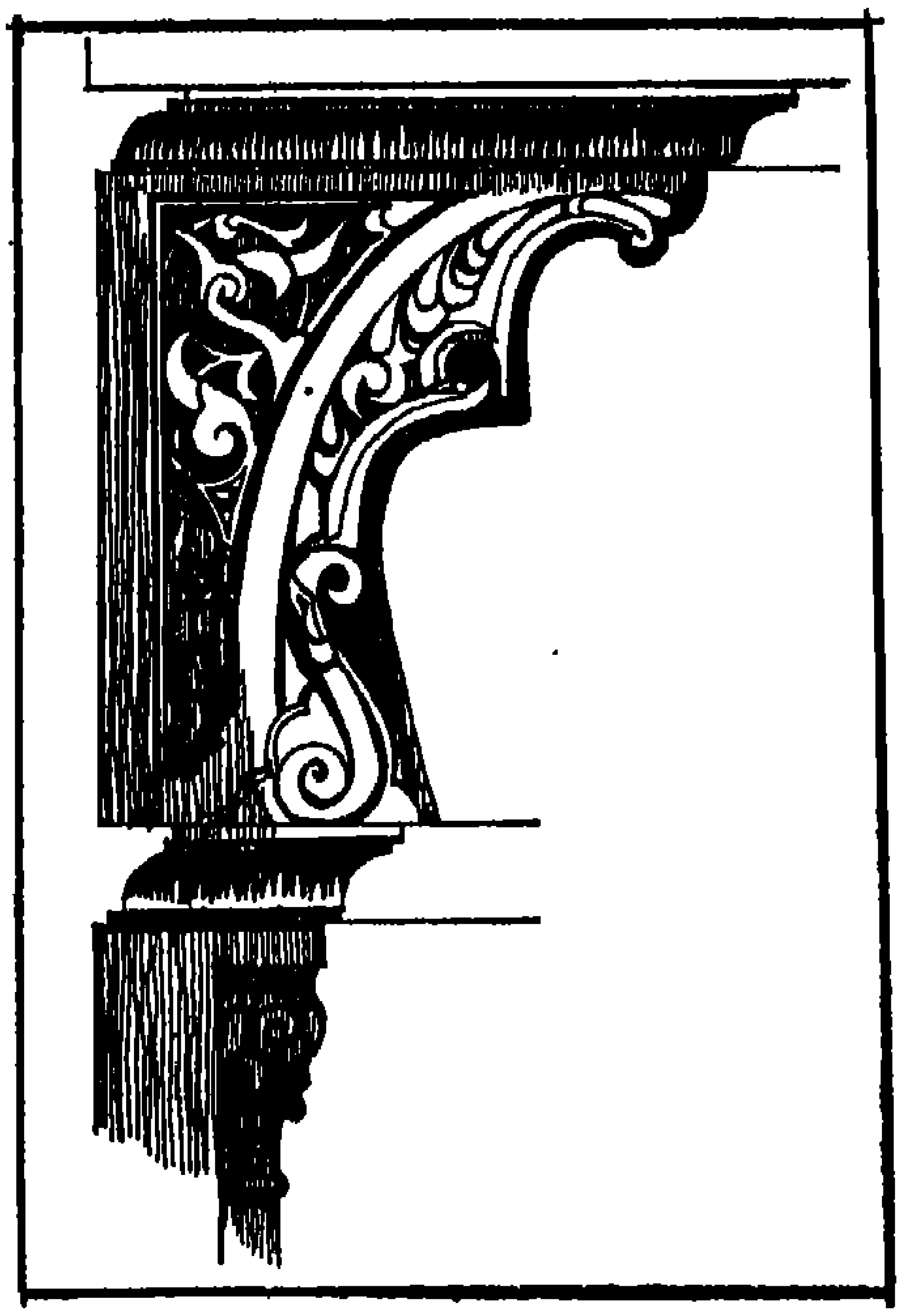

شكل – ١١٢ –

تزيينات من باب قصبة ودايا في الرباط .

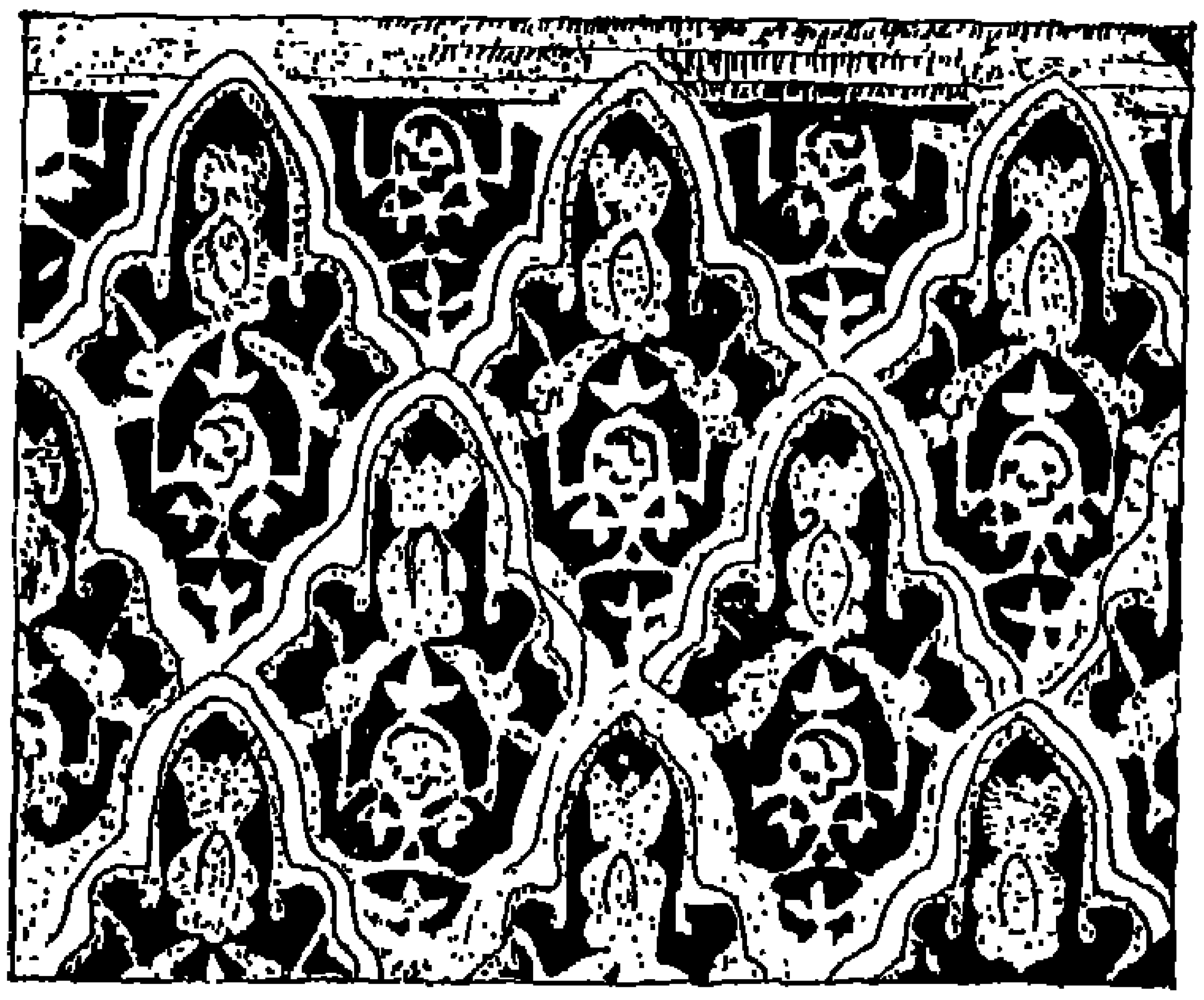

شكل – ١١٣ –

من زخارف قاعة الاسود في قصر الحمراء ويعد هذا القصر العربي الاسلامي اجمل قصور العالم من حيث سعته وجماله وتنوع ودقة ورشاقة وغنى زخارفه الجصية .

شكل – ١١٤ –

طبق منقوش بنقوش نافرة وغائرة ومكفت بالذهب مصنوع في فالنسيا في الاندلس يعد نموذجا في فن التكفيت والحفر الاسلامي الراقي (القرن الخامس عشر الميلادي) في المغرب ، أو الفن الاسباني – المغربي

الأحمر وهو ما يعرف بالتكفيت . وقد عرفت بهذه الصناعة الدقيقة مدينة «الموصل» خاصة خلال القرن السابع الهجري (١٣ م) وقد هاجر بعض صناع الموصل في هذا العصر إلى دمشق وحلب والقاهرة واشتغلوا للأمراء الايوبيين فازدهرت صناعتهم في هذه المدن ولم يزدها العصر المملوكي إلا ازدهاراً بسبب إقبال سلاطين المماليك على هذا الفن واستخدامه في الابواب والنوافذ ومختلف الأدوات والأواني والاسرّة وأدوات الكتابة .

وقد تطور حفر المعادن في إيران على نفس الاساليب في العهد المغولي والتيموري . فلما كان العهد الصفوي مال الناس إلى الزخارف الهندسية والنباتية الدقيقة فملأوا بها أدوات الحرب والأواني وما اليها .

ولا نكاد نجد في أعمال الاندلس المعدنية من اختلاف عن أعمال الشام ومصر منذ العهد الفاطمي حتى المملوكي .

واما الحفر في الحجر والجص : فقد ملأ به المسلمون معظم آثارهم المعمارية ، ولعل أبدع ما وصلنا من عصر صدر الاسلام الزخارف الحجرية في قصر (المشتى) وزخارف قصر (الحير) الغربي . وفي قبة الصخرة والمسجد الأموي بعض نماذج من الحفر الأموي على الرخام تعتمد على الزخرفة الهندسية والنباتية .

وقد استمرت أساليب الحفر والزخرفة هذه في العصر العباسي مدة حتى تم تكون الاسلوب العباسي الخالص في القرن الخامس الهجري الذي اعتمد على الفروع النباتية المنطلقة في انثناءات وتعاريج متكورة كما نرى في تيجان الأعمدة في الرصافة والرقة ، على الفرات ، وفي الزخارف الجصية الهامة في سامراء .

ويتمثل النحت الحجري والجصي في العهد الفاطمي ببعض التماثيل والصفائح والمحاريب التي تستخدم العناصر النباتية المحورة . أما في العهد

السلجوقي فقد كثر استعمال الرسوم الآدمية والحيوانية في الزخرفة ولاسيما في آسيا الصغرى . لكن الأيوبيين والمماليك اتبعوا الأساليب الفاطمية وتوسعوا في الزخرفة النباتية وانتشرت المقرنصات في اسلوب البناء سواء في المساجد أو القصور أو المدارس .

والزخارف الفنية النافرة في جدران وسقوف قصر الاندلس كافية للدلالة على مبلغ التقدم الفني في هذا المجال في غرب المملكة الاسلامية .

الفسيفساء : (كلمة يونانية الأصل) وقد برع بهذا الفن صناع الشام البيزنطيون الذين صنعوا للوليد بن عبد الملك فسيفساء الجامع الأموي وقبة الصخرة وهما أروع النماذج في العصر الإسلامي . وموضوعات الزخرفة فيها : كتابات ومناظر طبيعية وزخارف نباتية . ولم تزدهر هذه الصناعة بعد العهد الأموي ، والنماذج القليلة التي وصلتنا من العصر العباسي ومن عصور الدويلات المنفصلة كالتي نراها في قبة الملك الظاهر بيبرس بدمشق تدل على الانحطاط والتراجع .

الفصل العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الفنون الجميلة
الغناء والموسيقى

الغناء والموسيقى

للنغم الحلو قوة ساحرة تأخذ بالألباب ، سواء كان ذلك في بداوة أو حضارة . وسواء أكان المغني من الإناث والذكور . ولكل جيل ألحانه ، ولكل صقع أنفاسه وطرائق إيقاعه على آلات اللهو والطرب ، من ضرب على الأوتار ، أو نقر بالدفوف ، أو نفخ في المزامير ، بين خفوت وارتفاع وامتداد وانقطاع ، وهمس وجهر ، وحدة ولين ، وآهات وأنين .

وقد وضعت لمجرى الأصابع على ثقوب الآلات وأوتارها قواعد يعرفها أهل الفن ، سموها لحناً . . . وسموها صوتاً وسموها نغماً ، وسجلناها على الورق في عهدنا الحاضر وسميناها باسمها الافرنجي « نوتة موسيقية » .

والغناء يكون في الشعر ، لأن الشعر له أوزان منغمة ، وقد يكون في الموشحات والزجل ، ففيها ايقاع موسيقي ووزن وقافية ... .

تطور الغناء منذ الجاهلية حتى العصر الاموي : اختلفت ضروب الغناء عند عرب الجاهلية ، فمنه الحداء للابل في مسيرها ، والهزج وقت الغارة ، والانشاد في الصلاة والأفراح والمآتم ، ولا تزال آثار الترانيم الدينية الساذجة محفوظة في التلبية من مزاسيم الحج . أما طريقة إنشادهم الشعر فلا يزال أثرها في تجويد القرآن . وكان للحداء مقام رفيع عند العرب فقد استعذبته نفوسهم وهم يعدونه أقدم أنواع الغناء . وقد نشأ الغناء ، كما جاء في أسطورة ذكرها المسعودي كما يلي : قيل سقط مضرَ بن نزار بن معد عن جمل في بعض أسفاره فانكسرت يداه فجعل يقول « يا يداه ! يا يداه ! » وكان من أحسن الناس صوتاً

فاستوسقت الإبل وطاب لها المسير ، فاتخذه العرب حداء .

ولا ريب في أن عرب الجنوب كانت لهم أنواع خاصة من الغناء وآلات الموسيقى التي لم يصلنا عنها إلا القليل ، ومهما يكن من أمر هذا الفن في الجنوب فإنه لا يعد قسماً من تراث العرب الشماليين ومن تلاهم من أهل الحضارة الاسلامية ، وقد استعمل أهل الحجاز الدف قبل الاسلام وهو آلة موسيقية مربعة الشكل كما استعملوا كذلك القصبة أو القصابة أو الزمر أو المزمار ، وكذلك كان المزهر معروفاً لديهم ، وما كاد يبدأ عهد النبي عليه السلام ، حتى كانت المؤثرات الموسيقية الأجنبية قد بدأت تظهر في بعض الأوساط العربية ، فقد اقتنى أمراء غسان أجواقاً من القيان اليونانيات ، وكان اللخميون من أهل الحيرة يعرفون العود الذي استعاره منهم أهل الحجاز . وفي بعض الأخبار أن النضر بن الحارث بن كلدة الطبيب الشاعر هو الذي أدخل العود إلى مكة من الحيرة ، وكان ينظم الشعر محاولاً أن يستميل نفوس القوم ويصرفهم عن الاستماع إلى القرآن . وهناك أخبار أخرى تجعل ابن سريج (المتوفي حوالي ٧٢٦م) أول من أدخل العود الفارسي إلى الحجاز . وقد ذكروا أنه رأى العود لأول مرة في أيدي الفعلة الفرس الذين أقدمهم إلى الجزيرة سنة (٦٨٤م) عبد الله بن الزبير لبناء الكعبة . وقد استعير الناي بعد ذلك وهو اسم فارسي لآلة صوتية تصنع من الخشب أيضاً حسبما أظهرت دراسات البحاثة فارمر . والظاهر أن أكثر من عني بالغناء في الجاهلية كانوا نساء ، وقد حفظ لنا صاحب الأغاني أسماء نفر منهن . ومن المراثي التي قالتها الخنساء الشاعرة المشهورة في رثاء أخيها صخر وضع دون شك ليغنى به في المآتم . ولا بدع ، فان أكثر شعراء الجاهلية كانوا ينشدون أشعارهم انشاداً أشبه بالغناء .

شكل — ١١٥ —
رسم في إنـاء خزفي اسلامي ، يمثل الضاربة على العود

ولم تكن حملة القرآن على الشعراء باعتبار أنهم شعراء ، بل بصفتهم ممثلي الشرك والوثنية . ولعل الرسول لم يرض كثيراً عن الموسيقى لارتباطها بالطقوس الوثنية . وفي بعض الحديث ما يفيد ان الآلة الموسيقية كمؤذن الشيطان يستفز من استطاع إلى عبادته . والواقع أن السواد من متشرعي الاسلام والفقهاء كانوا يعرضون عن الموسيقى حتى ذمها بعضهم في جميع الأحوال ومنهم من عدها مكروهة في الدين وإن لم تكن حراماً . إلا أن نظرة جمهرة الناس إلى الأمر يعبر عنها القول المأثور : « الخمر كالجسد والسماع كالروح والسرور ولدهما » .

وبعد أن زالت الروعة الأولى التي أوحاها ظهور الإسلام اتجه التطور الاجتماعي في الحجاز إلى ناحية تذوق الجمال وبالأخص في عهد عثمان أول خليفة عاش في بحبوحة من المال والرفاه . ثم أتقن القوم فن الطباق بين الصوت والآلة الموسيقية وأخذوا فيما يسميه العرب موطداً في الحجاز ، ظهر لأول مرة طبقه من الرجال ممن احترفوا الموسيقى وكانوا يحنون أيديهم ويتقصفون تقصف النساء فعرفوا بالمخنثين . منهم طويس (أي الطاووس الصغير ٦٣٢ — ٧١٥ واسمه الأصلي : عيسى بن عبد الله الذائب) أول من غنى بالمدينة فبدأ الغناء في الإسلام ويظن ، أن طويساً أدخل الايقاع إلى الغناء العربي . وأنه أول من غنى بالعربية مصحوباً بالآلة الموسيقية المعروفة بالدف . وكان جيل المغنين الأول في الاسلام نفراً من الحلفاء الأجانب وعلى رأسهم طويس . ولطويس عدد من التلامذة أشهرهم ابن سريج أحد المغنين الأربعة العظام في الاسلام ، وقد عزا الرواة إليه إدخال العود الفارسي إلى الحجاز والتوقيع بالقضيب إرشاداً للضاربين بين آلات الموسيقى في الحفلات الموسيقية العامة التي كان يديرها . ثم ابن سريج وهو تركي الأب وكان مولى لسكينة بنت الحسين ، وقد درس ابن سريج أيضاً على سعيد

ابن مسجح (المتوفى حوالي ٧١٤ م) المكي الأسود وهو مولى أيضاً . وكان سعيد أول موسيقي ظهر في مكة ولعله أعظم من ظهر في العهد الأموي ، فقد قيل إنه رحل إلى الشام وفارس وأخذ ألحان الروم والفرس فنقلها إلى غناء العرب ، والظاهر أنه نظم الموسيقى العربية في ناحيتيها النظرية والعملية في العهد الأول من تاريخ المسلمين ، ومن الذين أخذوا عنه الغريض وهو من مولدي البربر علمه ابن سريج أيضاً وأصبح بعد معلمه الثاني من المغنين الأربعة المشهورين في الاسلام في ذلك العهد. أما المغنيان الآخران فهما ابن محرز (المتوفى حوالي ٧١٥ م) وهو فارسي الأصل وكان يقال له « صناج العرب » ومعبد (المتوفى ٧٤٣ م) وكان خلاسياً من المدينة ، ونال حظوة في بلاط الوليد الأول ويزيد الثاني والوليد الثاني وكان قبل انتقاله إلى العاصمة دمشق يجول مغنياً في أنحاء الجزيرة . ومن المغنين الأوائل سائب بن خاثر واسمه أبو جعفر سائب بن يسار (توفي ٦٣ ﻫ) من أهل المدينة ، ولم يكن يضرب بالعود ، وإنما كان يقرع بالقضيب ويغني مرتجلاً . ولما قدم نشيط الفارسي على المدينة وغنى بالفارسية صنع سائب خاثر مثل ذلك الغناء الفارسي بالعربية في أبيات مطلعها : « لمن الديار رسومها قفر » فكان ذلك أول صوت غني في الاسلام من الغناء المتقن الصنعة الممزوج بالألحان الفارسية . ثم أن نشيطاً تعلم الغناء العربي من سائب خاثر وعلم فيما بعد عدداً من المغنين بالعربية منهم عزة الميلاء ، وجميلة ، ومعبد ، وابن سريج .

وأحمد بن أسامة الهمذاني (توفي ٨٢ ﻫ / ٧٠١ م) أول من توسع في النصب (ضرب من الغناء أرق من الحداء) أي أول من نقل الغناء من الحداء (التنغيم البسيط وراء الابل) إلى شيء من العمل الفني وكان يغني بالطنبور .

وكان من القيان عزة الميلاء ، وكانت تضرب بالمزهر والمعزفة (تشبه العود أو الطنبور) وهما من آلات الجاهلية . وجميلة (المتوفاة نحو ٣٧ ﻫ) وهي مولاة مدنية تزعمت الفن في الجيل الأول وكانت دارها موئلاً لأرباب الموسيقى والغناء بمكة وتتلمذ عليها كثيرون منهم . ومن أبرز الذين كانوا يحضرون حفلاتها شاعر الحب المشهور عمر بن أبي ربيعة . ومن تلميذاتها حبابة وسلامة محظيتا يزيد الثاني . ولعل أروع حادثة ذكرها الرواة عن حياتها المترعة بالبدائع تلك الزيارة التي قامت بها إلى مكة فخرج منها حذاق المغنين والمغنيات وجماعة من الشعراء والأشراف وغيرهم من الرجال والنساء المعجبين بها يشيعونها أو يحجون معها ، وقد ركبوا على الابل في الهوادج والقباب وتخايروا في اتخاذ أنواع اللباس العجيب الظريف ، فما أن أشرفت الأبل على مكة حتى خرج الرجال والنساء ينظرون إلى جمعها وحسن هيئتهم حتى قضت حجها فعادت وعاد معها جمع أكثر من جمعها فتلقاها أهل المدينة ودخلت بموكب أحسن مما خرجت به وتوافد عليها الناس مسلمين لا يستنكف من ذلك كبير ولا صغير...

وجمعت جميلة عدداً من الميزات ، احلتها هذه المكانة في نفوس مواطنيها فقد كانت تجمع من حسن الخلقة ورقة الخُلق والطبع ما يزيد انوثتها قوة ، ولحنها تأثيراً ، وكانت الى ذلك مرحة شديدة المرح ، يسود مجالسها النكتة ويغلب عليها التواضع ، مع ما كانت عليه من ثقافة فنية وادبية ، ومقدرة على النقد الفني ، وحكم على الاذواق ، ولطالما اجتمع عندها كبار المغنين والمغنيات فاسمعتهم واسمعوها ، وحكموا لها وحكمت لهم . وقد اجتمع عندها ذات مرة شلة من المغنيين فقالت لهم جميلة : كلكم محسن

وكلكم مجيد في معناه ومذهبه . قال احدهم : ليس هذا بمقنع دون التفضيل فقالت : اما انت ياابا يحيى فتضحك الثكلى بحسن صوتك ومشاكلته للنفوس واما انت يا اباعباد ، فنسيج وحدك بجودة تأليفك ، وحسن نظمك مع عذوبة غنائك .. واما انت يا ابا عثمان فلك اولية هذا الامر فضيلة . واما انت يا ابا جعفر فمع الخلفاء تصلح . واما انت يا ابا الخطاب فلو قدمت احداً على نفسي لقدمتك . وقد قال فيها معبد : اصل الغناء جميلة ، وفرعه نحن .. ولولا جميلة لم نكن نحن مغنين . .

ويظهر ان جميلة عمدت احياناً إلى الغناء الجوقي فذكرت كتب الادب انها أمرت جواريها فضربن على خمسين وتراً فتزلزلت الدار ، ثم غنت هي على عودها فجرت من العيون الدموع . وكانت تجمع جواريها ليعزفن لحناً واحداً ويغنين صوتاً واحداً .

وكانت للموسيقى حفلات ومجالس زاهرة في منازل سيدات الطبقة الارستقراطية يؤمها جماهير من غواة الفن ومريديه ، وكان العود الفارسي المصنوع من الخشب قد أخذ يحتل مكان العود المصنوع سابقاً في الجزيرة من الجلد ، وكان من الآلات الموسيقية الوترية المستحبة عندهم المعروفة آلة تشبه القانون ومنها أيضاً القصبة والمزمار والبوق . أما الآلات التي تقوم على مبدأ النقر فهي الدف وهو مربع الشكل وكانت النساء أسبق إلى الالتفات اليه واستعماله ، والطبل والصنج ، وأما أنغام تقطيع الأصوات « النوتات » الموسيقية فقد كانوا يتناقلونها شفهياً من جيل إلى جيل ولهذا ضاعت كلها . فكتاب الأغاني مثلاً طافح بالأبيات التي كان المغنون يغنونها أيام الامويين ، إلا أنه لايثبت لنا « نوتا » واحداً نستدل منه على نغم صوت الغناء الذي كان رائجاً ، وكان عميد المغنين في العراق في ذلك العهد حنين الحيرى النصراني وقد روي أنه شخص إلى الحجاز زائراً فاستقبلته سكينة بنت الحسين وأذنت للناس إذناً عاماً فغصت بهم

دارها ، ولم ير يوم كان أكثر حشراً ولا جمعاً من يومئذ ، وصعدوا فوق السطح يسمعون صوته ، وازدحموا عليه فسقط الرواق على من تحته ومات حنين تحت الردم . وتوفرت في مواسم الحج الفرص لمن في الحجاز من أهل الموسيقى والغناء لاظهار مواهبهم أمام وفود الحجاج . ولقد كان من المألوف في بعض الأحيان أن يتوجه المغنون كي يلاقوا موكب الحجيج ويطربوهم أثناء السير . وفي الأغاني وصف مشهد هذه المواكب التي شهدها موسم الحج كان بطله زعيم شعراء الحجاز في ذلك العصر عمر بن ابي ربيعة . فقد خرج في أحسن هيئة ، عليه حلة موشاة ومعه مغنيه ابن سريج وجعل يتعرض لمن يرى من الحسان حتى أمسوا فرفع ابن سريج صوته يغني في شعر عمر فسمعه الركبان وجعلوا يصيحون به ياصاحب الصوت أما تتقي الله قد حبست الناس عن مناسكهم .

وهكذا أصبحت مكة وبنوع أخص المدينة موئلاً للموسيقى في العصر الأموي ومربعاً لهواتها ، وأم بلاط دمشق نفر ممن تخرجوا في فنون الموسيقى من هاتين المدينتين . ولم يكن ليجدي نفعاً تشدد المتزمتين والمحافظين من العلماء الذين كانوا يكرهون السماع ويقرنون الموسيقى بالشرب والقمار ويستشهدون بالأحاديث النبوية التي تذهب إلى أن هذه الملاهي هي نشر الوسائل التي يستدرج الشيطان بها أبناء آدم . إنما كانت مكانة الموسيقى في القلوب أعظم من أن تقاوم بشيء من هذه الذرائع ، لا سيما وأن أرباب الموسيقى أنفسهم كانوا يستندون بدورهم إلى أحاديث نبوية تدعمهم ، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك فزعموا أن الشعر والموسيقى والغناء ليس من الضروري أن تحط من قدر الانسان بل إن لها قسطاً من التأثير في التهذيب النفسي إذ تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب . وكان يزيد بن معاوية أول من سن الملاهي واستجلب المغنين إلى الشام وكان

شاعراً فجعل يقيم الحفلات الكبرى في بلاطه، ومن ثم أصبح الغناء والشرب صنوين متآلفين في تاريخ الدول العربية . وشمل عبد الملك برعايته ابن مسجح من مغني الحجاز ، واستقدم ابنه الوليد ، وهو من رعاة الفن، ابن سريج ومعبداً إلى العاصمة واحتفى بهما ، ثم أعاد يزيد الثاني الشعر والموسيقى إلى سابق مركزهما بعد أن كان عمر بن عبد العزيز الخليفة الورع المحافظ قد حال دونهما . وقد عول يزيد على مواهب حبابة وسلامة، واصطفى هشام حنيناً الحيري وأنعم عليه . كذلك كان الوليد الثاني صاحب شراب ولهو وطرب وسماع للغناء ، فاستقدم المغنين من البلدان المختلفة وأظهر العزف على العود واستقبل في بلاطه عدداً من أرباب الموسيقى والغناء منهم معبد المشهور ، ووافقت ولايته زمن ازدهار الموسيقى في عاصمتي الحجاز فلم يجيء آخر العصر الأموي حتى كان حب الغناء قد سرى في نفوس الناس خاصتها وعامتها ، فاتخذ العباسيون ذلك الأمر سلاحاً على الفت من ساعد خصومهم الأمويين وقاموا ينشرون دعوتهم ويتوعدون « أعداء الله » .

الغناء في العصر العباسي : ازداد إقبال الناس على اختلاف طبقاتهم على الغناء في العصر العباسي . وقد أخذ المهدي الخليفة العباسي نفسه بدعاية هذا الفن فبدأ حيث انتهى الخلفاء الأمويون المتأخرون ، وأحضر إليه سياطاً المكي (٧٣٩ – ٨٥٠ م) صاحب الصوت الشجي الذي قالوا في صوته « أدفا للمقرور من حمام محمى » ثم أحضر أيضاً ابراهيم الموصلي تلميذ سياط (٧٤٢ – ٨٠٤ م) الذي غدا بعد استاذه إمام الأصول الموسيقية الكلاسيكية عند العرب . وكان إبراهيم هذا من أسرة فارسية شريفة وقد خطفته خارج الموصل في حداثته عصابة من الأشقياء فتعلم بعض أغانيهم ، وهو أول من

وقع الايقاع بالقضيب ، وبلغت براعته بالموسيقى أنه كان يستطيع إذا أخرجت اليه ثلاثون جارية فضربن جميعاً طريقة واحدة وغنين في الأوتار وتراً غير مستوٍ أن يشير إلى إحداهن قائلاً يافلانة شدي مثناك فتشده وتستوي الأوتار . ثم جاء الرشيد بعد المهدي فاستلحق ابراهيم به واتخذه نديماً ومنحه (١٥٠) ألف درهم دفعة واحدة ، وصار يصله بعشرة آلاف درهم كل شهر ، وقد أعطاه يوماً مئة ألف درهم من صوت واحد غناه فأعجبه . وكان لابراهيم منافس دونه مرتبة هو ابن جامع القرشي ، وهو ابن سياط بالتبني ، وذكر أن إبراهيم أشد المغنين تصرفاً في الغناء وابن جامع أحلاهم نغمة . وقد سأل الرشيد أحد المقربين اليه من المغنين : « مايقول في ابن جامع ؟ » فأجاب : « وما أقول في العسل الذي حيثما ذقته فهو طيب » .

وكان بلاط الرشيد بأبهته وأناقته قد أخذ يرعى الموسيقى والغناء كما رعى العلم والفن فأصبح موئل الغناء ومقصد أرباب الموسيقى . وقد زها في ظله نفر من أقطاب الموسيقى أجريت عليهم الأرزاق يرافقهم طائفة من عبيد وإماء . وقد تركت هذه العصبة من أهل الفن آثاراً أدبية من قصص الغناء في الكتب كما نرى في « الاغاني » و « العقد الفريد » و « الفهرست » و « نهاية الأرب » و « ألف ليلة وليلة » وقد روي أنه اشترك في مهرجان موسيقي كبير الفان من هؤلاء المغنين والمغنيات تحت رعاية الخليفة الرشيد أما ابنه الامين فقد أحيا مرة ليلة لهو ، رقص فيها أهل البلاط ذكوراً وإناثاً حتى مطلع الفجر ، وبينما كان جند المأمون محيطاً ببغداد كان الأمين جالساً على ضفة دجلة وحوله خواص جواريه يطربنه . ومن المغنين الذين رعاهم الرشيد مخارق (المتوفى ٨٥٤ م) وهو تلميذ ابراهيم الموصلي وكانت قد اشترته إحدى المغنيات وقد حدث أن سمعته ينادي على اللحم الذي

يبيعه أبوه فأعجبت بصوته ثم باعته من آل الزبير وانتهى أمره أن أصبح من عبيد الرشيد فأعتقه ووصله بمئة الف دينار وأدناه من مجلسه . وقد روي عن مخارق أنه توسط دجلة في إحدى الليالي واندفع يغني بأعلى صوته فما بقي أحد من ملاح ولا غلام ولا خادم إلا بكى وظهرت الشموع والسرج من جانبي دجلة في صحون القصور الدور يتساعى بين يدي أهلها يستمعون غناءه وخرج مرة إلى باب الكناسة ببغداد ، والناس يرتحلون للخروج إلى مكة للحج ، فنظر إلى كثرتهم وازدحامهم فقال لبعض صحبه : قد جاء في الخبر أن ابن سريج كان يتغنى في إيام الحج ، والناس بمنى ، فيستوقفهم بغنائه ، وسأستوقف لكم هؤلاء الناس جميعاً ، لتعلموا أنه لم يكن ليفضلني الا بصنعته دون صوته ، ثم انه اندفع يؤذن ، فاستوقف الناس واستلهاهم وتقاطروا نحوه ... وسمعه أبو العتاهية الشاعر يوماً فقال له : لقد رققت حتى كدتُ ان احسدك . فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أدما ، ولو كان شرابا لكان ماء الحياة .

وكان الخليفة الواثق يقول : ما غناني مخارق قط الا قدرت انه من قلبي خلق ولا غناني اسحاق إلا ظننت انه قد زيد في ملكي ملك آخر . وكان من ندماء المأمون والمتوكل إسحاق بن إبراهيم الموصلي (٧٦٧ — ٨٥٠م) عميد أهل الموسيقى في عصره . وقد تمثلت فيه بعد أبيه روح الموسيقى العربية الكلاسيكية . أما مكانته كموسيقي ملم بالصناعة بوجه عام فليس ما يدانيها بحيث قيل فيه إنه « أعظم من أنجبهم الاسلام في هذا الفن » وقد ادعى إسحاق كما ادعى أبوه من قبل وكما ادعى زرياب بعد ، أن الجن كانت تلهمه الألحان . إن هؤلاء وسواهم من أرباب الموسيقى الذين نشأوا في ظلال الخلفاء الوارفة ولا تزال أسماؤهم مقرونة بأسماء الخلفاء كانوا أكثر من موسيقيين . فقد

منحوا من الذكاء والفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحافظة قدراً كبيراً . وكانوا فوق ذلك يحفظون كثيراً من الأشعار المختارة والنوادر المستملحة وغير ذلك من ضروب الفنون ، فهم إذن مغنون وشعراء وعلماء تثقفوا بالثقافة العلمية في عصرهم . ويأتي بعد هؤلاء مرتبة الضاربون ، وأهمهم أصحاب الأعواد ، أما الضاربون على الرباب فقد كانوا أدنى مرتبة . ويلي الضاربين طبقة القيان اللآتي كن يشتركن في الحفلات من وراء الستار وقد كن من الزينة الضرورية في بيوت الحريم. وأصبحت تربيتهن وتثقيفهن من الصناعات الهامة ، وقد ربى إسحاق جارية حتى برعت فبذل فيها رسول صاحب مصر عشرة آلاف دينار فلم يبعها ، وساومه رسول امبراطور الروم فيها على ثلاثين الفاً ثم أوصله رسول صاحب خراسان إلى أربعين ألف دينار ، واحتال إسحاق على أمره معهم بأن أعتقها وتزوجها . لقد فاق بنو العباس في بغداد بني أمية في دمشق بمن خرج منهم من المغنين والمنشدين والضاربين على العود فمن آل العباس نبغ ابراهيم بن المهدي (أخو الرشيد) الذي نازع المأمون الولاية سنة ٨١٧ م وقد اكتسب شهرة عظيمة في الموسيقى والغناء أما الواثق فكان يضرب على العود وقد صنع مئة صوت ، فكان بذلك أول موسيقي بين الخلفاء ، ومن بعده قام المنتصر والمعتز فأظهرا مقدرة في الشعر والموسيقى ، إلا أن الخليفة الذي برع في الموسيقى هو المعتمد وقد القى الجغرافي الشهير ابن خرداذبة في حضرته خطبة في الموسيقى والرقص تعد من الأصول الهامة التي بين أيدينا عن حالة هذين الفنين في ذلك العصر .

الموسيقى النظرية في المشرق : وكان هناك من جملة الكتب اليونانية الكثيرة التي نقلت إلى العربية في العصر العباسي بضعة كتب

تبحث في الموسيقى النظرية . منها اثنان لأرسطو نقلها إلى العربية الطبيب النسطوري الشهير حنين بن إسحاق الواحد تحت عنوان « كتاب المسائل » والثاني « كتاب النفس » وقد ترجم حنين كتاباً لجالينوس بعنوان « كتاب الصوت » ومما ينسب أصله إلى اقليدس كتابان في العربية هما « كتاب النغم » ولم يكن من تأليف اقليدس أصلاً و « كتاب القانون » ، أما ارستوكسنس من رجال القرن الرابع قبل الميلاد فقد عرف خاصة بـ « كتاب الايقاع » كما أن نيكوماكس بن أرسطو عرف « بكتاب الموسيقى الكبير » . وقد عدّ « إخوان الصفا » ، وكان بعضهم فيما يظهر من أصحاب النظريات في الموسيقى ، هذا الفن فرعاً من الرياضيات ، وبجلوا فيثاغورس باعتباره مؤسساً للموسيقى النظرية . وقد استمد العرب من هذه الكتب وغيرها من كتب الاغريق آراءهم العلمية في الموسيقى وأصبحت لهم ثقافة قائمة بذاتها في مبادىء نظرية الصوت الفيزيائية والفسيولوجية ؛ ومن هنا كانت الناحية العلمية الرياضية للموسيقى العربية مستمدة من أصول يونانية ، أما الناحية العملية فنماذجها كما أظهرت أبحاث فارمر عربية بحتة ، وفي هذا العهد استعيرت لفظة موسيقي (وبعدئذ موسيقى) عن اليونانية وأطلقت على مناحي العلم النظرية وخصصت لفظة « الغناء » القديمة للفن العملي وقد كانت إلى ذلك الزمن تفيد الغناء والموسيقى معاً ، أما لفظا « قيثار » و « ارغن » وكثير من الألفاظ الفنية اليونانية الأصل فإنها لا تزال تستعمل في العربية حتى الآن ، ومن الواضح أن الأرغن جيء به من بلاط البيزنطيين . ولقد عاش في القرن الثاني عشر اثنان من صناع الأرغن هما أبو المجد بن أبي الحكم الدمشقي (المتوفى م ١١٨٠) وأبو زكريا يحيى البياسي الذي اتصل بصلاح الدين وكان في خدمته . وكان زعيم

بسم الله الرحمن الرحيم

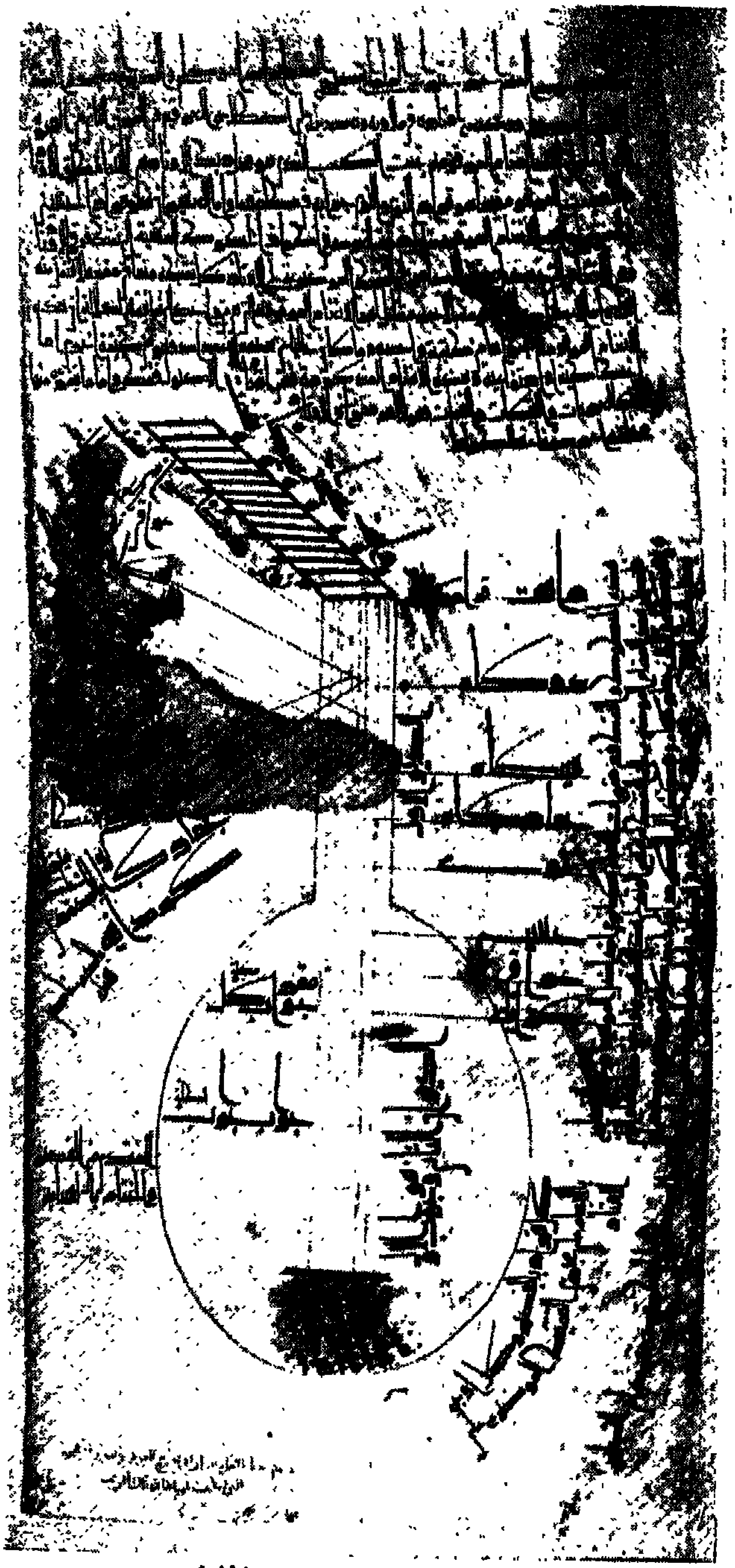

شكل – ١١٦

قطعة فريدة من الرق محفوظة في مكتبة تشستر بيتي فيها صورة العود المثمن ويذكر النص بأنه آخر اختراع الامام الفارابي .
كما يذكر صفاته وبعض التعليمات الموسيقية .

الكتاب الموسيقيين الذين تبعوا المدرسة الاغريقية الفيلسوف الكندي الذي زها في الشطر الثاني من القرن التاسع م وتظهر في كتبه أول معالم الأثر اليوناني . ونجد في واحد من الكتب التسعة المنسوبة اليه أول استعمال صريح لعلامات الموسيقى عند العرب . ولم يكن الكندي وحيداً في علم الموسيقى النظرية بل إن عدداً من رجال الفلسفة الاسلامية والطب كانوا كذلك أيضاً . وقد وضع الرازي (٨٦٥ – ٩٢٥ م) كتاباً في هذا الفن أشار اليه ابن أبي أُصيبعة ، وليس غريباً أن قد يكون وضع غير كتاب واحد . وأما الفارابي (المتوفى ٩٥٠ م) فقد كان يجيد الضرب على العود وهو أعظم من كتب في أصول الموسيقى بين كتاب العصور الوسطى فإنه علاوة عن اشتغاله باخراج طائفة من الشروح على مختلف كتب اقليدس المفقودة اليوم قد وضع ثلاثة أبحاث مبتكرة منها « كتاب الموسيقى الكبير » وكان أهم مرجع في الشرق ، أما في الغرب فأعظم كتبه أثراً وأكثرها شهرة هو كتاب « إحصاء العلوم » وهو أقدم كتاب في هذا الموضوع وقد نقل إلى اللاتينية . وقد نقلت أيضاً إلى اللاتينية تآليف ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧ م) الذي لخص كتباً سابقة لعهده وعقد في « الشفاء » بحثاً في الموسيقى ، وتآليف ابن رشد (المتوفى ١١٩٨ م) وأصبحت هذه التآليف كتباً مدرسية في أوروبا الغربية . أما الغزالي فقد كان لدفاعه عن السماع الأثر الأكبر فيما بلغته الموسيقى من شأن في الطرق الصوفية . .

ومما يؤسف له أن معظم هذه الرسائل الفنية فقد فقدت أصولها العربية : فالموسيقى العربية وعلاماتها وما كانت تقوم عليه من أصول النغم والايقاع ظلت تنقل بالسماع من جيل إلى جيل إلى أن تلاشى أمرها . إن الأغاني العربية اليوم فقيرة بالأنغام غنية بالايقاع ، وليس بين أرباب الموسيقى العربية الحديثة من يستطيع أن يشرح جلياً الكتب الباقية في موضوع الموسيقى

القديمة أو يفقه تماماً علاماتها القديمة وتعابيرها الفنية الموضوعة بها . ويمكن أن نرجع كثيراً من هذه المصطلحات إلى أصول فارسية أو هندية . . .

موسيقى الاندلس :

كان زرياب واضع حجر الأساس في فن الموسيقى الأندلسية وهو تلميذ مدرسة الموصلي البغدادية . وقد نزل زرياب قرطبة عام ٨٢٢ م واستطاع بفضل اتساع معرفته بالموسيقى والأصوات التي لا يعرفها أحد غيره وتضلعه في العلوم الطبيعية وشخصيته الجذابة ولطف معاشرته وظرفه وتأدبه وحضور ذهنه أن يكون مثال الرجل الاجتماعي الممتاز . وكان في قرطبة تحت رعاية عبد الرحمن الثاني عندما اخترع زرياب مضرب العود من قوادم النسر معتاضاً به عن مضرب الخشب ، فأبدع في ذلك للطف ضرب الريشة ونقائه وخفته على الاصبع . وزاد في أوتار عوده وتراً خامساً ،وأنشأ مدرسة غدت معهداً كبيراً للموسيقى الأندلسية ، ثم تبعتها مدارس أخرى في إشبيلية وطليطلة وبلنسية وغرناطة . . . ويتلو زرياب مرتبة أبو القاسم عباس بن فرناس (المتوفى ٨٨٨ م) وإليه يعزى الفضل الأكبر في إدخال الموسيقى الشرقية إلى اسبانيا وتعميمها ، ويقال إنه أول من استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة . وإنه صنع آلة في منزله على هيئة السماء يخيل للناظر فيها أنه يرى النجوم والغيوم والبروق .

وكان ابن فرناس أول رجل في تاريخ العرب حاول الطيران بطريقة علمية . وكانت عدته عبارة عن رداء من ريش كسا نفسه به وجعل له فيه جناحين ، وقد قيل إنه طار في الجو مسافة ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأذى في مؤخرته لأنه لم يعمل له ذنباً . على أن الموسيقى النظرية والتطبيقية التي أدخلها زرياب وابن فرناس كانت فارسية عربية ،

وبتوالي الأعوام أخذت أصول الموسيقى اليونانية والفيثاغورية تحل محلها ، حين كانت الكتب اليونانيـــة التي تدور حول هـذا الموضوع تنقل إلى العربية . ومما يدل على سلطان الموسيقى والألحان على قلوب أهل الأندلس ما أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد عن فضلها قال : هي الصناعة التي هي مراد السمع ومرتع النفس وربيع القلب ومجال الهوى ومسلاة الكئيب وأنس الوحيد وزاد الراكب . . . وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف ، وصلة الرحم والذب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب وقد يبكي الرجل بها على خطيئتـــه ويرقق القلب من قسوته ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله في ضميره » .

وعلى العموم فان المسلمين الغربيين كانوا أكثر ميلاً إلى فن السماع والضرب من زملائهم الشرقيـين . ولم يأت آخر القرن الحادي عشر حتى كانت الموسيقى الأندلسية قد كسفت شهرة بغـداد في هذا الموضوع ، وفي هذه الحقبة أصبحت اشبيلية تحت حكم بني عباد الذين حكموا قرطبة أيضاً مدة وجيزة مركزاً للموسيقى والغناء وغيرهما من ضروب اللهو التي تقترن عادة بعصور العرب الزاهية في ربوع الاندلس . فالمعتمد العبادي لم يكن شاعراً ملهماً فحسب بل كان يحسن الانشاد أيضاً والضرب على العود ، واشتهرت عاصمة بني عبّاد بصناعة الآلات الموسيقية وتصديرهـا ، وهناك رسالة في الموسيقى ترجع إلى عصر المرابطين للفيلسوف ابن ماجـه (المتوفي ١١٣٨ م) الذي زها في اشبيلية وفاس وهي مفقودة الآن ، ولكنها كانت عنـد أهل الغرب توازي من حيث قيمتها وأهميتها الرسالة التي ألفها الفارابي في الشرق ، وظهر في عهد الموحدين فيلسوف آخر هو

ابن سبعين « المتوفى ١٢٦٩م » بحث في تناسب الأنغام الموسيقية في كتاب «الأدوار المنسوب » منه نسخة وحيدة محفوظة في القاهرة ، وحدث مرة في مناظرة جرت في حضرة المنصور ثالث ملوك الموحدين بين ابن رشد والرئيس ابي بكر بن زهر في المفاضلة بين قرطبة واشبيلية أن رد ابن رشد على ابن زهر بهذا الكلام مدافعاً عن قرطبة :

ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية . . .

اثر الموسيقى العربية في اوربا: وكان كلما ازداد ارتياح عامة الشعب من الاسبان والمولدين إلى النماذج الغنائية العربية ازدادت الأغاني العربية انتشاراً وشعبية في أنحاء اسبانيا ، وقد لمع من العرب موسيقيون في قصور الملوك بقشتالة والأرغون ، وعرف كثيرون من أهل الرقص والغناء العرب في اسبانيا بعد سقوط غرناطة بيد الأفرنج بزمن طويل ، وكانوا لايزالون يعملون بواسطة فنهم على تسلية أبناء اسبانيا والبرتغال ، وتشير أبحاث ريبيرا الاخيرة إلى أن الموسيقى الشعبية في اسبانيا بل موسيقى الجنوب الغربي من أوربا بأسرها في القرن الثالث عشر وما بعده كانت كالروايات الغرامية الغنائية والتاريخية في الأقاليم مشتقة من منبع أندلسي انبثق في نشأته من مصادر عربية وفارسية وبيزنطية ويونانية ، كما انتقلت الفلسفة وعلم الرياضيات والطب من بلاد الإغريق ورومة إلى بيزنطة وفارس وبغداد ثم إلى اسبانيا ومنها إلى انحاء اوربا انتقلت أيضاً عدة فروع من الموسيقى النظرية والعملية العربية إلى أوروبا . والواقع أن كثيراً من الآلات الظاهرة في الرسوم الاسبانية الدقيقة وصور بعض الأشخاص الضاربين عليها هي دون جدال إسلامية الأصل ، ومن الرسوم الاسبانية الدقيقة ما يظهر فيها موسيقيون عرب يلعبون

الشطرنج . وقد ورد في اللغة الاسبانية نفسها أول وصف لهذه اللعبة بلغة أوروبية وذلك في مؤلف لألفونسو العاشر ملك قشتالة وليون من عام ١٢٥٢ إلى ١٢٨٢ م . وكان الفونسو من أعظم دعاة العلوم الاسلامية في اسبانيا النصرانية واليه يرجع الفضل في وضع تلك المجموعة الشعرية الرائعة التي ترجع موسيقاها في رأي ريبير إلى أصل اندلسي اسلامي ، وقد أثر الشعر العربي على ظهور طبقة « التروبادور » الذين أخذوا يحاكون منشدي العرب ، لا من حيث العاطفة والطبيعة فحسب ، بل من حيث الصور والأشكال نفسها التي أخرجوا فيها أناشيدهم ، وقد كانت بعض العناوين التي أطلقها شعراء البروفنسال هؤلاء على مقطوعاتهم الغنائية ترجمة لعناوين عربية . والراجح أن أدلارد أوف باث الذي درس الموسيقى في باريس هو الذي ترجم رسالة الخوارزمي في الرياضيات وكان فيها قسم عن الموسيقى . ومن هنا فان هذه الرسالة هي من أقدم الرسائل التي أدخلت الموسيقى العربية إلى عالم اللاتينية . وكان في حوزة العرب منذ أيام ادلارد في الشطر الأول من القرن الثاني عشر رسائل اغريقية قديمة تعنى بالموسيقى مترجمة إلى العربية ؛ وعرفوا كذلك مؤلفات الكندي والفارابي وابن سينا وابن ماجه التي وضعوها هم أنفسهم في هذا الفن . ولم يأت آخر القرن حتى أصبحت أكثر هذه المؤلفات الجديدة معروفة في أوروبا بفضل ترجماتها اللاتينية التي وضعت في طليطلة . ومما يجدر ذكره هنا أنه في هذا العهد نفسه ظهر نظام جديد للموسيقى المسيحية الأوربية يقوم على أن للنوتات والارقام الموسيقية قيماً وقتية محدودة أو نسبة معينة فيما بينها .

وأول من شرح حقيقة هذه الموسيقى القياسية أو الغناء المقيس ، رجل غامض الهوية إسمه فرانكو الكولوني (نحو ١١٩٠ م) وليست أرقامه

الموسيقية المعروفة بالأرقام الفرنكونيـــة لتختلف في أصلها عن أرقامنا الحديثة . ولكن هـذه الموسيقى القياسيـة نفسها كانت تشكل قسما قائماً بذاته من الموسيقى العربية وكانت تعرف باسم الايقاع ، وذلك قبل عصر فرانكو المذكور بما لا يقل عن أربعة قرون ، وقد أفاض الكندي (لمع نحو ٨٧٠ م) في ايضاحها ، وقد ظهرت بعد فرانكو رسالة منسوبة إلى جون أوف غارلنـد عولجت فيا أصول الـ « أوكيتس » أي « أسلوب التوقيع » ، ولعل لفظة « اوكيتس » نفسها هي تحريف لفظة ايقاعات العربية . والراجح أن الموسيقى القياسية هي أعظم ما نفح به العرب هذا الفن ، ولم تكن المأثرة الوحيدة في هذا المضمار، زد على هذا أن الآلتين اللتين كان لهم السهم الأوفر في تقدم فن الموسيقى في الغرب هما « العود والرباب » وكلاهما دخيلان نقلهما العرب إلى غربي أوروبا .

الفهـــــرس

٩ — ٢٦ الفصل الاول : الفن العربي الاسلامي .

٩ الفن الاسلامي — ١١ ظهور الفـن العربي الاسلامـي وتطوره — ١٥ عصور الفن الاسلامي — ٢١ ميزات الفن العربي الاسلامي .

٢٧ — ٤٩ الفصل الثاني : المدن الاسلامية .

٢٧ بناء المدن في الاسلام — ٢٩ مدن العراق — ٣٨ مدن الشام — ٤٠ مدن مصر — ٤٢ مدن المغرب — ٤٥ مدن الاندلس .

٥٠ — ٦١ الفصل الثالث : فن الريازة والعمران في الاسلام .

٥٠ فن العمارة الاسلامية — ٥٣ مدارس فن العمارة الاسلامية — ٥٤ المدرسة السورية — المصرية — ٥٥ المدرسة العراقية — الفارسية — ٥٦ المدرسة الهندية — ٥٧ مدرسة المغرب والانـدلس — ٦٠ مدرسة الفـن المدجن — ٦١ المدرسة العثمانية .

٦٢ — ٩٤ الفصل الرابع : المساجد

٦٢ المساجد وظواهرها المعمارية — ٦٣ الحرم الشريف في القدس — ٦٦ المسجد الاموي بدمشق — ٧٠ جامع القيروان — ٧١ جامع الزيتونة — ٧٣ مسجد قرطبة — ٧٤ مسجد سامراء — جامع ابن طولون — ٧٨ الجامع الازهر — ٨٠ مساجد العصر المملوكي في الشام ومصر — ٨١ : مساجـد الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون والسلطان حسن — ٨٢ مساجد العصر السلجوقي — ٨٣ مساجد العصر المغولي في ايران — ٨٥ مساجد العصر الهندي المغولي — ٨٦ مساجد العثمانيين — ٨٨ الفن .

٩٥ — ١٠٨ الفصل الخامس : القصور والابنية الحربية .

٩٥ القصور — ١٠٥ الابنية الحربية قلعة حلب — ١٠٦ قلعة الحصن — ١٠٧ الرباط .

١٠٩ ــ ١٢٣ الفصل السادس : الفنون الجميلة : ١ ــ الرسم والتصوير والنقش والنحت

١٠٩ النقش والتصوير وضع التماثيل ــ ١١٦ مدارس الرسم والتصوير .

١٢٤ ــ ١٣٥ الفصل السابع : الفنون الجميلة : ٢ ــ الكتابة والخط .

١٣٦ ــ ١٥٣ الفصل الثامن : الفنون الجميلة : ٣ ــ الزخرفة والنقش التزييني .

١٥٤ ــ ١٧٣ الفصل التاسع : الفنون الجميلة : ٤ ــ الفنون التطبيقية .

١٥٤ ــ الخزف ــ ١٦٠ الزجاجيات ــ ١٦٣ السجاد ــ ١٦٥ الحفر ــ ١٧٣ الفسيفساء .

١٧٤ ــ ١٩٣ الفصل العاشر : الفنون الجميلة : ٥ ــ الغناء والموسيقى .

١٧٤ تطور الغناء منذ الجاهلية ــ ١٨٢ الغناء في العصر العباسي ــ ١٨٥ الموسيقى النظرية في المشرق ــ ١٨٩ موسيقى الاندلس ــ ١٩١ اثر الموسيقى العربية في أوربا .

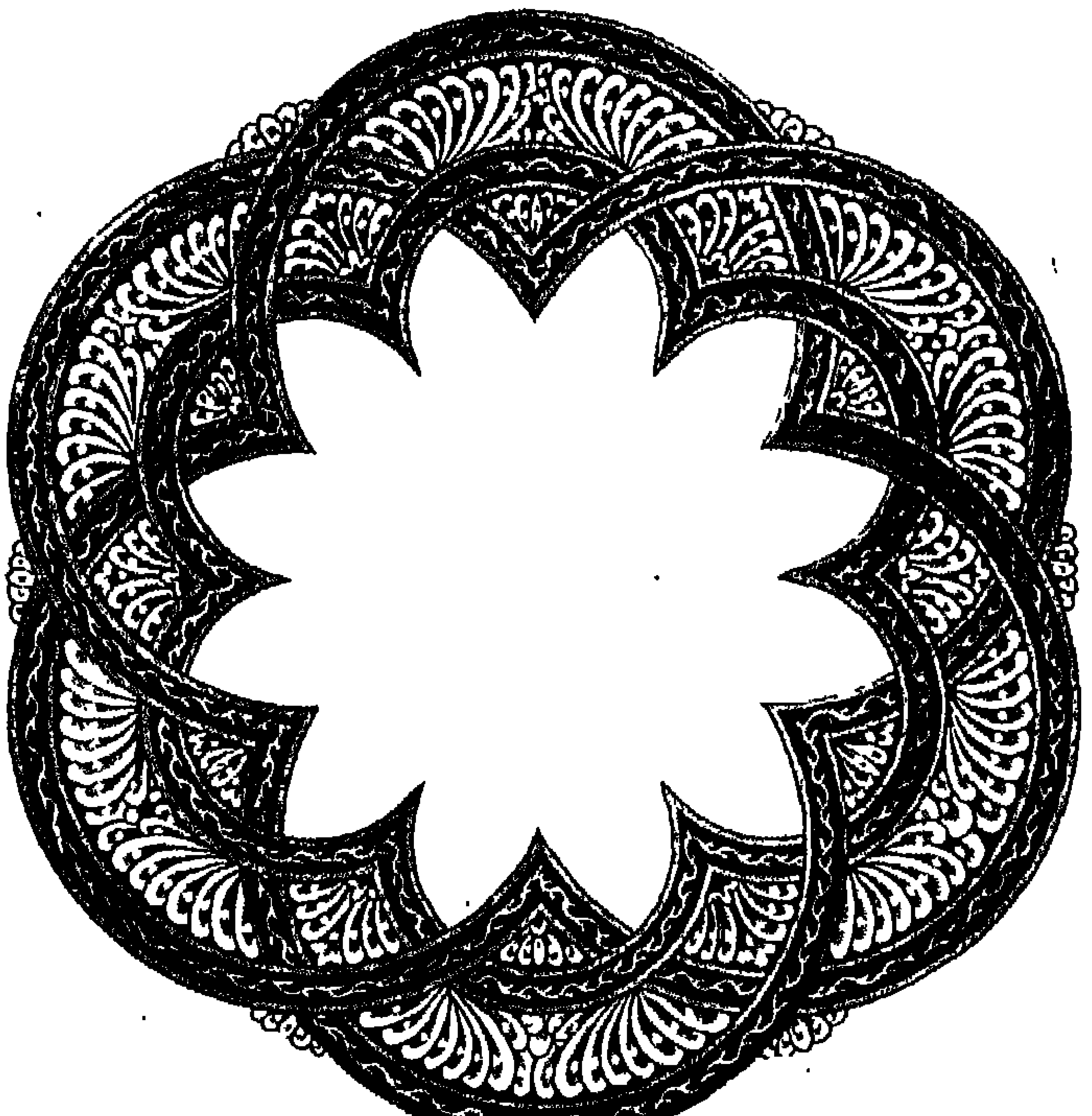

History of

ART

uring Arabs & Muslims

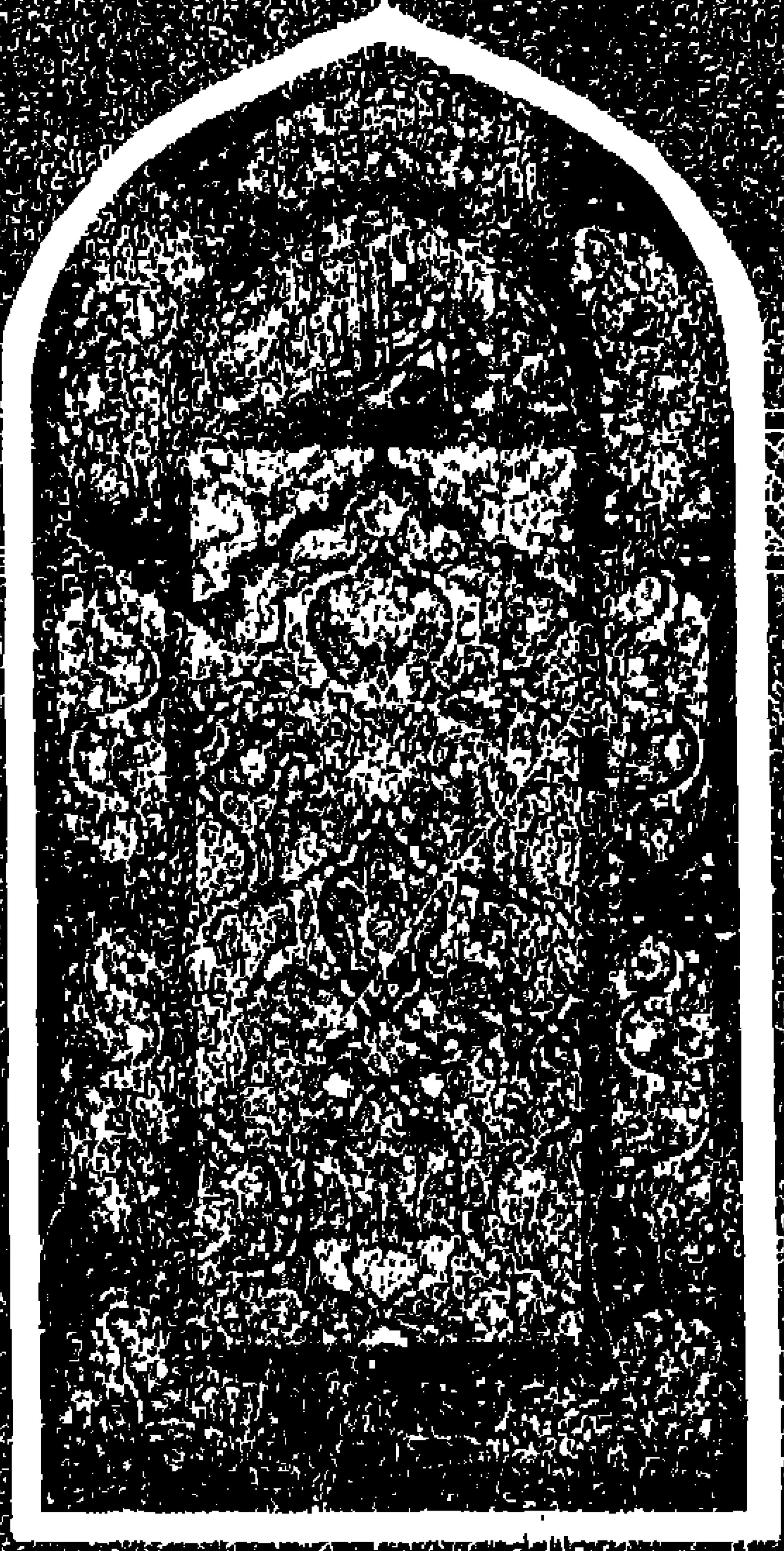

دار الفكر